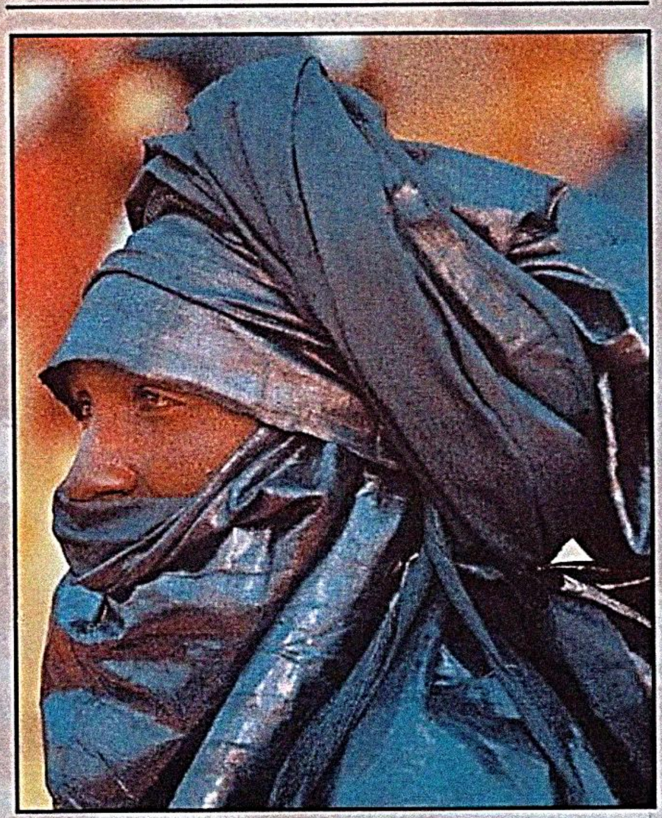
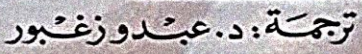
ألبرتو باثكث - فيكيروا



رواية







ألبرتو باثكث ـ فيكيروا

طوارق

رواية

ترجمة: د. عبدو زغبور

* ألبرتو باثكث - فيكيروا
* طـــــوارق
* ترجمة: د. عبدو زغبور
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2004
* موافقة وزارة الإعلام رقم 78358
* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة - دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* التـــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 - 5141441 - ص.ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب:

TUAREG

تقديم

من الصعب أن تقرأ رواية «ألبرتو باثكث فيكيروا» دون أن تصاب بالدهشة والمتعة معاً. فرواية «طوارق» رواية غرائبية، يمتزج فيها السحر واللامعقول مع حرارة الواقع. نحن هنا، داخل عمل فيكيروا، نعبر مغامرة تضعنا بين ظلال الخيال واحتمالات اليقين في مجرى الأحداث على امتداد الصحراء المغربية ـ الأفريقية.

ونسأل، ونحن ننتقل من مشهد إلى آخر، هل هذه رواية مغامرة متخيلة؟ أم أنها رواية حكائية شبه أسطورية تفاجئنا، كما في الحكايات الخرافية، بما هو غير متوقع؟ فغزال صياح، الشخصية المحورية، شبه الخارقة، وهو يطارد خصومه طلباً للثأر، يعيد إلى ذاكرتنا قصص وحكايات قديمة كانت تحدث في الصحارى العربية قبل الإسلام حول الأخذ بالثأر كشريعة قتل، اقتصاصاً من القاتل المبادِر، بين قبيلة وأخرى، مما أدّى إلى حروب كانت تدوم عشرات السنين.

هنا في رواية «طوارق» تستعاد التقاليد العربية القديمة، من خلال رجل أسطوري ـ صيّاد يطارد عبر هجير الصحراء، وأرض الخواء، والعطش والخوف والموت والتيه والرمال الحارقة، خصوماً حكوميين يتمكن من قتلهم واحداً تلو الآخر، جرّاء قتل أحد ضيوفه في مضارب خيامه، وأسر الآخر.

يضع رجل الطوارق الملثم قانونه الخاص في الاقتصاص شريعة له. وهو هنا يتبع عادات وتقاليد الطوارق في مسألة حماية الضيف والحفاظ على حياته حتى ولو كان مطلوباً مادام في حماه.

وغزال صيّاح هذا الطارقي، فطري الطبيعة، وابن الصحارى والمدى، بعد قتله مبارك بن سعيد ثأراً بالسيف لأنه كان دليل القائد العسكري إلى مضاربه، وبعد قتل الضابط غالب الفاسي قائد موقع «عدوراس»، يتحوّل إلى رجل مطلوب ومطارَد في عمق الصحراء الجهنمية من قبل الحكومة ممثلة بالعسكر.

جرّاء براعة التشويق، وهي ميزة روائية كلاسيكية تتمتع بها رواية المغامرات، فنحن لا نستطيع كقرّاء التكهن بما سيجري في المشهد القادم.

وهكذا يبقينا فيكيروا تحت صدمة المفاجأة لما سيجري إثر كل حادثة، وفي أعقاب المطاردات والمغارات المتوالية لغزال صيّاح، رجل الصحراء الذي يعرف مفاصلها: حجارتها، رمالها، أرض خوائها القاتلة، غزلانها وثعالبها، أفاعيها وضباعها.

في حقيقة الأمر يبدو الروائي هو العارف لا بالصحراء وتفاصيلها الجغرافية وحسب، إنما بالتقاليد والأعراف والبناء النفسي لشعب الصحراء، وروح الجرأة والشهامة وحرية الاختلاط بين الجنسين كظاهرة غريبة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

نقرأ في السرد، كما يُعبِّر المؤلف من خلال تجربته الواقعية المُعاشة مع الطوارق: «الطوارق هم الوحيدون بين كل الشعوب الإسلامية الذين مازالوا يتبعون بوفاء تعليمات محمد، معلنين المساواة بين الجنسين، ونساؤهم ليس فقط أنهنّ لا يحجّبن وجوههنّ بحجاب - خلاف الرجال - إنما يتمتعن أيضاً بحرية مطلقة حتى لحظة الزواج.

فتيات وفتيان يجتمعون للعشاء على ضوء الصّلاء، يتسامرون

بالحكايات، ويرقصون ويغنون في مجموعات حتى ساعات الفجر الأولى. وفي نهاية العشاء يختفي كل زوجين في العتمة للبحث فوق الرمال الطرية، والغندورة البيضاء الممددة فوقها، عن إرضاء رغباتهما التي عبّرا عنها بسعف اليدين».

وفي سياق هذه المغامرة الأسطورية، ينزاح البعد الفردي نحو أفق سياسي في النهاية، ليكشف لنا عن مرمى أعمق هو: الصراع على السلطة في أعقاب رحيل الاستعمار عن المغرب العربي. ومن خلال هذا الانزياح من الفردي إلى الجماعي، ومن الذاتي إلى الموضوعي تكتسب الرواية أفقاً موضوعياً، ومعرفياً، يشير إلى معرفة الروائي بالصراع السياسي، وآلية الفساد القائمة في بنية مجتمعات بلدان العالم الثالث في أفريقيا والبلاد العربية، كسمة من سمات التخلف السائدة على نحو قارّي.

بقي أن نشير إلى الأسلوب الشيّق والساحر، والنسيج البنائي للعمل الروائي، وهو الأكثر إدهاشاً ومتعة، وإدراكاً للتفاصيل وإيقاعات الوصف التعبيري، عبر فضاء الطبيعة والإنسان، والإحساس الشفّاف بالعزلة الجارحة للإنسان المطارد كذئب وحيد في أعماق خواء الصحراء الملحية.

لنقرأ هذا المقطع الساحر خلال المطاردة اليائسة:

«كان الليل الأكثر سكينة بين الليالي. لم تبكِ الريح، ولم ينمّ أقل صوت عن قوائم المَهري المخملية حين تطأ الملح، وليس ثمة ضباع أو بنات آوى تعوي هناك في مركز السبخة الشاسعة مطالبة بغنيمته.

مرتفعاً بدا القمر، بدراً ساطعاً ونظيفاً، مرسِلاً بريقاً لجينياً على ألوف الملايين من المرايا لسهب بلا عارض واحد، حيث فوقه طيفُ المَهري وفارسه يشكلان وهماً، مظهراً شبحياً خارجاً من عدم الليل نحو عدم الظلال، صورة محضة للعزلة المطلقة، ربما لم يكن أي كائن بشري في مثل وحدة ذلك الطارقي في تلك البقاع المالحة».

في النهاية ليس من المبالغة أو الإشهار الدعائي القول عن هذا العمل الروائي الممتع:

إنه عمل نادر، يعطيك إحساساً باللذة إذا استعرنا من رولان بارت فكرة تشير إلى أهمية العلاقة بين الكتابة واللذة.

حيدر حيدر

1

«إلى والدي»

«الله أكبر والحمد لله.

«حدث في مناسبة معيّنة، منذ سنوات عديدة، وكنت ماأزال شاباً، وساقاي تحملاني بيسر عبر سفر طويل على الرمل والحجارة دون إحساس بالتعب أو الوهن، إذ أخبروني بأن أخي الأصغر أصيب بمرضٍ. ومع أن ثلاثة أيام من السفر تفصل بينه وبين خيمتي فقد استطاع الحب الذي أكنّه له أن يتغلب على التواني، وشرعت بالمسير دون وجلٍ، حيث كما قلت، كنت شاباً صلباً، وما من شيء يهيب همتي.

«وصلت حينما حلّ المساء، في اليوم التالي من السفر، إلى مكانٍ كثبانه مرتفعة، ويقع في منتصف المسافة حيث ضريح الولي عمر إبراهيم. تسلقت إحدى الكثبان علّني ألمح مكاناً مأهولاً أطلب فيه استضافة، بيد أنني لم أتبيّن شيئاً، لذا قررت أن أتوقف لأقضي الليل هنا محتمياً من الريح.

«كان القمر مرتفعاً جداً ـ ولولا إرادة الله لكانت مصيبتي أكبر من دونه في تلك الليلة ـ حينما أيقظتني صرخة لا إنسانية أحبطت همتي وجعلتني أمسك أطرافي قابعاً من الهلع.

«هكذا كنت ألبث حينما جاءتني من جديد تلك الصرخة المرعبة، وتبعها عدد لا يُحصى من التأوهات والنواح مما جعلني أفكِّر أن روحاً تتألم في الجحيم استطاعت أن تنفذ إلى الأرض بصراخها.

«فجأة شعرت بأحدٍ يحفر في الرمل، ويتوقف بعد قليل ليظهر في مكان آخر. وهكذا شعرت به في خمسة أو ستة مواقع مختلفة، بينما التأوهات الممزقة لشغاف القلب تتابع نواحها، والخوف يجعلني أنكمش على نفسي مرتجفاً.

«لم تنتهِ هنا مصيبتي، بعد لحظة سمعت تنهدة تعبة، تبعتها رشقات من الرمل على وجهي، وليسامحني أجدادي إذا ما اعترفت، بأنه اعتراني خوف مرعب جعلني أقفز راكضاً وكأن إبليس، الشيطان الرجيم نفسه يلاحقني. وهكذا لم تتوقف ساقاي حتى أضاءتني الشمس، ولم يبق خلفي أي أثرٍ صغير لتلك الكثبان الكبيرة.

«وصلت بعدئذٍ إلى بيت أخي، وبإرادة الله وجدته قد أبلَّ من مرضه بشكلٍ استطعت فيه أن أسمع حكاية ليلتي المرعبة تلك، وروايتها أمام الموقد الأليف كما أرويها لكم الآن، فأحد الجيران أعطاني تفسيراً لما حدث وروى لي ما كان والده قد رواه له:

«وهذا ما قاله:

«الله أكبر والحمد لله.

«حدث منذ سنوات عديدة أن عائلتين من العائلات القديرة، آل زايد وآل عثمان، كانتا تضمران حقداً على بعضهما إلى الحدِّ الذي أريق فيه دم كل واحد منهم بمناسبات عديدة، حتى أن أسمالهم وقطعانهم كانت ملطخة بالأحمر على مدى حياتهم. وحدث أنَّ شاباً من آل عثمان كان آخر ضحية، فكان هؤلاء مأخوذين بحمأة الثأر.

«وحدث أيضاً أنه بين الكثبان، حيث نمت أنت، ليس بعيداً عن ضريح الولي عمر إبراهيم، نُصبت خيمة لآل زايد مات فيها كل

الرجال، ولم يكن يقطنها سوى امرأة مع ابنها، وكانا يعيشان باطمئنان. وحتى بالنسبة لهاتين العائلتين اللتين تحقدان على بعضهما بهذا القدر، فإن مهاجمة امرأة يعتبر أمراً شائناً.

«ولكن حدث في إحدى الليالي أن ظهر أعداؤهم، وبعد أن كبّلوا يدي الأم المسكينة الغاصة بالبكاء والنحيب، أخذوا الطفل بقصد وأدِه حياً في إحدى الكثبان.

«قوية كانت القيود، ولكن ما من شيء أقوى من حب الأم، كما هو معروف. واستطاعت المرأة أن تتخلص من قيودها، وعندما خرجت كان الجميع قد ذهبوا ولم ترَ سوى عدد لا نهائي من الكثبان المرتفعة. قفزت من واحدة إلى أخرى وهي تحفر هنا وهناك، ناحبة وصارخة باسمه، لأنها تعرف أن ابنها سيختنق، وهي الوحيدة التي تستطيع إنقاذه.

«وهكذا فاجأها الفجر.

«وهكذا تابعت الحفر يوماً بعد يوم، بعد آخر، بعد آخر. إن رحمة الله قد منحتها الجنون كي لا تتألم كثيراً وكي لا تدرك كم من الإثم والشر يكتنف البشر.

«وما من أحد عاد يعرف شيئاً عن تلك المرأة المنكوبة، ويحكون أن روحها في الليل تطوف الكثبان، ليس بعيداً عن ضريح الولي عمر إبراهيم، ومازالت تتابع بحثها ونحيبها. ويجب أن يكون ذلك صحيحاً، فأنت نمت هناك دون معرفة ذلك، والتقيت بها.

«الحمد لله الرحمن الرحيم الذي سمح لك بالخروج سليماً، ومتابعة رحلتك بينما تجتمع بنا الآن على الرحب أمام الموقد.

«الحمد لله».

تنهد العجوز بعمق بعد الانتهاء من حكايته. وملتفتاً إلى الفتيان الذين يستمعون للمرة الأولى إلى تلك الحكاية القديمة، قال:

ـ أترون كيف أن الحقد والصراع بين العائلات لا يقود إلى شيء سوى الرعب، والجنون والموت. قاتلت طبعاً خلال سنوات طويلة إلى جانب أهلي، أعداءنا الأبديين في الشمال، آل ابن عزيز، ولكن لم أجد شيئاً حسناً يمكن تبريره قط، إذ يدفع حقد الواحد بحقد الآخر، والقتلى من كل طرف لا يقدَّرون بثمن، كسلسلة تجرُّ أمواتاً جدداً. الخيم تبقى فارغة مِنْ دون سواعد قوية، والأبناء يكبرون دون سماع صوت الأب.

لم يتكلم أحد خلال دقائق لأنه يجب التأمل بما تعلّمه لنا هذه الحكاية التي سردها للتو العجوز سويلم، فليس من الحكمة نسيانها في لحظتها، وعلينا ألا نُزعج رجلاً موقّراً يهدر ساعات من نومه، متعباً نفسه لأجلهم.

أخيراً، غزال الذي استمع عشرات المرات إلى هذا الحديث القديم، أشار بإيماءة من يده إيذاناً بأن الوقت حان كي ينسحب الجميع إلى النوم، وابتعد وحيداً ككل الليالي، لكي يتأكد من أن القطيع قد أدخل الحظيرة، والخدم نفذوا أوامره، وأن عائلته ترقد بسلام، وإذا ما كان النظام يخيّم في «إمبراطوريته» الصغيرة المبنية من أربعة مضارب منسوجة من وبر الجِمال، ونصف دزينة من الزرائب المجدولة بالقصب، بئر، تسع نخلات وبضع معز وجِمال.

وككل الليالي صعد ببطء حتى الكثبان المرتفعة والمتينة التي تحمي مضربه من رياح الشرق، تأمل على ضوء القمر بقية هذه الإمبراطورية: صحراء شاسعة ولا نهائية. مسيرة أيام وأيام فوق الرمال، والصخور، والجبال والحجارة، حيث غزال صيّاح يملك السلطة المطلقة عليها، وهو «الإنموشار»(*) الوحيد المستقر هنا، وهو أيضاً المالك للبئر الوحيد المعروف.

كان يحب الجلوس فوق ذلك المرتفع كي يشكر الله على نِعَمِهِ

(*) إنموشار: صفة يطلقها الطوارق على أنفسهم.

الكثيرة: العائلة الرائعة المتناسقة، صحة خدمة، الحالة الجيدة لحيواناته، ثمار نخيله، والخير السامي الذي جعله يولد نبيلاً بين نبلاء قبيلة «كيل ـ تالغيموس» القديرة، «شعب اللثام»، «شعب الأماهِغ(*)» الذي لا يُقهر والمعروف بين الأحياء بلقب «طوارق».

لا شيء في الجنوب، في الشمال، في الشرق أو الغرب، لا شيء يضع حدوداً لسيطرة «الصياد» غزال، الذي ابتعد شيئاً فشيئاً عن المراكز المأهولة، كي يستقر في أبعد نقطة في الصحارى. هناك حيث يستطيع أن يشعر بأنه وحيد بشكل كامل مع حيواناته البريّة، مع المَهَاةِ الهاربة التي ترصدها خلال أيام في السهوب، ودّان(**) الجبال العالية، معزولة بين بحار هائلة من الرمال، حُمُر متوحشة، خنازير برية، غزلان، وأسراب لا نهائية لطيور مهاجرة.

كان غزال قد سمع بتقدم الحضارة، بنفوذ الغزاة والإبادة بلا تمييز لبهائم الرمال. ومعروف في كل الصحراء الشاسعة، بأن غزال صيّاح ليس له مثيل في الضيافة من «تُمبُكتو»(***) حتى ضفاف النيل، مع أن حنقه كان ينقضُّ على قوافل العبيد و«الصيادين المجانين» الذين تجاسروا على التوغل داخل حدوده.

ـ علّمني أبي ـ كان يقول ـ ألا أَقتل سوى غزالة واحدة، مع أن قطيع الغزلان يكلفني بعد ذلك ثلاثة أيام للوصول إليه. أنا أُشفى بعد ثلاثة أيام من المسير، ولكن لا أحد يستطيع إعادة الحياة لغزالة ميتة بلا جدوى.

غزال كان شاهداً كيف قضى «الفرنسيون» على الرِئام في الشمال، وعلى الودّان البريّة في القسم الأعظم من الأطلس، وعلى

(*) «أماهغ»: جمع، مفردها إموهاغ، وهو الاسم الذي يطلقه الطوارق على أنفسهم وتعني النبيل. م.

(**) موفلون: ودّان: أقدم حيوان في الصحراء الكبرى وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر. م.

(***) تمبكتو: مدينة في مالي قرب منعطف نهر النيجر، وعاصمة إمبراطورية سُنغاي في القرن الخامس عشر والسادس عشر. م.

المَهَاةِ الفائقة الجمال في الحمادة، في الجانب الآخر من الساقية الكبيرة، حيث كانت منذ آلاف السنين نهراً غزيراً. وبسببهم اختاروا هذا الركن من السهوب الحصباء، رمل لا نهائي وجبال صلبة على مسير أربعين يوماً من العقبة، لأنه لم يطمع سواه بمكان أجرد كهذا في هذه الأرض، ولا بمكان أقفر منه في كل الصحارى.

تلاشت في الماضي تلك الأزمنة المكللة بالنصر، عندما كان الطوارق يسطون على القوافل، أو يهاجمون عسكر الفرنسيين بالعواء، ومضت كذلك أيام السلب، الكفاح والموت، راكضة مثل رياح السهوب، فخورين بلقبهم «عصابة الصحراء»، و«أسياد» رمال الصحراء، من جنوب الأطلس حتى حدود تشاد. ونسوا أيضاً حرب قتال الأخوة، والغارات التي يحتفظ الشيوخ بها في ذاكرتهم القصيّة السارة، وتلك كانت سنين غروب سلالة «الأماهِغ»، لأن بعض المحاربين الجسورين كانوا يقودون شاحنات الفرنسيين، ويخدمون في الجيش، أو يبيعون قماشاً وصنادل إلى سيّاح بقمصان صارخة الألوان.

اليوم الذي هجر فيه ابن عمّه سليمان الصحراء، وذهب ليعيش في المدينة مقرراً نقل حجارة بناء ساعة بعد ساعة، وسخاً من الإسمنت والكِلس، مقايضاً ذلك بنقود بائسة، في ذلك اليوم أدرك غزال بأن عليه أن يهرب ويتحول إلى الطارقي الأخير الأوحد.

ها هو ذا مع عائلته، يشكر الله ألف مرة ومرة، لأنه في كل السنين التي مضت ـ وهي كثيرة حتى أنه أضاع الحساب ـ لم يندم ليلة واحدة، وهو متوحد هناك في أعلى كثبانه، على قراره هذا.

عاش العَالَم في تلك الأزمنة أحداثاً غريبة، وصلته عنها إشاعات محيّرة جداً، عن طريق بعض المسافرين المنعزلين. كم فرح لأنه لم يرها عن كثب، حيث الأخبار القديمة تتكلم عن الحرب والموت، الضغينة والجوع، عن تغيرات كبيرة ومتسارعة، تبدلات لم يكن يشعر أحد فيها بالرضى، ولم يضمر أحد خيراً لأحد.

في إحدى الليالي، وكان يجلس في هذا المكان ذاته، يتأمل النجوم التي قادته مرات عديدة في دروب الصحراء، اكتشف فجأة نجمة جديدة ساطعة وسريعة، تشق السماء، حازمة ومثابرة، لا كطيرانٍ طائش لنيزك من النجوم الشاردة والتي تسقط فجأة في العدم، آنذاك تجمّد دمه للمرة الأولى من الرعب. لا شيء موجود في ذاكرته ولا في ذاكرة أجداده، لا في التقاليد ولا في الأساطير، ما يروي عن نجمة كهذه، التي عادت تتبع المسار ذاته ليلة بعد ليلة، وتجمّع في سنينٍ متعاقبة غيرها الكثير لتكوِّن سرباً مشابهاً وسياراً، والتي جاءت تعكِّر صفو السماء.

أي معنى كان لذلك، لم يستطع أن يعرف قط، لا هو ولا العجوز سويلم، أب كل الخدم تقريباً، وهو عجوز إلى درجة أن والد غزال اشتراه، وكان سويلم شاباً، من السنغال:

ـ «لِمَ تركض النجوم هكذا كالمجانين في السماء قط، يا سيدي ـ قال ـ قط. وهذا يعني أن نهاية الأزمنة تقترب».

سأل مسافراً، لكنه لم يستطع أن يعطيه جواباً. سأل آخر الذي غامر شاكّاً:

ـ «أعتقد أنه شيء يتعلق بالفرنسيين». لكنه لا يريد أن يقبل بذلك، لأنه سمع الكثير عن تقدم الفرنسيين، بيد أنه لا يعتقد بأنهم مجانين إلى درجة هدر الوقت في ملء السماء أكثر بالنجوم».

«يبدو أن الأمر يتعلق بإشارة إلهية ـ قال ـ بطريقة يريد الله أن يقول لنا بها شيئاً، ولكن... ماذا؟».

حاول أن يبحث عن جواب في القرآن، لكنَّ القرآن لم يذكر النيازك بدقة رياضية. ومع الوقت اعتاد عليها وعلى حَبْوِها في السماء. وهذا لا يعني أنه نسيها.

في الهواء النقي للصحراء، في حلكةِ أرضٍ ليس فيها ضوء واحد في دائرة تفوق مئات الكيلومترات، يعتريك الإحساس بأن

النجوم تترجّل حتى تلامس الرمل، وغزال يمدُّ يده مراراً وكأنه حقيقةً يستطيع لمس الضوء المرتجف بأطراف أصابعه.

ترك الوقت يمضي هكذا لفترة طويلة، وحيداً مع أفكاره، ثم ترجَّل على مهلٍ لكي يلقي نظرة أخيرة على القطيع، وعلى مضربه، ثم ينسحب كي يرتاح بعد أن يتأكد بأن الضباع الجائعة وبنات آوى الماكرة لا تهدد عالمه الصغير.

على باب خيمته الأكبر والأكثر راحة في المضرب، توقف للحظات كي يستمع فيما إذا الريح لم تبدأ بكاءها بعد. الصمت وصل إلى درجة من الكثافة حتى أنه يؤذي السمع.

كان غزال يعبد هذا السكون.

2

يسرج العجوز سويلم أو أحد أحفاده، كل فجر، الجَمل المفضّل عند سيدهم «الإنموشار» غزال، ويتركونه ينتظر عند باب خيمته.

وفي كل فجر يتناول الطارقي بندقيته، يتسنم المهري(*) الأبيض ذا القوائم الطويلة، ويبتعد إلى أي نقطة من الجهات الأربع بحثاً عن طريدة.

يحب غزال كل شيء في المهري. آن يحب رجل الصحراء بهيمة، غالباً ما تكون حياته متعلقة بها. وخلسة حينما لا يستطيع أحد سماعه، يخاطب المهري بصوت مرتفع وكأنه يدرك ما يقوله له، ناعتاً إياه «بالغراب»، ساخراً من وبره الناصع البياض، والذي مراراً ما يلتبس شكله مع الرمل ويغدو لا مرئياً، لاسيّما إذا كان خلفهم كثيب مرتفع. ما من مهري أكثر سرعة ومقاومة في هذه الجهة من «تامان راسيت»، وثمة تاجر غني يملك قافلة يفوق عددها الثلاثمئة حيوان، عرض عليه مقايضته بخمسة جمال ينتقيها بنفسه، لكنه رفض العرض. يعرف غزال أنه إذا ما حدث له مكروه يوماً ما، ولأي سبب كان، في مغامراته الانفرادية، «فالغراب» سيكون الجمل الوحيد في هذا العالم الذي يستطيع إعادته إلى مضربه حتى في أحلك الليالي.

(*) المهري: الأيل المهرية نجائب تسبق الخيل منسوبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان في اليمن. م.

كثيراً ما تغلبت عليه سكينة النوم من التعب، مأخوذاً بالتأرجح الرتيب لخطى «الغراب» وأكثر من مرة تعثر عليه عائلته وقد أوصله إلى عتبة خيمته مدخلاً إياه إلى مرقده.

يؤكد «الفرنسيون» بأن الجِمال حيوانات حمقاء، قاسية وانتقامية، ولا تذعن إلا بالصراخ والضرب، ولكن «إموهاغ» حقيقي يعرف أن جملاً جيداً في الصحراء، خاصة مَهْري، ذا دم أصيل، مُعتنى به ومُرَوّض، يمكنه أن يكون ذكياً ووفيّاً مثل كلب، وهكذا يكون أكثر جدوى في أرض الرمال والرياح بألف مرة.

عامل الفرنسيون جميع الجِمال بذات السوِّية، وفي كل مراحل السنة، دون أن يدركوا أنه في شهور الخصوبة والتناسل تصبح هذه البهائم نزقة، هائجة وخطرة، لاسيّما إذا ما ارتفعت درجة الحرارة مع الرياح الشرقية. لذا فإن الفرنسيين لم يكونوا فرساناً صالحين في الصحراء قط، ولم يستطيعوا قهر الطوارق أبداً، حيث في زمن الغزو والقتال كان الطوارق يتغلبون عليهم دائماً رغم عددهم الأكبر وسلاحهم الأفضل.

سيطر الفرنسيون بعد ذلك على الواحات والآبار، وحصّنوا بمدافعهم ورشاشاتهم مواقع الماء النادرة في البيداء، وكان على الفرسان الأحرار الذين لا يُقهرون، «أبناء الريح»، أن ينصاعوا لما كان عدوّهم منذ بداية القرون: الظمأ.

لم يشعر الفرنسيون بالفخر لتغلّبهم على «شعب اللثام»،لأنهم في الحقيقية لم يتغلبوا عليهم في حرب مفتوحة، ولم يفدهم في شيء دهمائيو السنغال ولا شاحناتهم أو دباباتهم في صحراء كان الطوارق وإبلهم فيها سادة بلا منازع، من أقصاها إلى أقصاها.

قلّة هم الطوارق وقد تبدد شملهم، بينما الجنود جاؤوا من المستعمرات والعواصم كسحابة من الجراد. استيقظوا في أحد الأيام ليجدوا أن ما من جمل، ما من رجل، ما من امرأة أو طفل يستطيع أن يشرب في الصحراء دون إذن فرنسا.

ألقى «الأماهِغ» في ذلك اليوم أسلحتهم، وقد أضناهم التعب من رؤية ذويهم يموتون من الظمأ.

منذ تلك اللحظة أصبحوا شعباً محكوماً بالنسيان، «أمة» ليس لها سبب في الوجود لأن دوافع هذا الوجود اختفت، الحرب والحرية.

ظلت عائلات مشتتة، مثل عائلة غزال، ضائعة على تخوم الصحراء، ولم تكن تؤلف مجموعات من المحاربين الأشاوس، بل رجالاً منفردين استمروا في تمردهم الداخلي، مدركين بأنهم لن يكونوا قط «شعب اللثام»، «السيف»، «الرمح» المرهوب.

مع ذلك ظل «الأماهِغ» أسياد الصحراء من الحمادة إلى «العرق» أو الجبال المرتفعة التي تسوطها الرياح، فالصحراء الحقيقية لم تكن حيث الآبار المبعثرة فيها، إنما في آلاف الكيلومترات المربعة التي تحيطها. لم يكن للفرنسيين وجود بعيداً عن الماء، ولا لفُرق المُشاة السنغالية، حتى ولا للبدو. وهؤلاء الأخيرون هم أيضاً خبيرون بالرمال والدروب الحصباء، إلا أنهم كانوا يطوفون الأماكن المطروقة فقط، من بئر إلى بئر ومن نجع إلى آخر، وَجِلين من الامتدادات الشاسعة المجهولة للصحراء.

الطوارق فقط، وبشكل خاص الطوارق المنعزلون يتجاسرون متاخمة «أرض الخواء» والتي لم تكن سوى بقعة بيضاء في الخرائط، حرُّ الهاجرة فيها يجعل الدم يغلي في العروق، لا ينبت فيها حتى الشجيرات الأكثر يبوساً، والطيور المهاجرة تتفاداها محلقة على ارتفاع مئات الأمتار.

عَبَرَ غزال في حياته إحدى بُقع «أرض الخواء» تلك، مرتين. الأولى كانت نوعاً من التحدي، حينما أراد أن يبرهن بأنه جدير بأن يكون من سلالة الطوارق الأسطورية؛ والثانية وكان قد أصبح رجلاً، أراد أن يبيِّن لنفسه بأنه مازال جديراً بأن يكون ذاك الغزال القادر على المخاطرة بحياته في سني شبابه.

جحيم الشمس وحممها، هذا الفرن المدمِّر والذي يبعث على الجنون، يمارس سحراً غريباً على غزال، سحر وُلِدَ في إحدى الليالي، منذ سنوات مضت، حينما سمعهم حول الموقد يتسامرون للمرة الأولى عن «القافلة العظمى» التي احتوت على سبعمئة رجل وألفي جَمل، بلعتهم «البقعة البيضاء»، دون أن ينجو منها أحد قط، رجالاً كانوا أم بهائم.

وجهتها كانت من «الغاو»[*] إلى طرابلس، وتُعتبر أعظم قافلة نظّمها تجار «هاوساس» الأغنياء، مُقادة من أكثر الرجال معرفة بالصحراء، مُحمّلين على متن أفضل المهاري المختارة بدقة، ثروة حقيقية من العاج، الأبنوس، الذهب، والأحجار الكريمة.

عمٌّ بعيد لغزال، والذي كان يحمل الاسم ذاته، رافقها مع رجاله، واختفى هو أيضاً إلى الأبد، وكأنه لم يوجد قط، كأنه لم يكن سوى حلم.

كُثُرٌ هم الذين قذفوا بأنفسهم في المغامرة المجنونة لتقفّي أثرها، آملين عبثاً بالحوز على مكنوناتها، والتي حسب قانون غير مكتوب، تعود لمن يكون قادراً على نزعها من الرمال، بيد أن الرمال تحتفظ جيّداً بأسرارها، قادرة لوحدها أن تغمر مدناً، قلاعاً، واحات، رجالاً وجمالاً. وإذا ما جاءت عنيفة وعلى غفلة، منقولة على جناح حليفها، الريح، فهي تنقضّ على المسافرين وتصطادهم محوّلةً إياهم إلى كثيب آخر بين ملايين الكثبان في «العرق».

لا أحد يستطيع التكهّن، كم من المغامرين لقوا حتفهم فيما بعد، وهم يتبعون حلم القافلة الأسطورية الضائعة! الكهول لم يتعبوا من التوسل إلى الفتيان كي يكفّوا عن المحاولات المجنونة تلك:

ـ «ما تريده الصحراء لها، فهو للصحراء ـ كانوا يقولون ـ فليحمي الله من يحاول سلب غنيمتها...».

(*) غاو: مدينة في مالي على نهر النيجر. م.

كان غزال يطمع في كشف سرها فقط، كشف السبب الذي جعل كثيراً من البهائم والرجال يختفون دون أن يتركوا أثراً. وحينما وجد نفسه للمرة الأولى في قلب واحدة من «أرض الخواء» تلك، أدرك أنه ليس سبعمئة فقط بل سبعة ملايين من الكائنات البشرية يذيبهم ذاك الجحيم الأفقي، وأنه لمن المدهش أن يكون ثمة شخص، كائناً من كان، خرج منها حياً.

غزال خرج، ولمرتين على التوالي، ولكن «إموهاغ» مثله لا يوجد الكثير، ولذلك فإن «شعب اللثام» كان يحترم كثيراً غزال «الصياد»، «إنموشار» أوحد، سيطر على أراضٍ ما من أحد غيره طمح بالسيطرة عليها.

3

ظهروا أمام خيمته في أحد الأصباح. كان العجوز على أبواب الموت، والشاب الذي حمله على أكتافه خلال اليومين الأخيرين، استطاع بالكاد أن يهمس ببعض الكلمات قبل أن يقع مغشياً عليه.

أمر بتهيئة أفضل خيمة، واعتنى بهم، خدمه وأبناؤه، ليلاً نهاراً، في صراع يائس كي يتمكنوا، ضد كل منطق، من جعلهم يتابعون العيش في عالم الأحياء. من دون جِمال أو ماء، من دون أدلاء وهم لا ينتمون إلى سلالة الصحراء، إنها لمعجزة من السماء، كيف استطاعوا تحمّل الوَقد(*) الدبق والكثيف للأيام الأخيرة.

استغرقوا أكثر من أسبوع، وهذا ما يمكن فهمه، تائهين بين الكثبان والأرض الحصِّية، ولم يستطيعوا القول من أين جاؤوا، مَنْ هم وإلى أين وجهتهم. كانوا كما لو أنهم سقطوا بغتة من واحدة من تلك النجوم الهاربة. وغزال يزورهم صباحاً ومساءً مأخوذاً بمظهرهم كرجال من المدينة، بثيابهم التي لم تكن مناسبة البتة لاجتياز الصحراء، والجُمل غير المفهومة التي كانوا يرطنون بها وهم نيام، بعربية أصيلة ومهذبة حيث استطاع الطارقي بصعوبة فك رموزها.

(*) الوقد: اشتداد الحر مع سكون الريح. م.

أخيراً، في اليوم الثالث عند الغروب، وجد الشاب مستيقظاً وأراد أن يعرف مباشرة إذا كانوا مايزالون بعيدين عن الحدود.

رمقه غزال مندهشاً:

ـ حدود؟ ـ كرر ـ أية حدود؟ ليس للصحراء حدود... على الأقل ما من واحدة منها أعرفها.

ـ مع ذلك ـ أصرَّ الآخر ـ يجب أن يكون ثمة حدود في مكان ما...

ـ الفرنسيون لا يحتاجون حدوداً ـ لفت انتباهه ـ يسيطرون على الصحراء من الطرف إلى الطرف.

استند الغريب على مرفقه وتمعن فيه مندهشاً:

ـ الفرنسيون؟ ـ سأل ـ الفرنسيون ذهبوا منذ سنين... الآن نحن مستقلون ـ أضاف ـ الصحراء مكونة من بلدان حرة ومستقلة. ألا تعلم ذلك؟

فكّر غزال لبرهة وجيزة. في إحدى المرات، أحد ما، حدّثه عن حرب تحريرية في أقاصي الشمال، حيث العرب يحاولون نزع نير العبودية عن كاهلهم من «الروم»، لكنه لم يَعر الأمر اهتماماً. الحرب التحريرية هذه كانت قائمة منذ أن كان لجده ذاكرة. بالنسبة إليه، أن يكون مستقلاً يعني أن يطوف وحيداً أراضيه، كما أنه ما من أحد أزعج نفسه وجاء ليخبره بأنه ينتمي إلى بلد جديد.

نفى بإيماءة:

ـ لا. لا لم أكن أعرف ـ اعترف مرتبكاً ـ ولم أكن أعرف أيضاً أنه يوجد ثمة حدود. مَنْ يقدر على رسم حدود للصحراء؟ من يستطيع أن يمنع الريح من ذرِّ الرمال من جهة إلى أخرى؟ من سيمنع الرجال من اجتيازها...؟

ـ الجنود.

رمقه مندهشاً.

ـ جنود؟ لا يوجد ما يكفي من الجنود في العالم كي تحمي الحدود في الصحراء... والجنود يخافونها ـ ابتسم ابتسامة خفيفة من تحت اللثام الذي يخفي به وجهه والذي لا يكشفه أبداً عندما يلتقي بالغرباء ـ وحدنا فقط، نحن «الأماهِغ»، لا نخاف الصحراء. هنا الجنود مثل الماء المُراق: تبتلعهم الرمال.

أراد الشاب أن يقول شيئاً، بيد أن الطارقي حذّره، فهو في حالة إعياء، وأجبره على الاستلقاء ثانية على الكليم:

ـ لا تُجهد نفسك ـ رجاه ـ أنت واهن، نتحدث غداً، وربما صديقك سيكون في حالة أحسن. التفت متمعناً بسيماء العجوز، ولاحظ للمرة الأولى بأنه ليس عجوزاً كما تصوره في البداية، رغم شعره الأبيض الخفيف ووجهه التي خططته غضون عميقة.

ـ من يكون؟ سأل.

تردد الآخر بضع لحظات. أغمض مقلتيه وتمتم بصوت خافت:

ـ حكيم. يبحث في التاريخ القديم لأجدادنا. كنا نتوجه إلى «داجباديل» حينما عطبت عربتنا.

ـ «داجباديل» بعيدة جداً... ـ لفت انتباهه غزال، إلا أنه كان قد غرق في نوم عميق ـ جداً، بعيدة جداً إلى الجنوب... لم أصل إلى هناك قط.

خرج دون أن يحدث ضجةً، وفي الهواء الطلق اعتراه شعور بالفراغ في معدته، مثل هاجس لم يعترِه سابقاً قط. شيء ما في هذين الرجلين كان يقلقه رغم منظرهما البريء. لم يكونا مسلّحين، ومظهرهما لا يوحي بالخوف من خطر داهم، لكن نفحة خوف كانت تطفو في محيطه، وكان هذا الجزع هو الذي يهجس به.

ـ ... «يبحث في التاريخ القديم لأجدادنا...» قال الشاب، لكن وجه الآخر موسوم بألم عميق، ومن غير الممكن أن يكون الجوع والظمأ في الصحراء قد خططه خلال أسبوع فقط!

نظر في الليل الذي خيّم، محاولاً البحث عن جواب لأسئلته. روح الطارقي وتقاليد الصحراء العريقة في القدم كانت تصرخ بأنه سلك تصرفاً سليماً في إيوائه هؤلاء المسافرين تحت سقفه. حيث حسّ الضيافة يشكل البند الأول من قانون «الأماهِغ» غير المكتوب، لكن غريزته كرجل اعتاد بأن يُقاد بتوقعاته وحاسته السادسة والتي أنقذته من الموت مرات عديدة، كانت تهمس له بأنه يمرُّ بخطر كبير، والقادمون الجدد يضعون السلام الذي كلفه الكثير من الجهد، في خطر.

انسلت ليلى إلى جانبه، وابتهجت عيناه أمام حضورها العذب وجمالها الفاتن الفتي لامرأة ـ طفلة ببشرتها الداكنة والتي تحولت إلى زوجته رغم معارضة كبار السن، الذين لم يروا من الصواب أن يتحد «إنموشار» من عرق نبيل بشكل شرعي مع عضو من ذرية العبيد «عكلي» التافهة.

جلست إلى جانبه ونظرت إليه وجهاً لوجه بعينيها السوداوين الواسعتين والممتلئتين دائماً بالحياة، وبانعكاسات خفية، سائلة بطراوة:

ـ يقلقك هؤلاء الرجال، أليس كذلك؟

ـ ليس هم... ـ أجاب مفكراً ـ إنما شيء ما يرافقهم كظلٍ أو رائحة.

ـ جاؤوا من بعيد، وكل شيء يأتي من بعيد يثيرك، لأن جدتي تكهنت بأنك لن تموت في الصحراء. ـ مدَّت يدها بوجل إلى أن لامست يده ـ مراراً ما كانت جدتي تخيب في تكهناتها ـ أضافت ـ عندما ولدتُ تنبأت لي بمستقبلٍ كئيب، ومع ذلك فأنا تزوجت من نبيل، أمير تقريباً.

ابتسم برقة:

ـ أتذكر عندما ولدتِ ـ قال ـ لا يمكن أن يكون مضى أكثر من خمسة عشر عاماً... مستقبلك حتى الآن لم يبدأ بعد...

تألم إذ بعث فيها الحزن، لأنه يحبها، مع أن الـ «إموهاغ» لا يجب عليه أن يبدي رقته كثيراً مع النساء، بيد أنها كانت أم آخر أطفاله، لذا فتح يده ليأخذ بها يدها.

ـ ربما معك الحق، والعجوز كلثوم لم تصب دائماً ـ أشار ـ لا أحد يستطيع إجباري على هجر الصحراء والموت بعيداً عنها.

مكثا لفترة طويلة يتأملان الليل بصمت، ولاحظ أن الإحساس بالسلام يغمره من جديد. صحيح أن الدهمائية كلثوم تنبأت بالمرض الذي حمل والده إلى القبر قبل وقوعه بعام، وتكهنت كذلك بالجفاف الكبير الذي جعل الآبار تجف، تاركاً الصحراء بلا كلأ مهما صغر حجمه، وقتل مئات البهائم التي كانت بطبيعتها معتادة على الظمأ والجفاف. لكن صحيح أيضاً أن الأَمَة العجوز كانت مراراً ما تتكلم لأجل الكلام فحسب، ورؤاها كانت تبدو كثمرة لعقلها الشائخ أكثر منها تكهنات أصيلة.

ـ ماذا يوجد في الطرف الآخر من الصحراء؟ ـ سألت ليلى بعد هذا الصمت الطويل ـ لم أذهب أبعد من جبال «هوايلا» قط.

ـ أناس ـ كان الجواب ـ الكثير من الناس ـ فكر غزال متذكراً تجربته في «العقب» وواحات الشمال، وهزَّ رأسه بأسى ـ يعجبهم الازدحام في أماكن صغيرة جداً أو في بيوت ضيقة ولها رائحة كريهة، يصرخون ويهيجون بلا سبب، يسرقون ويغشّون بعضهم كبهائم لا تعرف العيش إلا ضمن قطعان.

ـ لماذا...؟

كم تمنى أن يعطيها جواب لأنه كان يتباهى بالإعجاب الذي تكنّه له ليلى، بيد أنه لم يكن يدرك هذا الجواب. فهو «إموهاغ» ولد وترعرع في قفر الأماكن الفسيحة والموحشة. لا تلاقي فكرة التجمع هذه، أو العيش الاختياري بين الجماعة أي صدى عنده مهما حاول بينه وبين نفسه، بينما رجال ونساء من قبائل أخرى يميلون بشدة إليه.

كان غزال يحتفي بالزائرين بسرور، ويحب الاجتماع حول الصِلاء ليحكي قصصاً قديمة وأحداثاً صغيرة من الحياة اليومية، لكن بعد ذلك، حينما يخبو الجمر والجمل الأسود يحمل على متنه النعاس، يعبر مضربه صامتاً ولا مرئياً، وكل واحد يذهب إلى خيمته القصيّة ليعيش حياته لوحده، ليتنفس بعمق مستمتعاً بالصمت.

كل رجل في الصحراء لديه الوقت، السكينة والأجواء الضرورية ليجد ذاته، النظر إلى البعيد أو إلى سريرته، التمعن بالطبيعة التي تحيطه والتفكير بكل ما لا يعرفه مما هو غير موجود في الكتب المقدسة. لكن هناك، في المدن، القرى، وحتى في أصغر قرى البربر، لم يكن ثمة سلام، لا وقت ولا مكان والجميع عديمو الإحساس، صاخبون ويفتعلون المشاكل مع الآخرين، مع أصوات ومشاجرات الغرباء، ويتكوّن لديك الانطباع بأن ما يحدث للآخرين يكتسب أهمية أكبر مما يمكن أن يحدث لنفسك.

ـ لا أدري... ـ اعترف أخيراً على مضض ـ لم يستطع أن يكتشف أبداً لماذا كان يعجبهم التصرف على هذا المنوال، الازدحام والعيش متعلقاً الواحد بالآخر. لا أدري... ـ كرر ـ ولم ألتقِ بأحد يعرف ذلك بدقة.

راقبته الفتاة لفترة طويلة، ربما مندهشة لكون هذا الرجل الذي يُكوِّن حياتها والتي تعلمت منه ما كان جديراً بمعرفته، لا يعرف جواباً على سؤال من أسئلتها. منذ طفولتها كان غزال كل شيء بالنسبة إليها: أولاً كان السيد الذي تتأمله كطفلة من سلالة «عكلي» الوضيعة؛ وكأنه كائن إلهي تقريباً، سيد مطلق على حياتها وممتلكاتها، وهو سيد أيضاً على حياة أبويها، أخوتها، حيواناتها وكل شيء موجود على وجه كونها.

ثم كان الرجل الذي حوّلها إلى امرأة في أحد الأيام عندما وصلت مرحلة البلوغ وجاءتها الدورة الشهرية الأولى، ناداها إلى خيمته، جامعها، وجعلها تتأوه من اللذة، مثلما تسمع في الليل

تأوهات رياح الغرب، ومثلما تأوهت الخادمات الأخريات قبلها. وأخيراً كان العاشق الذي نقلها كطير إلى النعيم، مالكها الحقيقي، مالكها أكثر مما هو سيدها، هو الآن يملك روحها أيضاً، تفكيرها، رغباتها وحتى غرائزها المخفيّة والمنسية في أعماقها.

تأخرت في الكلام، وحين أرادت أن تقول شيئاً، قاطعها وجود الابن الأكبر لزوجها الذي جاء راكضاً من أقصى الزرائب.

ـ الناقة ستلد يا أبي ـ قال ـ والثعالب تحوم...

4

أدرك أن أشباح مخاوفه بدأت تتجسد حينما لمح عمود غبار مرتفعاً في الأفق، بقي لفترة طويلة ثابتاً لا يتحرك في كبد السماء، إذ ما من نسمة تنساب في هاجرة البيداء. يبدو أنها عربات ميكانيكية نظراً لسرعتها الحثيثة، تاركة خلفها أثراً وسخاً من الدخان والتراب في الهواء النقي للصحراء.

ثم كان الصرير الخافت للمحرّك الذي أصبح مدوياً عند اقترابه، دابّاً الرعب في الحمام المطوق، الفينيق والأفاعي، وما أن وصلوا حتى دوّى صرير الكابحات، أصوات غاضبة، وأوامر عنيفة، جارفين معهم الغبار والأوساخ على مقربة خمسة عشر متراً من المضرب.

تجمّد كل ما يكتنفه الحياة والحركة عند رؤيتهم. عينا الطارقي، عينا زوجته، أبناؤه، خدمه، حتى حيواناته وجدوا أنفسهم وسط عمود الغبار والوحوش الميكانيكية القاتمة. الصغار والبهائم تراجعوا مذعورين، بينما الخادمات ركضن ليختبئن في أقصى خيمة بعيداً عن نظر الغرباء.

تقدم ببطء، غطّى وجهه باللثام بوصفه «إموهاغ» نبيل يحترم تقاليده، ووقف وسط الطريق بين القادمين الجدد والخيمة الرئيسية وكأنه يريد أن يوضح بلا كلام أنهم يجب ألا يتقدموا دون إذنه ودون أن يستقبلهم كضيوف.

أول ما لاحظه كان الوسخ الرمادي للبِزَّة العسكرية المُغطاة بالعرق والغبار، العدوانية المعدنية للبنادق والرشاشات، والرائحة الفجّة للجزمات والأحزمة. ثم وقع نظره مستغرباً على رجل طويل بسترة زرقاء وعمامة مجعّدة، عرف به مبارك بن سعد، «إموهاغ» ينتمي إلى «شعب الرمح»، وأحد الأكثر خبرة ومعرفة وتجواباً للصحراء، وهو شهير في المنطقة مثل غزال صيّاح، «الصياد» نفسه.

ـ ميتوليم، ميتوليم ـ حيّاه.

ـ السلام عليكم ـ ردَّ مبارك ـ نبحث عن رجلين... عن غريبين...

ـ إنهما ضيفاي ـ ردَّ بهدوء ـ وهما في حالة سيئة.

تقدم الضابط الذي يقود المجموعة بضع خطوات. لمعت نجومه على كُفّة كُمه حينما قام بحركة كي ينحّي الطارقي، لكن أوقفه بحركة قاطعاً عليه الطريق نحو المضرب.

ـ إنهما ضيفاي ـ كرّر.

تأمله الآخر بغرابة وكأنه لا يعرف ما الذي يعنيه، ولاحظ غزال مباشرة بأنه ليس رجلاً من الصحراء؛ فحركاته وطريقة النظر والكلام توحي بأنه من عالم ومدن بعيدة. التفت إلى مبارك وأدرك هذا الموقف حيث اتجهت نظرته صوب الضابط.

ـ الضيافة عندنا مقدسة ـ أوضح ـ قانون أقدم من القرآن.

بقي العسكري صاحب النجوم فوق كُفّة الكُم بضع لحظات متردداً، وغير مصدق تقريباً لهذا الشرح العبثي وتهيأ لمتابعة طريقه.

ـ أنا أمثِّل القانون هنا ـ قال بحزم ـ ولا يوجد غيره.

كان قد تقدم عندما أمسكه غزال من ساعده بقوة وأجبره ليعود وينظر في عينيه.

ـ التقاليد عمرها ألف عام وأنت لا تكاد تبلغ الخمسين ـ غمغم عاضّاً على الكلمات ـ اترك ضيوفي بسلام.

رنّت، بإشارة من العسكري، عشر بنادق متهيئة للإطلاق، لاحظ الطارقي أن فوهة البنادق مصوبة إلى صدره، وأدرك ألا فائدة من أية مقاومة. نحّى الضابط بحركة فظة يده التي كانت ماتزال تتشبث به، سحب مسدسه الذي كان معلقاً في حزامه، وتابع طريقه إلى الخيمة الرئيسية.

توارى فيها، ودقيقة بعد ذلك سُمع دوّي جاف ومرّ. خرج وأشار إلى جنديين فهرولا وراءه. عندما ظهرا ثانية كانا يجرّان بينهما العجوز الذي كان يحرك رأسه ويبكي بوداعة؛ وكأنه استيقظ من حلم طويل وعذب إلى الواقع القاسي.

عبروا أمام غزال وارتقوا الشاحنات. من قمرة الشاحنة حدجه بصرامة وقد اعتراه التردد لبضع لحظات. خاف غزال ألا تتحقق تكهنات العجوز كلثوم ويقتلونه هنا في مكانه، في قلب هذا العراء. لكن أخيراً أشار إلى السائق، وابتعدت الشاحنات من حيث أتت.

قفز «الإموهاغ» مبارك من «شعب الرمح» إلى السيارة الأخيرة وعيناه بقيتا مثبتتين بعيني الطارقي إلى أن حجبه عمود الغبار. كانت كافية تلك اللحظات كي يدرك ما الذي يدور في خلد غزال، واعتراه الخوف. لم يكن من الحكمة إهانة «إنموشار» من «شعب اللثام»، وهو يدرك ذلك. لم يكن من الحكمة إهانته وتركه حيّاً.

لكن لم يكن من الحكمة أيضاً قتله وإطلاق شرارة حرب بين قبائل الأخوة. غزال صيّاح لديه أصدقاء وأقارب وكان عليهم أن يعلنوا القتال، والانتقام بالدم لدم من حاول جعل قوانين الصحراء القديمة تُحترم فحسب.

غزال، من جهته، مكث هادئاً جداً وهو يراقب الركب الذي يبتعد إلى أن اختفى الغبار والصخب تماماً في البعيد. ثم ببطء، توجه إلى الخيمة الكبيرة قبل أن تزدحم بأبنائه، زوجته، وخدمه. لم يكن

بحاجة إلى الدخول ليعرف مسبقاً ما الذي سيجده. كان الشاب في المكان ذاته الذي تركه فيه حينما تحدث إليه للمرة الأخيرة، بالعينين المغمضتين وقد أمسكت به سنة الموت وهو نائم. دائرة صغيرة من الدم في جبهته فحسب جعلته يبدو مختلفاً. تأمله برهة طويلة بخجل وحنق، ثم نادى على سويلم.

ـ ادفنه ـ طلب ـ وهيّء جملي.

لأول مرة في حياته لم ينصع سويلم لسيده، وساعة بعدها دخل الخيمة مرتمياً على قدميه، محاولاً تقبيل صندله.

ـ لا تفعل ـ رجاه ـ لن تحصل على شيء.

سحب غزال قدمه بنفور.

ـ تعتقد أنه يجب عليّ السماح بمثل هذه الإهانة؟ ـ سأل بصوت أجش ـ تعتقد أنني أستطيع العيش بسلام مع نفسي بعد أن سمحت بقتل أحد ضيوفي وأخذ الآخر؟

ـ أي شيء آخر يمكنك فعله...؟ ـ احتجّ ـ كان يمكن أن يقتلوك.

ـ أعرف، لكن الآن أستطيع أن أنتقم للإهانة.

ـ وماذا ستنال من ذلك؟ سأل الدهمائي ـ هل ستعيد الحياة للميت؟

ـ كلا. لكن أذكّرهم بأنهم لا يستطيعون إهانة «إموهاغ» من دون عقاب. هذا هو الفارق بين سلالتك يا سويلم، وسلالتي. آل «عكلي» يتحملون الإهانة والعسف وأنتم تشعرون بالرضى لكونكم عبيداً ـ استراح، وداعب، مستغرقاً في أفكاره، السيف الطويل الذي أخرجه من الصندوق الذي يحتفظ ضمنه بممتلكاته الأكثر قيمة عنده ـ لكن نحن الطوارق سلالة من الأحرار والمحاربين، وبقينا هكذا لأننا لا نتحمل الضيم أبداً ولا الإهانة ـ هزّ رأسه ـ ولم يحن الوقت لتبديل ذلك.

ـ لكنهم كُثُر ـ احتجّ ـ وأقوياء.

ـ هذا صحيح ـ اعترف الطارقي ـ وهكذا يجب أن يكون. الجبان فقط يواجه من يعرف بأنه أكثر ضعفاً منه، لأن النصر لن يرفع من منزلته أبداً. والأحمق فقط يقاتل قرينه، لأنه في هذه الحالة ضربة حظ فقط تقرر نتيجة المعركة. «الإموهاغ»، المحارب الأصيل من سلالتي، يجب أن يواجه دائماً من يعرف بأنه أكثر قوة منه، لأنه إذا ما ابتسم له النصر فإن بسالته ستُرى معوَّضة ألف مرة، ويستطيع متابعة طريقه فخوراً بنفسه.

ـ وإذا ما قتلوك؟ ماذا سيحلُّ بنا؟

ـ إذا ما قتلوني فإن جملي سيعدو بي إلى الجنة التي وعد بها الله مباشرة، لأنه مكتوب بأن الذي يموت في حرب عادلة فالخلود مصيره.

ـ لكن لم تجب على سؤالي ـ ألحَّ الدهمائي ـ ماذا سيحلُّ بنا؟ بأبنائك، زوجتك، قطيعك وخدمك.

إيماءته كانت قدرية.

ـ هل برهنت بأنني أستطيع الدفاع عنهم؟ ـ سأل ـ إذا قبلت بأن يقتلوا واحداً من ضيوفي، ألا يجب أن أقبل باغتصاب وقتل عائلتي؟ ـ انحنى، وبإشارة حازمة أجبره على الوقوف على قدميه. ـ اذهب وهيّء جملي وأسلحتي ـ طلب ـ سأغادر عند الفجر. ثم ستهتم برفع المضرب وأخذ عائلتي بعيداً، إلى «غويلتا» في «الهوايلا»، هناك حيث توفت زوجتي الأولى.

5

جاء الفجر وقد سبقته الريح.

تعلن الريح دائماً مجيء الفجر في السهوب، وولولتها في الليل تبدو وكأنها تتحول إلى نحيب مرير، قبل ساعة من تبيُّن شعاع الضوء الأول في السماء خلف المنحدرات الصخرية «للهوايلا».

تنصّت بعينين مفتوحتين، متأملاً سقف خيمته بخطوطها التي يعرفها جيداً، واعتقد بأنه يرى البَلّان ينطلق منفلتاً على الرمال والصخور، على عجلة من أمره دائماً، يصبو إلى مكان يتشبث به، مكان نهائي يأخذه ويحرره من هذا التجواب الأبدي بلا هدف بين جهة وأخرى من أفريقيا.

مع الضوء الحليبي للفجر، متسرباً من بين ملايين ذرات الغبار الشاردة والمتناهية في الصغر، يظهر البَلّان من العدم كأشباح تريد أن ترمي بنفسها على الناس والبهائم، كي تتوارى من ثمَّ ـ هكذا كما جاءت ـ في العدم اللانهائي لصحراء بلا حدود.

«يجب أن يكون ثمة حدود في مكان ما. أنا متأكد...» قال بصوت فيه لوعة يائسة، والآن موته.

لم يتكلم أحد لغزال من قبل عن حدود، لأنه لم يكن يوجد حدود بين تخوم الصحراء قط. «أية حدود توقِف الرمل أو الريح».

أدار وجهه صوب الليل وحاول أن يفهم، إلا أنه لم يستطع.

أولئك الرجال لم يكونوا مجرمين، لكنهم دفنوا واحداً وأخذوا الآخر وما من أحد يعلم إلى أين. لا يمكن قتل أحد بهذه البرودة مهما كانت جنحته جسيمة.

والأدهى من ذلك، بينما هو نائم في حماية وتحت سقف «إنموشار».

شيء ما كان يحيط تلك الحكاية، بيد أن غزال لم يفلح في تقصِّي كنهه. شيء واحد كان واضحاً: القانون الأكثر قدماً في الصحراء كان يتحطم، وهذا شيء لا يستطيع «إموهاغ» السماح به.

تذكّر العجوز كلثوم، ويد مثلّجة ـ الخوف ـ جثمت على رقبته. ثم خفض وجهه صوب عيني ليلى المفتوحتين اللتين كانتا تلمعان بنعاس في الظليل عاكسة آخر جذوة من الصِلاء، وشعر بالحزن من أجلها، من أجل الخمسة عشر عاماً التي أكملتها بهذا السوء، والليالي الفارغة التي ستكون عليها بعد رحيله. وشعر أيضاً بالحزن من أجل نفسه؛ لليالي الفارغة التي سيكون عليها حينما لا تكون إلى جانبه. داعب شعرها ولاحظ امتنانها لهذه اللفتة من قبله وكأنها حيوان أليف فاتحة عينيها أكثر مما هما عليه، كعيني غزالة جزعة.

ـ متى سترجع؟ غمغمت كرجاء أكثر مما هو سؤال.

نفى برأسه:

ـ لست أدري ـ اعترف ـ حينما أقيم العدل.

ـ ما الذي عناه لك هؤلاء الرجال...؟

ـ لا شيء ـ اعترف ـ لا شيء حتى أمس، لكن لا يتعلق الأمر بهم. يتعلق بي أنا. شيء لا تفهمينه.

ليلى فهمته، لكنها لم تحتج. اقتصرت على الالتصاق به أكثر كأنها تبحث عن قوتها أو دفئها، ومدت يديها كمحاولة أخيرة لردعه بينما ينهض متجهاً صوب عتبة الخروج.

في الخارج برد، والريح تتابع نحيبها الوديع. التفَّ بعباءته

بينما رجفة لا مناص منها ارتقت ظهره، لم يعرف أبداً إذا كانت بسبب البرد أو الليل القفر المرعب الذي انفتح أمامه. كان كمن ينغمس في بحر من الحبر الأسود. وما كاد يخطو حتى برز سويلم من الظلمات ماداً إباضّ الغراب.

ـ حظاً سعيداً يا سيدي ـ قال ـ وتوارى كأنه لم يوجد قط.

أجبر البهيمة على الاستناخة، تسلق سنامها، وبكعبه لكزها برفق في عنقها:

ـ شي ااا... !! ـ أمر ـ هيّا!

رغا الحيوان مستاءً، استوى متثاقلاً، ومكث ساكناً على قوائمه الأربعة، منتظراً ووجهه صوب الريح.

وجّهه الطارقي إلى الشمال الغربي، ولكزه بكعبه من جديد بقوة أكبر كي يشرع بالمسير.

على مدخل الخيمة ارتسم ظل أكثر كثافة من باقي الظلال، أكثر حلكة. عينا ليلى كانتا تلمعان من جديد في الليل بينما الفارس والمطية يتواريان كأنهما مدفوعان بالريح والبَلّان.

نحيب هذه الريح يشتد بقوة أكثر، عارفة أنه قريباً سيأتي شعاع الشمس لتهدئتها.

لم يكن النهار قد تخطى بعد ذاك الظُليل الذي لا يكاد يسمح برؤية رأس جمله، بيد أن غزال لا يحتاج أكثر من ذلك؛ يعرف أنه لا توجد عوائق أمامه لمئات الكيلومترات في محيطه، وغريزته كرجل من الصحراء، وقدرته على التوجه بعيون مغمضة، ترشده إلى الاتجاه حتى في أحلك الليالي.

هذه فضيلة لا يملكها سواه، والذين من أمثاله ولدوا وترعرعوا بين الرمال. مثل الحمام الزاجل، الطيور المهاجرة أو الحيتان في أعماق المحيطات، الطارقي يعرف دائماً أين يكون وإلى أين يتجه، كغدةٍ غارقة في القِدَم، ضمرت عند البقية من الكائنات البشرية واستمرت فقط عندهم، نشطة، فعّالة وكفوءة.

شمال، جنوب، شرق وغرب؛ آبار، واحات، دروب، جبال، «أراضٍ خاوية»، أنهار من الكثبان، سهوب صخرية... كل الكون الصحراوي الشاسع يبدو منعكساً كصدى في عمق دماغ غزال، دون أن يعرف ذلك، دون وعي كامل له.

فاجأته الشمس على سنام المهري، وكانت تسقط على رأسه بقوة أكثر من كل مرة، جاعلة الريح تسكن، ساحقة الأرض، مهدئة الرمال والبلّان التي ما عادت تركض من جهة إلى أخرى، مخرجة العظّاءات من أوجارها، وتاركة الطيور جاثمة في الأرض فهي لا تتجاسر على الطيران عندما تبلغ الشمس سمتها.

أوقف الطارقي وقتئذٍ مطيته، أجبرها على الاستناخة، وغرز في الأرض سيفه الطويل وبندقيته القديمة مستفيداً منها كدعامة مع تصالب السرج، مرتجلاً بذلك سقفاً بدائياً وضئيلاً بقماش سميك.

التجأ إلى ظله مسنداً رأسه على السنام الأبيض ومكث نائماً.

أيقظته، مداعبة أرنبة أنفه، الرائحة الأكثر اشتياقاً في الصحراء. فتح عينيه ومكث ساكناً، مستنشقاً الهواء دون رغبة بالنظر صوب السماء خائفاً من أن يكون ذلك مجرد حلم، لكنه حينما التفت برأسه أخيراً صوب الغرب، رآها هناك كبيرة، داكنة تحجب الأفق، واعدة وممتلئة بالحياة، مختلفة عن تلك الأخريات البيض المرتفعة والسارحة كمتسول، التي تجيء بين الفينة والأخرى من الشمال، لتتوارى عن النظر دون أن تجازف بإعطاء أي بارقة أمل بمطر عابر.

تلك السحابة القاتمة، واطئة وبهيّة كأنها تخبئ في كنفها كل كنوز الكون المائية، وربما كانت الأكثر جمالاً وبهاء مما رأى غزال في الخمس عشرة سنة الأخيرة، ربما منذ العاصفة الكبرى التي سبقت ولادة ليلى؛ التي جعلت جدتها تتكهن لها بمستقبل كئيب، لأنه في تلك المناسبة تحول الماء المرتجى إلى فيضان جرف معه الخيم والحيوانات، خرّب المزروعات وأغرق ناقة.

حرّك «الغراب» رأسه مضطرباً. أدار رقبته الطويلة موجّهاً خياشيمه بلوعة صوب حجاب الماء الذي يتقدم معكّراً الضوء ومحوِّلاً المشهد. رغا بنعومة ومن حنجرته انبثقت هرهرة لقط هائل ورضيٍّ.

نهض غزال ببطء، نزع عن «الغراب» السرج ثم نزع بدوره ثيابه عنه وبسطها بتأنٍ على البَلّان كي تمتص كل ما يمكنها من الماء. بعد ذلك تحفّى وتعرّى، انتظر منتصباً إلى أن ترش القطرات الأولى الرمل والتراب مُغطِّية بالندوب وجه الصحراء كآثار الجدري، كي تجيء المياه بعد ذلك في تموجات مثملة أحاسيسه حينما يسمع وقعها العذب وجَلَبتها المدويّة شاعراً بمداعبتها الدافئة على جسده، متذوقاً في فمه الطراوة النظيفة والنقية، ومستنشقاً العطر المرتجى للأرض البليلة التي ارتفع منها بخار كثيف ومعكّر.

هناك، أخيراً، كان الاتحاد البديع والخصب، وعاجلاً شمس أصيل اليوم ذاته ستوقظ البذور الراقدة للعشب بعنف، مكللة السهوب بالأخضر، مبدّلة المشهد المُجدب إلى الأجمل في كل النواحي، لا تكاد تزهر لبضعة أيام حتى تغرق من جديد في سبات عميق، إلى أن تجيء العاصفة التالية التي قد تتأخر خمسة عشر عاماً أخرى في المجيء. كان العشب رائعاً، طليقاً وبريّاً؛ غير قادر على الإنبات في أرض مزروعة إلى جانب الآبار، أو على يدٍ حريصة لفلاح يسقيها يوماً بعد يوم، إنها كروح شعب الطوارق، الوحيدة القادرة على المكوث قرناً بعد قرن ملتصقة بالرمال والبِرَاق[*] حيث بقية البشر تخلّوا عنها منذ الأزل.

بَلّلَ الماء شعره ونزع عن جسده وسخ شهور بل حتى سنين. حكَّ بأظافره، ثم بحث عن حجر مسطّح وخَدِشٍ يستطيع به دعك جسده وهو ينظر العلائم التي تتوضح كلما نزع الماء قشرة التراب، والعرق والغبار، والماء يسيل على جسده نحو قدميه، أزرق، نيلّياً

(*) البِرَاق: أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل. م.

تقريباً، إذ أن الصبغة الثخينة لثيابه كانت تتلاشى عن جسده التي ضمخت مع الزمن كل سنتمتر منه.

ساعتان طويلتان من الزمن مكث خلالهما تحت المطر، سعيداً ومرتعشاً، مصارعاً نفسه كي لا يعود القهقهرى إلى البيت، منتهزاً الماء لزراعة الشعير، منتظراً الحصاد ومستمتعاً مع ذويه بذاك العطاء البديع الذي أراد الله إرساله ربما كإخطار بوجوب بقائه هناك، حيث كان عالمه، ونسيان الإهانة التي لا يستطيع كل ماء تلك السحابة الهائلة غسلها.

لكن غزال طارقي، ربما لسوء طالعه، والأخير من الطوارق الأصيلين في السهوب، ويملك كل الوعي لكي يقرر بأنه لن ينسى أبداً أن رجلاً أعزل قُتِلَ تحت سقفه، والآخر، ضيفه، قد انتُزع منه بالقوة.

لذا، وعندما ابتعدت السَحابة نحو الجنوب، وجففت شمس الأصيل ثيابه وجسده، ارتدى ثيابه من جديد، أسرج مطيته وشرع في متابعة طريقه، مولياً ظهره للمرة الأولى للماء والمطر؛ للحياة وللأمل؛ لشيء كان منذ أسبوع فقط، بل يومين فحسب، سيملأ قلبه وقلب ذويه بفرح غامر.

6

عند هبوط الليل بحث عن كثيبٍ صغير، ثم حفر حفرة مزيلاً الرمل الذي مازال طريّاً، كي يغمر نفسه وينام مطموراً بكامله تقريباً بالرمل الجاف، ذلك لأنه يدرك أن الفجر يجلب الصقيع بعد المطر إلى السهوب، والريح تحوِّل قطرات الماء التي ماتزال فوق الحجارة والبَلّان، إلى جليد.

قد يكون الفارق أكثر من خمسين درجة مئوية بين الدرجة القصوى للظهيرة والدرجة الدنيا في الساعات الأولى التي تسبق الفجر، وغزال يعرف بتجربته أن ذلك الصقيع الغدّار يستطيع أن يتسلل إلى عظام المسافرين المغفّلين، ليوقعهم في المرض ويجعل مفاصلهم خلال أيام في حالة ألم وتصلّب، رافضة الانصياع بسرعة إلى أوامر الدماغ.

ثلاثة صيادين ظهروا متجمدين بين الحجارة في شعاب «الهوايلا»، وغزال مازال يتذكر جثثهم، ملتصقين ببعضهم، منصهرين في بوتقة الموت. وفي ذلك الصقيع الجحيمي أيضاً خطف السلُّ صغيرته بشرى. بدت تلك الجثث وكأنها تبتسم بعد أن جففت الشمس أجسادهم وأيبستهم مضفية مظهراً شنيعاً على جلودهم التي تحولت إلى رقائق جافة بأسنان لامعة.

أرض قاسية تلك التي يمكن للمرء أن يقضي فيها خلال بضع

ساعات من الصقيع أو من شدّة القيظ، وحيث ناقة تبحث عن ماء خلال أيام بلا جدوى كي تهلك مختنقة بالماء بغتة ذات صباح.

أرض قاسية، بيد أن غزال لا يتخيل العيش في أي مكان آخر، ولا يبدّل ظمأه، وقيظه، وصقيعه في هذا القفر اللانهائي، بأي رفاهية من عالم آخر محدود وبلا آفاق. وفي كل يوم، في كل صلواته متوجهاً إلى الشرق، إلى مكّة، يقدّم الشكر إلى الله لأنه سمح له بالعيش حيث يعيش، وينتمي إلى السلالة المباركة لرجال اللثام، الرمح، أو السيف.

نام محتاجاً إلى ليلى، وحينما استيقظ تحول جسد المرأة الصلب الذي كان يضمه في أحلامه إلى رمل ناعم ينساب من بين أصابعه.

كانت الريح تنوح في ساعة الصيّاد.

تأمل النجوم فقالت له كم تبقى من الوقت كي يزيلها الضوء من أفلاكها، نادى الليل فرغا المهري بنعومة مجيباً وهو يجترُّ أطراف البَلَّان الرطبة. أسرجه وشرع بالمسير، وعند الأصيل تبيّن في البعيد خمس بقع داكنة برزت في السهول الحصوية مضرب مبارك بن سعد، «إموهاغ» من «شعب الرمح» الذي قاد الجنود حتى خيمته.

تلا صلواته ثم جلس فوق صخرة ملساء كي يتأمل الغروب، غارقاً في أفكاره السوداء، مدركاً أنها قد تكون آخر ليلة يستطيع أن ينام فيها بسلام في هذه الحياة. مع قدوم الفجر عليه أن يفتح أخيراً غطاء أكبر الحروب، الانتقام والضغينة، ولا أحد يستطيع أن يعرف أبداً، ونهائياً، كم من العمق ستحفل بالموت والعنف.

حاول أن يدرك أيضاً الأسباب التي دفعت مبارك كي يحنث بأكثر التقاليد قداسة عند الطارقي، ولم يجد سبباً. كان دليلاً في الصحراء، ودليلاً جيداً لا ريب، لكن الدليل الطارقي ملزم فقط بأن يقوم بقيادة القوافل، بتقفِّي أثر طريدة، أو أن يرافق الفرنسيين في

رحلاتهم الاستكشافية الغريبة باحثين عن تذكار للعهود القديمة. لا يملك الطارقي الحق أبداً، وتحت أية حجّة كانت، التوغل دون إذنٍ في أراضي «إموهاغ» آخر، وأكثر من ذلك أن يقود غرباء غير قادرين على احترام التقاليد القديمة..

حينما فتح مبارك بن سعد عينيه في هذا الفجر، سرت قشعريرة في ظهره، الرعب الذي كان يتملكه منذ أيام في أحلامه، تملكه الآن متيقظاً، وبغريزته أدار وجهه صوب مدخل زريبته، خائفاً من أن يجد ما كان حقيقة يخاف منه. هناك، منتصباً، على بعد ثلاثين متراً، مستنداً على مقبض «التابوكا» الطويلة والمغروسة في الأرض، غزال صيّاح، «إنموشار» نبيل من «كيل ـ تالغيموس»، ينتظره مصمماً على محاسبته على أفعاله.

تناول بدوره سيفه، وتقدم ببطء شديد، شموخاً وبكرامة، كي يتوقف على بعد خمس خطوات.

ـ ميتوليم، ميتوليم ـ حيّاه مستخدماً التعبير المفضّل عند الطوارق.

لم يلق جواباً، وفي الحقيقة لم يكن ينتظره. بل انتظر السؤال:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ أجبرني الكابتن من الموقع العسكري في «عدوراس».

ـ لا أحد يستطيع أن يجبر الطارقي على القيام بما لا يرغب القيام به...

ـ أعمل معهم منذ ثلاث سنوات. لا أستطيع أن أرفض. أنا دليل رسمي لدى الحكومة.

ـ أقسمت مثلي ألا تعمل أبداً مع الفرنسيين...

ـ الفرنسيون رحلوا... الآن نحن بلد حر...

للمرة الثانية خلال أيام قليلة، شخصان مختلفان يقولان له الشيء ذاته، وأدرك بغتة أن لا الضابط ولا الجنود كانوا يرتدون البزّة العسكرية الاستعمارية البغيضة. لا أحد منهم كان أوروبياً، ولم يتكلموا بلكنة شديدة كما كان عليهم أن يفعلوا، وعلى شاحناتهم لم يكن يخفق العلم السرمدي الثلاثي الألوان.

ـ الفرنسيون احترموا دائماً تقاليدنا... ـ تمتم أخيراً كأنه يحدّث نفسه ـ لماذا لا يحترمونها الآن لا سيّما أننا أحرار؟

هزَّ مبارك كتفيه.

ـ تتبدل الأزمنة... ـ قال.

ـ ليس بالنسبة لي ـ كان الجواب ـ عندما تتحول الصحراء إلى واحات، والماء يجري طليقاً في السواقي، والمطر يهطل على رؤوسنا كل مرة نحتاجه، عندها تتبدل عادات الطوارق. ليس قبل ذلك أبداً.

حافظ مبارك على هدوئه حينما سأل:

ـ هذا يعني أنك جئت لقتلي؟

ـ لهذا جئت.

وافق مبارك بصمت، متفهماً، ثم ألقى نظرة طويلة حوله؛ إلى الأرض التي مازالت رطبة وإلى البزوغ الطفيف للعشب الذي يسعى كي يطل من بين الصخور والحصى.

ـ بديع كان المطر ـ قال.

ـ بديع جداً.

ـ قريباً ستغطي الأزهار السهول وأحدنا لن يستطيع رؤيتها.

ـ كان عليك التفكير بذلك قبل أن تأخذ غرباء إلى مضربي.

كانت شفاه مبارك تتحرك بابتسامة خفيفة تحت لثامه:

ـ إذاً لم تمطر بعد ـ أجاب، ثم ببطء شديد عرّى «التاكوبا»، محرراً النصل الفولاذي من غمده الجلدي المرصّع ـ أرجو ألا يطلق موتك شرارة حرب بين القبائل ـ أضاف ـ لا أحد سوانا يجب أن يدفع ثمن أخطائنا.

ـ فليكن ذلك ـ أجاب غزال منحنياً ومستعداً لتلقي الهجمة الأولى.

لكنها تأخرت في المجيء، إذ أن لا مبارك ولا غزال كانا محاربي سيف ورمح، إنما رجال الأسلحة النارية، «والتاكوبات» الطويلة أصبحت مع مر السنين مقتصرة على مجرد شيء للزينة والطقوس، تستخدم في أيام الاحتفالات للعروض السلمية، حيث يبحث اللاعب فيها عن مفعول الضربة على الترس الجلدي والمراوغة البارعة في تجنّبها، أكثر من النية في الجرح.

لكن الآن لم تكن التروس حاضرة ولا المتفرجون المستعدون لإبداء الإعجاب بالقفزات والوثبات البهلوانية بينما الفولاذ يقدح شرراً، متفادين أكثر التوخي في إيذاء الآخر، بينما هذا الآخر يشهر سلاحه الآن مصمماً على القتل كي لا يكون هو المقتول. كيف يمكن إيقاف الضربة من دون ترس؟ كيف يستأنف بعد وثبة إلى الخلف أو عثرة، إذا كان الخصم غير مستعد لمنحه وقتاً كي يتهيأ من جديد؟

حدجا بعضهما محاولين أن يكتشف كل منهما نوايا الآخر، دار كل منهما ببطء حول الآخر، بينما بدأ يظهر من الخيم رجال، نساء وأطفال يراقبانهما بصمت مذهولين، غير مصدقين أنهما يتواجهان في عراك حقيقي وليس تصنّعاً.

هدد مبارك أخيراً بالضربة الأولى، التي كانت سؤالاً خجولاً تقريباً: الرغبة في التأكد إذا كان الأمر يتعلق بعراك حقيقي حتى الموت.

الجواب جعله يقفز إلى الخلف متجنباً لسنتيمترات النصل

الغاضب لعدوه، مما جمّد الدم في عروقه. غزال صياح «إنموشار» من قبيلة «كيل ـ تالغيموس» المرهوب، يريد قتله، لا ريب في ذلك. الضغينة الجمة والرغبة الجامحة في الانتقام اكتنفت الضربة الشديدة التي سددها للتو بيديه، وكأن هؤلاء المجهولين الذين قدّم لهم يوماً مأوى هم حقيقة أبناؤه المفضلون، وهو مبارك بن سعد قتلهم شخصياً.

لكن غزال لم يكن يشعر بحقد مبرم. غزال يحاول أن يقيم العدل فحسب، ولم يكن ليبدو نبيلاً لو أنه حقد على طارقي لمجرد اقتصاره على أداء عمله، مهما كان هذا العمل مغلوطاً ولا يستحق الاحترام. غزال يدرك، علاوة على ذلك، أن الضغينة مثل الشوق، والخوف، الحب، أو أي عاطفة عميقة أخرى، ليست رفيقة جيدة لرجل الصحراء. كي يبقى على قيد الحياة في الأرض التي كان من نصيبه أن يولد فيها، لا مناص من التحلّي بالهدوء؛ الدم البارد والسيطرة على الذات، أن يكون دائماً فوق أية اعتبارات عاطفية، التي لا يحصل من جرّائها إلا جرّه لارتكاب أخطاء، حيث هناك، من النادر التوصل لإصلاحها.

يعرف غزال الآن أنه يتصرف كقاضٍ، وربما أيضاً كسيّاف، ولا أحد منهما عليه أن يحقد على ضحيته. قوة الضربة التي سددها بيديه، الغضب الذي يحمله في داخله لم يكن في الواقع أكثر من تحذير؛ الجواب الواضح على السؤال الواضح الذي طرحه عليه خصمه.

هجم من جديد وأدرك بغتة كم هي غير مناسبة ثيابه الطويلة، عمامته الواسعة ولثامه العريض. عباءته كانت تعيق رجليه وذراعيه، «والنايلس» بنعله السميك وإطاره الرفيع المصنوع من جلد الغزال، يجعله ينزلق على الحجارة الحادة، واللثام كان يعيقه في وضوح الرؤية وفي وصول كل الأكسجين اللازم إلى رئتيه في لحظة كهذه.

لكن مبارك كان يرفل بثياب مشابهة، جعلت حركاته أيضاً غير آمنة.

السيوف تلوح في الهواء مدويّة بحنق في هدأة الصباح، وعجوز درداء أطلقت صرخة رعب ضارعة أن يقتل أحدهم بطلقةٍ ابن آوى القذر هذا الذي يحاول قتل ابنها.

مدَّ مبارك يده بحركة آمرة، فلم يتحرك أحد. قانون الشرف عند «أبناء الريح» مختلف عن عالم مبني على الغدر والخسّة عند البدو «أبناء السحاب»، يقتضي أن تكون المواجهة بين مقاتِلينْ نظيفة ونبيلة حتى ولو كان مصير ذلك الحياة.

يتحدّون وجهاً لوجه ويقتلون وجهاً لوجه. بحثَ عن أرض صلبة تحت قدميه، استنشق الهواء، أطلق صرخة وانقضَّ مندفعاً إلى الأمام على صدر عدوه، الذي أبعد رأس سيفه بضربة جامدة وقوية.

هدأا من جديد محدجاً كل منهما الآخر مرة أخرى. شهر غزال «التاكوبا» وكأنها هراوة ورفعها بيديه مسدداً ضربة على شكل مروحة، ملوحاً بالسيف حول رأسه من أعلى إلى أسفل. أيَّ مبتدئ بالمسايفة كان يستطيع أن ينتهز فشل الضربة كي يوديه بطعنة، بيد أن مبارك اكتفى بسعادةِ تفادي الضربة والانتظار، واثقاً من قوته أكثر من براعته. قبض على السلاح بيديه الاثنتين وقذف بضربة قادرة على قطعِ رجل أجسم من غزال بكثير، من خصره، لكن غزال لم يكن موجوداً هناك كي يُقطع. بدأت حرارة الشمس تشتد والعرق ينساب من جسديهما مبللاً راحة يديهما، جاعلاً مقابض السيوف التي رفعوها من جديد غير آمنة. تمحّصا بعضهما، ووثب كل منهما على الآخر بإيقاع واحد، لكن في اللحظة الأخيرة تراجع غزال إلى الخلف سامحاً لرأس سلاح مبارك أن يمزّق قماش العباءة خادشاً صدره، وطَعَن عدوه في بطنه مخترقاً إياه من طرف إلى طرف.

استمر مبارك للحظات منتصباً، معتمداً على سيف وذراع غزال

أكثر مما على قدميه نفسهما، وحينما سحب الآخر السلاح، ممزقاً رزمة أحشاءه، ارتمى متمدداً فوق الرمال، مطوياً على نفسه، مقرراً التحمّل بصمت، دون أية شكوى، الاحتضار الطويل الذي أعدّه له القدر.

لحظات بعد ذلك بينما سيّافه يتوجه، على مهلٍ، ليس سعيداً ولا فخوراً، صوب مطيته التي تنتظره، دخلت العجوز الدرداء الخيمة الرئيسية، تناولت بندقية، لقمَّتها، جاءت حيث ابنها يتلوى من الألم دون نحيب، وصوبت على رأسه.

فتح مبارك عينيه واستطاعت أن تقرأ في نظرته الامتنان اللانهائي إلى الكائن الذي سيعتقه من ساعات طويلة لعذاب دون أمل.

سمع غزال الطلقة في ذات اللحظة التي شرع فيها جمله بالمسير، بيد أنه لم يلتفت وراءه.

7

استشعر أكثر مما رأى، قطيع غزلان في البعيد مما جعله يدرك جسامه جوعه. اليومان الأخيران قضاهما على قليل من طحين الدُخْن والتمر، قلقاً بشأن مجابهته مع مبارك، لكن الآن محض فكرة حول قطعة جيدة من اللحم، مشوية ببطء على جمر النار، تخدش أحشاءه.

اقترب ببطء من حافة «غرارا» آخذاً الجمل من إباضه، حذراً من ألا تنقل الريح رائحته إلى البهائم التي ترتع فِي شتات النباتات القصيرة من منخفض كان في الأزمنة الغابرة يشكِّل ساقية أو مجرى جدول، مازال يحتفظ في باطنه ببقايا رطوبة.

أَثْلٌ خجول وبعض الأكاسيا القزمة ارتفعت هنا وهناك، وسرَّه إدراك أن غريزته كصياد مازالت وفيّة له مرة أخرى، إذ أن في العمق ثمة عائلة من الحيوانات الجميلة بقرون طويلة وجلد ضارب إلى الحمرة، تقضم أطراف النباتات أو نائمة تحت شمس الأصيل. ركّب البندقية واضعاً رصاصة واحدة ليتفادى إغراء الطلقة الثانية اليائسة إذا ما فشل في الأولى، عندما تزمع هذه البهائم البارعة إلى الهروب بقفزات واسعة. غزال يعرف بتجربته أن الطلقة الثانية هذه مرهونة بالحظ تقريباً، نادراً ما تصيب الطريدة، وهذا يعني تبديد للذخيرة، حيث الذخيرة في الصحراء نادرة وضرورية كالماء ذاته.

ترك المهري طليقاً حيث أخذ يرتع مباشرة متجاهلاً أن هذه

ليست من مأكولاته، منتعشاً الآن وشهياً بسبب الغيث، وتقدم بصمت جارّاً نفسه تقريباً من صخرة إلى جذع مائل لشجيرة؛ من كثيب صغير إلى شوكة حتى وصل أخيراً المكان الملائم، حيث يسيطر منه، من بعد ثلاثمئة متر، على الطيف الأهيف للذكر الجسيم للقطيع.

«عندما تصرع ذكراً سريعاً ما يأتي آخر أفتى منه ليحل محله من أجل سِفَاد الأناث ـ قال له والده ـ وعندما تقتل أنثى فأنت تقتل أيضاً أبناءها وأبناء أبنائها الذين كان يمكنهم أن يمدوا أبناءك وأبناء أبنائك بالغذاء».

هيأ بندقيته وصوّب بحذر إلى صدره على مستوى القلب. إن طلقة في الرأس من ذلك البعد أكثر فعالية بلا ريب، لكن غزال كمسلم صالح لا يأكل لحماً غير مذبوح باتجاه مكة متلياً الصلوات التي أمر بها الرسول. قَتْلُ الغزال في مكانه يعني عدم الاستفادة منه ويفضّل المخاطرة بأن يهرب جريحاً، لأنه يعرف أيضاً بأن رصاصة في رئتيه لن توصله بعيداً جداً.

رفع الحيوان بغتة خياشيمه، تشمم الهواء واضطرب قليلاً. ثم، بعدأن بدت وكأنها الأبدية، لكن لم تكن أكثر من بضع دقائق على الأرجح، جال ببصره على قطيعه متأكداً من عدم وجود خطر وعاود مهمته في قضم الأَثْل.

حينما أصبح متأكداً تماماً أنه لا يمكن أن يخطئ، والغزال لن يقوم بقفزة مباغتة أو يبدأ بحركة غريبة، ضغط غزال بنعومة على الزناد، انطلقت الرصاصة ممزقة الهواء بأزيزها، وسقط الغزال على ركبتيه كأن قوائمه الأربع قد شُدِفَتْ أو أن الأرض قد ارتفعت بفن السحر.

رمقته الإناث بلا اهتمام أو خوف، رغم الفرقعة التي أصمّت الأجواء، بيد أنها لم تكن مرهونة بفكرة الخطر أو الموت، وفقط عندما رأوا الرجل قادماً مهرولاً وثيابه تتطاير في الهواء، شاهراً سكيناً، بدؤوا بالجري مختفين عن النظر في البيداء.

وصل غزال إلى صيده الجريح، الذي بذل آخر جهد محاولاً النهوض للّحاق بعائلته، لكن ثمة شيئاً تحطم في داخله وما من شيء فيه انصاع لأوامر الدماغ. فقط عيناه الواسعتان والبريئتان، عكستا حجم لوعته حينما أمسكه الطارقي من قرنيه وأدار وجهه صوب مكة ونحره بطعنة قوية من خنجره المسنون.

تدفق الدم فائراً ملطخاً الصندل وحافة العباءة، إلا أن غزال لم يعبأ بذلك راضياً عما آلت إليه حذاقته بالتصويب مبرهناً على ذلك، مرة أخرى، بالإصابة الدقيقة التي لحقت بالطريدة.

كان مايزال يأكل حينما فاجأه الغروب، ولم تكن قد ظهرت الكواكب الأولى عندما هجع إلى النوم، محمياً من الريح خلف البَلّان ومتدفئاً بجُذى الصِلاء.

أيقظته ضحكة الضباع التي هرعت للمطالبة بالغزال الميت. وحامت حوله الثعالب أيضاً مما جعله يعاود إنعاش النار التي أبعدتهم حتى حدود الظلال، ومكث مضطجعاً وجهه إلى السماء مستمعاً إلى الريح القادمة، متأملاً حدث اليوم ذاته الذي قتل فيه رجلاً: أول كائن إنساني يقتله في حياته، وهذا يعني أن حياته هذه لن تكون هي نفسها من الآن فصاعداً. لم يشعر بالذنب لأنه اعتبر أن قضيته عادلة. بيد أن قلقه يكمن في احتمال أن يتحول ذلك إلى سلسلة من تلك الحروب القبلية التي كثيراً ما سمع عنها من الكبار، وجاء وقت لا أحد يعرف فيه سبب هذه الأموات، ولا اسم الذي بدأ بها. والطوارق، «الأماهِغ» القلة الذين مازالوا يجوبون تخوم الصحراء، أوفياء لتقاليدهم وسننهم، وليسوا في شروط تسمح لهم بإبادة بعضهم، إذ يكفيهم الدفاع عن أنفسهم كما يستطيعون ضد التقدم المدني.

استحضر الإحساس الغريب الذي سرى في جسده عند ولوج سيفه بلين، دون جهد تقريباً، في بطن مبارك، وبدا له كأنه مازال يسمع بحّ الحشرجة التي خرجت من حنجرته في تلك اللحظة. عندما

سحب ذراعه كأنه أخذ حياة عدوه معلقة على رأس «التاكوبا»، وتملكه الوجل أمام إمكانية استخدام سيفه مرة أخرى ضد أحد ما، لكنه تذكّر بعد ذلك الدوي الجاف للطلقة التي قتلت ضيفه وهو نائم، وواسته فكرة أنه لا يمكن أن يوجد غفران لمن يرتكب جريمة كهذه.

اكتشف تواً، أنه مهما كان الظلم مرّاً فإن تصحيحه سيكون كذلك مرّاً، إذ أنه لم تعتره أي متعة بموت مبارك، بل اعتراه إحساس عميق بالفراغ والقنوط. مثلما أكد العجوز سويلم بأن الانتقام لن يعيد الحياة إلى الميت.

ثم سأل نفسه لماذا كان دائماً بالنسبة للطوارق ذلك القانون غير المكتوب عن الضيافة بهذه الأهمية والذي يتقدم كل القوانين الأخرى حتى القرآنية منها، وحاول أن يكوّن فكرة عما ستؤول إليه الصحراء إذا كان المسافر لا يملك اليقين المطلق بأنه هناك حيث يصل سيستقبل بالترحاب والمساعدة والاحترام.

رَوَتْ الأساطير أنه كان هناك في مناسبة معينة رجلان يحقدان على بعضهما إلى درجة أن أحدهما، الأضعف، حضر بغتة إلى خيمة عدوه ملتمساً ضيافة. غيوراً على التقاليد قبِل الطارقي ضيافته. مقدماً له الحماية، وبعد مضي شهور، تعباً من تحمّله وإطعامه، أكد له بأنه يستطيع الرحيل بسلام لأنه لن يحاول النيل منه أبداً. منذ ذلك الحين، ويبدو أن هذا حدث منذ سنوات عديدة جداً، تحولت إلى عادة يمارسها الطوارق فيما بينهم لحل خلافاتهم بهذه الطريقة، وهكذا يضعون نهاية لنزاعاتهم. كيف كان تصرف هو نفسه فيما لو جاء مبارك إلى مضربه ملتمساً ضيافة، محاولاً أن يجعله يغفر له الإهانة التي ارتكبها؟ لا يستطيع أن يعرف، لكن من المحتمل أنه كان سيسلك سلوك الطارقي في الأسطورة، إذ أنه من غير المنطقي ارتكاب جريمة لمعاقبة أحد ارتكب تماماً الجريمة ذاتها.

عندما كانت الطائرات النفاثة تحلق عالياً في سماء الصحراء، والشاحنات تعبر الطرق الأكثر شهرة، دافعين سلالته إلى أقصى

الزوايا المكنونة في البيداء، لم يكن من السهل التكهّن كم من الوقت تدوم هذه السلالة في هذه السهوب. لكن كان واضحاً بالنسبة لغزال أنه فيما لو بقي واحد منهم فقط على قيد الحياة فوق الرمال وجدب السهول اللانهائية، أو فوق الأرض الحصيّة التي بلا آفاق في الحمادة، فإن قانون الضيافة يجب أن يستمر مقدساً، عكس ذلك لن يخاطر أي مسافر أبداً في اجتياز الصحراء.

جنحة مبارك لا تقبل الغفران، وهو غزال صياح منوط به في جعل الآخرين من غير الطوارق يدركون أن سنن وعادات سلالته في الصحراء يجب أن يستمر احترامها، لأنها سنن وعادات متكيفة مع الوسط الذي يعيشون فيه، ومن دونها لا يوجد أي إمكانية في البقاء على قيد الحياة.

جاءت الريح وبمجيئها جاء النهار. الضباع والثعالب أدركوا أنهم فقدوا الإمكانيات القليلة بالحصول على قطعة من الغزال، وابتعدوا مهمهمين نائحين صوب جحورهم المظلمة، حيث يرجع كل قاطني الليل: الفينيق بأذنه الطويلة، فأر الصحراء، الأفعى، الأرنب والثعلب. عندما تبدأ أشعة الشمس تكون هذه الكائنات نائمة، تحتفظ بقواها إلى أن تجعل ظلال الليل الحياة محتملة من جديد، في المكان الأكثر دماراً من هذا الكوكب، فهنا على عكس بقية العالم، النشاط يكون في الليل والراحة في النهار.

الإنسان فقط رغم القرون لم يستطع أن يتكيف تماماً مع الليل، لذا ومع شعاع الضوء الأول، بحث غزال عن جَمله الذي كان يرتع على بعد أكثر من كيلومتر بقليل، أخذه من إباضه، وشرع، بلا عجلٍ، مسيره صوب الغرب.

8

يحتل موقع «عدوراس» العسكري واحة على شكل مثلث ـ أكثر من مئة نخلة بقليل وأربعة آبار ـ في قلب نهر من الكثبان المترامية الأطراف، مما يمكن اعتبار البقاء فيه على قيد الحياة معجزة حقيقية. فهو مهدد دائماً من الرمال، مقتربٌ منها لحمايته من الرياح، لكنها تحوله، لهذا السبب ذاته، إلى ما يشبه الفرن، الذي كثيراً ما تصل درجة الحرارة فيه عند الظهيرة إلى ستين درجة مئوية.

الدزينات الثلاث من الجنود الذي يتكون الموقع منهم، يقضون نصف حياتهم وهم يندبون حظهم تحت ظلال النخيل، والنصف الآخر يعاركون فيه الرمال بجهد يائس لإعادتها كما كانت وجعل الطريق الترابي الضيِّق سالكاً، حيث يَسمح لهم بالاتصال مع العالم الخارجي، ليستلموا من خلاله المؤن والمراسلات مرة كل شهرين.

خطرت لكولونيل مسّه الجنون، منذ ثلاثين عاماً مضت، الفكرة العبثية بأن على الجيش أن يتحكم بتلك الآبار الأربعة، والتي كانت، من جهة أخرى، الوحيدة الموجودة على مسافة ما يقرب المئة كيلومتر من محيطها. فتحولت «عدوراس» بذلك إلى «لعنة القدر» بالنسبة للقوات الاستعمارية كما لقوات أهل البلد في الوقت الحاضر، ومن الأجداث المقامة على أطراف النخيل، تسعة يعزونها «لموت

طبيعي» وستة انتحار، أولئك الذين لم يتحمّلوا فكرة البقاء على قيد الحياة في جحيم كهذا.

كانت المحكمة تعرف تماماً ماذا تفعل، حينما تتردد في إرسال مُتَّهم إلى الحائط (لإعدامه)، بالحكم عليه بالسجن المؤبد، أو تخفيف العقوبة إلى الخدمة خمسة عشر عاماً إجبارية في «عدوراس». ويعتبر المُتَّهم نفسه في البداية أن المحكمة بهذا التبديل إنما أرادت مساعدته.

بالنسبة للكابتن غالب الفاسي، القائدعسكري للموقع والسلطة العليا في منطقة شاسعة تعادل نصف مساحة إيطاليا، لكن لا يقطنها أكثر من ثمانمئة شخص، السنوات السبع التي مضت عليه في «عدوراس» تشكل العقاب الذي ناله لجنحة قتله لملازم أول شاب كان قد هدّده بكشف التلاعبات في حساب الدائرة في موقعه السابق. حُكِمَ عليه بالموت، لكن عمّه، الجنرال المشهور عبيد الفاسي، بطل الاستقلال، حصل له على ردّ الاعتبار وفاءً لكونه أحد مساعديه ورجل ثقة خلال الحرب التحريرية، ووضعه على رأس فصيلة، حيث لا يستطيع إرسال أي عسكري آخر قيد الترقّي إن لم يجد نفسه في ظروف مشابهة.

منذ ثلاث سنوات مضت، مراجعاً الملفات التي كانت بحوزته فحسب، وصل الكابتن غالب إلى النتيجة بأن هناك أكثر من عشرين قتيلاً من بين عناصر فصيلته. خمس عشرة حالة اغتصاب، ستون اعتداء بسلاح ناري، وعدد لا يحصى من السرقات، وفرار من الخدمة وجنايات صغيرة، لذا، ومن أجل السيطرة على «شرزمة» كهذه، كان عليه أن يوظف كل ما لديه من خبرة، ومكر، وعنف. الاحترام المهدور يمكن فقط تجاوزه حينما يفرضه ثانية رجل الثقة عنده: السرجنت ماجور مالك الحيدري، رجل نحيل، ضئيل، وظاهرياً يبدو واهناً ومريضاً، لكنه كان من القسوة والمكر، والشجاعة إلى درجة أنه استطاع أن يسيطر على عصابة من البهائم كهذه. نجا من خمس محاولات لقتله ومبارزتين بالسلاح الأبيض.

ضحايا مالك ما كانوا يعزونها لـ «الموت الطبيعي»، وهذا أكثر من عادي في «عدوراس»، واثنان من المنتحرين أطارا دماغيهما كي لا يعانيا أكثر من عذاباته. الآن بدا جالساً على قمة أعلى الكثبان، التي تشرف على الواحة من جهة الشرف، «غوردس» قديمة، ارتفاعها يفوق المئة متر، ذَهَّبها الزمن وقاسية في وسطها بحيث تحولت الرمال إلى حجارة تقريباً. السرجنت مالك كان يراقب رجاله بلا اهتمام كيف يعاركون رمال الكثبان حديثة العهد، والتي كانت تهدد بغمر أقصى بئر من بين الآبار، إلى أن وجَّه منظاره صوب الفارس الوحيد الذي بدأ يلوح، ممتطياً مهري أبيض ويتقدم على مهلٍ، فاتحاً طريقه باتجاه الموقع. سأل نفسه ما الذي يبحث عنه طارقي في تلك المجاهل، فمنذ حوالى ست سنوات تركوا التردد على آبار «عدوراس» متفادين أي صلة مع قاطنيه. كانت قوافل البدو تجيء في كل مرة متباعدة أكثر زمنياً، ينهلون الماء ويستريحون لبضعة أيامٍ في الطرف القصّي للواحة، ساعين إلى إخفاء نسائهم، ولا يحتكّون مع الجنود مطلقاً، ثم يعاودون المسير وهم يتنفسون الصعداء إذا لم ينجم عن مكوثهم أي عارض. لكن الطوارق ليسوا كذلك. الطوارق عندما يرتادون الآبار يواجهونهم بأنفةٍ وتحدٍّ، ويسمحون لنسائهم بالتجوال من مكان إلى آخر بوجوه سافرة، وأذرع وسيقان مكشوفة في الهواء الطلق، غير مبالين لحقيقة أن هؤلاء الرجال لم يستمتعوا بامرأة منذ سنين، ويشهرون بنادقهم وخناجرهم المسنونة عندما يحاول أحدهم أن يتجاوز حدوده.

لذلك عندما قُتل محاربان وثلاثة جنود في إحدى المشاجرات، فإن «أبناء الريح» يفضلون، منذ ذلك الحين، الابتعاد في طريقهم عن الموقع العسكري. لكن الآن، ذلك الفارس الوحيد يتقدم بإصرار دانياً من الهضبة الأخيرة، مرتسماً في سماء الغروب وثيابه مشرعة للريح، متوغلاً أخيراً بين النخيل متوقفاً إلى جانب بئر الشمال على بعد مئة متر من المهاجع الأولى.

ترك نفسه ينزلق من الكثيب على مهلٍ، عَبَر المعسكر ووصل إلى

جانب الطارقي الذي كان يسقي جمله القادر على أن ينهل مئة ليتر من الماء دفعة واحدة.

ـ السلام عليكم!

ـ ميتوليم، ميتوليم ـ ردَّ غزال.

ـ معك بهيمة جيدة، وظمأى.

ـ جئنا من بعيد.

ـ من أين؟

ـ من الشمال.

يكره السرجنت مالك الحيدري اللثام الطارقي، لأنه يستطيع معرفة الرجال معتمداً على تعابير وجوههم عندما يقولون الحقيقة وعندما يكذبون. لكن هذا الاحتمال مع الطوارق لم يكن موجوداً قط، حيث لا يتركون للنظر سوى فتحة صغيرة لعيونهم، ويصغرونها بنصف إغماضة عمداً عند الكلام. وَقْعُ الصوت مشوهاً أيضاً، لذا وجد نفسه مجبراً على تقبّل الجواب بطيبة خاطر، وهو في الحقيقة رآه قادماً من الشمال، وليس لديه سبب كي يشك بأن غزال كلّف نفسه معاناة دورة كبيرة كي يسمح له برؤيته قادماً من ذلك الاتجاه، بينما هو قادم من اتجاه معاكس.

ـ إلى أين تتجه؟

ـ إلى الجنوب.

ترك مطيته وقد باعدت بين قوائمها، وجوفها طافح بالماء، منتفخة ورضية، وانكبَّ على جمع الأحطاب ليحضر لصِلاءٍ صغير.

ـ تستطيع أن تأكل مع الجنود ـ لفت انتباهه.

رفع غزال قطعة من الغطاء وترك نصف الغزال المتبقي مكشوفاً، وهو مازال طرياً ومغطى بالدم الجاف.

ـ تستطيع أن تأكل معي إذا رغبت. مقابل مائك.

شعر السرجنت ماجور مالك بقفزة في معدته. منذ أكثر من خمسة عشر يوماً لم يحصل الصيادون على قنيصة واحدة، لأنهم كانوا يبتعدون مع مرِّ السنين عن محيطهم، وما من بدوي أصيل بين جنوده خبير بالصحراء وقاطنيها.

ـ الماء للجميع ـ أجاب ـ لكني أقبل دعوتك بسرور. أين اصطدتها؟

ابتسم غزال في سريرته لخشونة المكيدة.

ـ في الشمال ـ ردَّ.

جمع الحطب الذي احتاجه، اتخذ مكاناً فوق دثار مطيته، وأخرج صوّانة وفتيلاً، لكن مالك قدّم له علبة ثقاب:

ـ استخدم هذه ـ طلب منه ـ مريحة أكثر. ـ ثم رفض بإيماءة ـ ابقها معك. لدينا الكثير منها في مخزن المؤونة.

اتخذ مكاناً قبالته وراقبه بينما يغرز فخذي الغزال في مِدَك بندقيته القديمة واضعاً إياها على نار خفيفة لشيهما.

ـ تبحث عن عمل في الجنوب؟

ـ أبحث عن قافلة.

ـ ليس موسم القوافل الآن. آخر قافلة مرّت منذ حوالى الشهر.

ـ قافلتي تنتظرني ـ كان الجواب الملغّز، وإذ لاحظ أن السرجنت يحدّق فيه بإمعان دون أن يفهم، تابع بالنبرة ذاتها ـ تنتظرني منذ أكثر من خمسين عاماً.

يبدو أن الآخر قد فهم وراقبه بكثير من الدقة:

ـ «القافلة العظمى» ـ صاح أخيراً ـ ذاهب للبحث عن «القافلة العظمى» الأسطورية؟ أنت مجنون!

ـ ليست أسطورة... عمي ذهب فيها... وأنا لست مجنوناً. ابن عمي سليمان الذي يمضي يومه في نقل حجارة بناء بأجر تافه، نعم هذا مجنون.

ـ ما من أحد ذهب للبحث عن هذه القافلة وعاد حيّاً.

أشار غزال برأسه إلى الأجداث الحجرية التي تكهنها بين النخيل المبعثر في عمق الواحة.

ـ ليسوا أكثر مواتاً من هؤلاء... وإذا ما وجدوها سيصبحون أغنياء إلى الأبد...

ـ لكن «أرض الخواء» لا ترحم: لا يوجد ماء ولا كلأ يصلح مرعى لجملك، أو ظل تتفيأ به أو أية علامة تصلح لتوجيهك. إنه الجحيم!

ـ أعلم، اعترف الطارقي ـ كنت هناك مرتين...

ـ كنت في «أرض الخواء»؟ ـ ردد غير مصدق.

ـ مرتين.

لم يكن ثمة حاجة للسرجنت مالك بأن يرى وجهه كي يدرك أن ما يقوله هو الحقيقة، واهتمام جديد ولد عنده. قضى ما يكفي من السنين في الصحراء كي يعرف تقدير رجل كان في «أرض الخواء» وعاد حيّاً. يمكن عدهم على أصابع اليد الواحدة من المغرب حتى مصر، ولا حتى مبارك بن سعد، الدليل الرسمي للموقع والذي يُعدُّ واحد من أفضل العارفين بالرمال والدروب الحصباء كان قد تجاسر عليها.

ـ «لكن أعرف واحداً...» ـ كان مبارك قد اعترف مرة خلال بعثة استكشافية طويلة إلى سلسلة مرتفعات «الهوايلا» ـ «أعرف إنموشار من كيل ـ تالغيموس، ذهب إليها وعاد...».

ـ ما الذي يشعر به المرء هناك داخلها؟

نظر إليه غزال طويلاً وهزَّ كتفيه:

ـ لا شيء. يجب ترك كل المشاعر بعيداً. يجب ترك حتى الأفكار خارجك وأن تعيش كحجر، حذراً من أن تقوم بأي حركة تستهلك من

خلالها الماء. حتى في الليل عليك أن تتحرك ببطء شديد كحرباء، وهكذا إذا استطعت أن تفقد إحساسك تجاه القيظ والظمأ، وقبل كل شيء، إذا استطعت التغلب على الهلع واحتفظت بالسكينة، يكون لديك إمكانية بعيدة في البقاء على قيد الحياة.

ـ لماذا فعلت ذلك؟ أكنت تبحث عن «القافلة العظمى»؟

ـ كلا. بحثت في نفسي عن بقايا أجدادي. هم تغلبوا على «أرض الخواء».

نفى الآخر متيقناً:

ـ لا أحد يتغلب على «أرض الخواء» ـ كرر متأكداً مما يقول ـ البرهان هو أن كل أجدادك أموات وهي تستمر غامضة مثلما خلقها الله ـ توقف قليلاً، حرك رأسه وسأل كما لو أنه يسأل نفسه ـ لماذا خلقها؟ لماذا وهو قادر على خلق العجائب، خلق أيضاً هذه الصحراء؟

الجواب لم يكن ناجماً عن الغرور، ولو كان في البداية يمكن التفكير بأنه كذلك:

ـ لكي يستطيع خلق الـ «أماهغ».

ضحك مالك مستمتعاً.

ـ حقاً... ـ وافق ـ حقاً... ـ أشار إلى فخذ الغزال ـ لا يعجبني اللحم مشوياً كثيراً ـ قال ـ هكذا جيد.

سحب غزال المِدَك ونزع قطعتي اللحم، قدم له واحدة وبخنجره المسنون بدأ يقطع من الأخرى شرائح ثخينة.

ـ إذا تعرضت في يوم ما إلى مصاعب ـ أشار ـ لا تشوي اللحم. كُلْهُ نيئاً. التهم أي حيوان تجده واشرب دمه. لكن لا تتحرك. بشكل خاص لا تتحرك أبداً.

ـ سآخذ ذلك في الحسبان ـ وافق السرجنت ـ سآخذ ذلك بعين

الاعتبار، لكن أتضرع إلى الله ألا يضعني في حالة حرجة كهذه.

أكملا عشاءهما بصمت، شربا ماءً طرياً من البئر، ونهض مالك متمطياً برضى.

ـ يجب عليَّ الذهاب ـ قال ـ سأطلع الكابتن وأرى إذا كان كل شيء على ما يُرام. كم من الوقت ستبقى؟

هزَّ غزال منكبيه مشيراً إلى أنه لا يعرف.

ـ أفهم. ابقَ الوقت الذي تريد. لكن لا تقترب من المهاجع. الخفراء لديهم أمر بإطلاق النار للقتل.

ـ لماذا؟

ابتسم السرجنت مالك الحيدري ابتسامة ملغزة، وبإيماءة من رأسه أشار إلى البيت الخشبي القصي.

ـ ليس لدى الكابتن الكثير من الأصدقاء ـ أوضح ـ لا هو ولا أنا، لكنني أعرف كيف أحمي نفسي بنفسي.

ابتعد عندما كانت الظلال قد أصبحت أكثر حلكة في الواحة، مستقرّة هناك عند أطراف النخيل، وصدى الأصوات يُسمع بصفاء أكثر بينما الجنود يعودون ومجارفهم على أكتافهم تعبين ويتصببون عرقاً، وكلهم شوق إلى مهاجعهم وأسرَّتهم التي تقودهم لبضع ساعات إلى عالم الأحلام بعيداً عن جحيم «عدوراس».

لم يكن ثمة شفق، انتقلت السماء من أحمر إلى أسود من دون مراحل تقريباً، وسرعان ما شعّت أضواء الوقود في المهاجع.

مهجع الكابتن فقط أعدَّ بمغالق للنوافذ التي تحجب رؤية ما يجري في داخله، وقبل أن ينغلق المساء تماماً حضر خفير ليقيم الحراسة، صارماً بسلاح متأهب على بعد أقل من عشرين متراً من الباب.

بعد نصف ساعة فُتح هذا الباب وارتسم فيه شكل طويل

وجسيم، لم يكن غزال بحاجة لأن يلمح نجوم البزّة العسكرية كي يتعرف على الرجل الذي قتل ضيفه. رآه يمكث ساكناً بضع دقائق مستنشقاً هواء الليل ملء رئتيه ويشعل سيجارة. ضوء عود الثقاب أحضر إلى ذاكرته تفاصيل سيمائه، اللمعان القاسي والازدراء الذي كان في عينيه حينما أكّد أنه هو القانون. شعر بإغراء تصويب سلاحه والقضاء عليه بطلقة واحدة. من بُعد قصير كهذا، مرتسماً بوضوح عكس الضوء الداخلي، شعر بأنه قادر على إدخال رصاصة في رأسه مطفئاً في الوقت ذاته السيجارة في فمه، لكنه لم يفعل. اقتصر على مراقبته من مسافة أقل من مئة متر مُرضياً نفسه بتصور ما الذي سيفكّر به ذاك الرجل إذا ما تحقق له أن الطارقي الذي أهانه واحتقره كان يجلس هنا، قبالته، مستنداً إلى نخلة قرب جذوات الصِلاء، متأملاً في فائدة قتله في هذه اللحظة أو تركه ليقتله فيما بعد.

بالنسبة إلى كل أولئك الرجال من المدينة الذين غُرسوا في الصحراء لم يتعلموا حبها قط، وهم في الحقيقة يكرهونها وكلهم رغبة في الهروب منها بأي ثمن كان. وحدهم الطوارق، لم يكونوا يشكلون بالنسبة لهم سوى جزء من المشهد، غير قادرين على تمييز الواحد عن الآخر، كما أنهم ليسوا قادرين على أن يفرِّقوا بين كثيبين طويلين من السيوف الرملية(*) ورأس حسام، حتى وإن كانا متباعدين عن بعضهما مسيرة نصف يوم.

لا يملكون دراية بالزمان والمكان ولا بروائح وألوان الصحراء، وعلى ذات النسق، لا يملكون دراية بما يفصل بين محارب من «شعب اللثام» من إموهاغ من «شعب السيف»، بين إنموشار من خادم أو بين امرأة طارقية أصيلة، طليقة وقوية، من امرأة بدوية فقيرة وخادمة في حريم.

كان يستطيع الاقتراب منه، وأن يحكي له خلال نصف ساعة عن

(*) السيوف الرملية: كثبان طويلة ذات انكسارات حادة تشبه السيوف. م.

الليل والنجوم، عن الرياح والغزلان، ولن يتعرف على «ذلك اللعين، الرث والنتن»، على الذي حاول مواجهته منذ خمسة أيام. لقد حاول الفرنسيون عبثاً خلال سنين أن يجعلوا الطوارق يسفرون عن وجوههم.

وفي النهاية، مقتنعين بأنهم لن يتخلوا عن لثامهم أبداً، توصلوا إلى نتيجة أنهم لن يستطيعوا تمييز واحد عن الآخر قط لا بالصوت ولا بالحركات، ثم تخلوا نهائياً عن الأمل في التمييز فيما بينهم.

لا مالك، ولا الضابط، ولا كل أولئك الجنود الذين يعاركون الرمال كانوا فرنسيين، بيد أنهم يشبهونهم في جهلهم وفي احتقارهم للصحراء وقاطنيها.

حينما أنهى الكابتن سيجارته، رمى عقبها على الرمل، حيّا الخفير على مضض، وأغلق الباب وراءه، وتمكن من سماع صوت سقاط الباب الثقيل. انطفأت الأضواء الواحد تلو الآخر وخيّم على المعسكر والواحة الصمت؛ صمت مقطوع فقط بحفيف سعف النخيل الذي يحركه نسيم رقيق، وعواء بعيد لثعلب جائع.

تدثر غزال بدثاره مسنداً رأسه على كرسيّ الركوب، أجال بصره بنظرة أخيرة على المهاجع وعلى رتل السيارات الراكنة في مرآب بدائي، ثم رقد نائماً.

فاجأه الفجر تحت شجرة نخيل باسقة والأكثر وفرة بين النخيل، وقد ارتمت على الأرض أَقْناء(*) التمر الثقيلة الناضجة. ملأ كيساً منها؛ ملأ كذلك قِرَبه، وأسرج المهري الذي احتج صاخباً، راغباً في البقاء زمناً أطول تحت الظل قريباً من البئر.

بدأ الجنود بالظهور وهم يبولون خلف الكثبان أو يغسلون وجوههم من منهل أكبر الآبار، والسرجنت مالك الحيدري ترك مهجعه أيضاً واقترب بخطاه السريعة الواثقة.

(*) أَقْناء: جمع القنو، وهو من النخيل كالعنقود من العنب. م.

ـ سترحل؟ ـ سأل، مع أنه من الواضح عدم فائدة سؤاله ـ اعتقدت بأنك ستبقى لترتاح بضعة أيام أخرى.

ـ لست تعباً.

ـ إنني أرى. وآسف ـ كان يعجبه الحديث مع غريب أحياناً. هذه الحثالة لا تفكر سوى بالسرقة أو في النساء.

لم يجب غزال، جاهداً في تمتين الأكياس كي لا تسقط على الأرض مع تأرجح الجمل بعد خمسمئة متر، ومدَّ مالك يد المساعدة من الجهة الأخرى للبهيمة، في الوقت الذي سأل:

ـ هل تأخذني معك للبحث عن «القافلة العظمى» إذا ما سمح لي الكابتن بذلك؟

نفى الطارقي بإيماءة:

ـ «أرض الخواء» ليست مكاناً لك. «الأماهِغ» فقط قادرون على التوغل فيها.

ـ أساهم بثلاثة جمال. نستطيع حمل ماء وزاد أكثر. في تلك القافلة من النقود ما يفيض عن الجميع. أعطي قسماً للكابتن وبالآخر أشتري نقلي من هنا، ويبقى معي ما يكفيني بقية حياتي. خذني معك!

ـ كلا.

لم يلحّ السرجنت ماجور مالك، لكنه طاف ببصره ببطء على النخيل، المهاجع وكثبان الرمل التي أغلقت عليهم من الجهات الأربع، محوّلة الموقع إلى سجن حيث حلَّ محل القضبان كثبان مرتفعة مُهدِّدة بدفنهم مرة وإلى الأبد.

ـ أحد عشر عاماً أمامي هنا! ـ غمغم كأنه يكلم نفسه ـ سأكون عجوزاً إذا تمكنت من البقاء على قيد الحياة، ورفضوا حتى حقي في الاستقالة والتقاعد. إلى أين أذهب؟ ـ ملتفتاً من جديد إلى الطارقي ـ

أليس من الأفضل الموت في الصحراء بكرامة مع الأمل في أن ضربة حظ يمكنها أن تغيّر كل شيء؟

ـ ربما.

ـ هذا ما ستحاوله، أليس صحيحاً؟ تُفضل المخاطرة على العيش الرديء وأنت تنقل الآجر.

ـ أنا طارقي، أنت لا...

ـ أوه، اذهب إلى الشيطان مع اعتزازك اللعين بسلالتك ـ احتجَّ متأففاً ـ هل تعتقد بأنك أفضل لأنهم عوَّدوك منذ الصغر على تحمّل الظمأ والقيظ؟ كان عليَّ أن أتحمل أولاد القحبة هؤلاء وأؤكد لك بأنني لا أعرف ما هو أسوأ. اذهب! حينما أريد أن أبحث عن «القافلة العظمى» سأقوم بذلك لوحدي. لا أحتاجك.

ابتسم غزال خلف اللثام ابتسامة خفيفة دون أن يستطيع الآخر ملاحظته، أجبر جمله على النهوض، وابتعد ببطء، وهو يقوده من الإباض.

السرجنت مالك الحيدري رافقه بالنظر إلى أن توارى عن البصر، في متاهات السراديب التي تركتها الكثبان فيما بينها جنوب طريق العربات، ثم عاد متفكراً إلى المهجع الرئيسي.

9

ينام الكابتن غالب الفاسي دائماً إلى أن تبدأ الشمس بإحماء سطح مهجعه، إذ تكون الساعة حينئذٍ قد تجاوزت التاسعة صباحاً. رغم أنه أمر بإقامته في نقطة أورف بين النخيل، موغلاً تحت الظل حتى أنه مراراً ما توقظه بهلع ضربات حبات التمر على الصفائح المعدنية.

في هذه الساعة كان يتلو صلواته على مسافة مترين من الباب ويغطس في منهل أكبر الآبار، حيث جاء السرجنت مالك ليقدم له تقريراً عن الوقائع، وفي الحقيقة نادراً ما يكون ثمة أحداث للإبلاغ عنها.

في ذاك الصباح، مع ذلك، بدا تابعه تائقاً للكلام، مدفوعاً بحماسة قلما اعتاد عليها عنده.

ـ هذا الطارقي ذهب ليبحث عن «القافلة العظمى» ـ قال.

راقبه للحظات منتظراً أن يضيف شيئاً آخر على كلامه، وبما أنه لم يضف شيئاً، سأله مستفسراً:

ـ و...؟

ـ طلبت مرافقته، لكنه رفض.

ـ ليس مجنوناً إذاً كما يمكن التفكير. منذ متى تهتم «بالقافلة العظمى»؟

ـ منذ أن استمعت للحديث عنها. يقولون بأنها كانت تحمل بضائع بقيمة تفوق عشرة ملايين فرنك في ذلك الحين. هذا العاج وهذه المجوهرات تساوي اليوم ثلاثة أضعاف.

ـ كُثر هم الذين ماتوا وراء هذا الحلم.

ـ كلهم مغامرون، لم يقوموا برحلة استكشافية بشكل ٍعلمي بالوسائل الضرورية والمناسبة ومع سند «لوجيستيك».

وجّه الكابتن غالب الفاسي إليه نظرة مديدة متوخياً أن تكون جدية ِوتوبيخية:

ـ أأنت تلمِّح لي بأن أوظف مواداً ورجالاً من الجيش في البحث عن هذه القافلة؟ ـ سأل متصنعاً المفاجأة.

ـ لِمَ لا؟ ـ كان الجواب الصادق ـ غالباً ما ترسلنا لتحقيق رحلات استكشافية بلا طائل للبحث عن آبار جديدة، حجارة لا قيمة لها، أو إحصاء القبائل. في إحدى المرات جعلنا المهندسون ندور ستة أشهر محاولين إيجاد البترول.

ـ ووجدوه.

ـ نعم، لكن... ما الذي جاءنا منه؟ إنهاك، كدر، تبرّم في الفصيلة وثلاثة رجال طاروا شظايا في «جيب» محمّل بالديناميت

ـ كانت أوامر عليا.

ـ اعلم. لكن لديك ما يكفي من السلطة كي ترسلني في أي مهمة؛ مثلاً تمارين في البقاء على قيد الحياة في «أراضي الخواء». تصور أن نعود بثروة؟ نصفها للجيش؛ والنصف الآخر لنا وللفصيل. ألا تعتقد بأنه توزيع عادل ويسيل له لعاب بعض الجنرالات؟

لم يجب رئيسه لحظتها. غمر رأسه في الماء ومكث هكذا للحظات، ربما مفكراً. عندما رفعه من جديد، أشار دون النظر إليه:

ـ يمكنني زجك في السجن لاقتراحك هذا.

ـ وما الذي تناله من ذلك؟ وفي النهاية، ما الفارق أن أكون في السجن أو هنا خارجه؟ قليل من القيظ زيادة، هذا كل شيء. أقل قيظاً من «أرض الخواء» بالطبع.

ـ أنت يائس إلى هذا الحد؟

ـ مثل حضرتك. إذا لم نفعل شيئاً لن نخرج من هنا أبداً، وأنت تعلم. في أي يوم يأتي شخص ما من أولاد القحبة هؤلاء يحمل «الكافارد» ويخرّمنا بالطلقات.

ـ حتى الآن عرفنا كيف نسيطر عليهم.

ـ مع كثير من الحظ ـ اعترف الرجل الضئيل ـ لكن إلى متى يدوم لنا الحظ؟ قريباً نصبح عجزة، نفقد طاقتنا ويفترسوننا.

الكابتن غالب الفاسي، القائد الأعلى للموقع العسكري الضائع في «عدوراس»، «أست الشيطان» كما يطلقون على المكان في الجيش، أمالَ رأسه إلى الخلف وتأمل طويلاً أشجار النخيل التي لم تفلح أي نسمة في تحريكها، والسماء بزرقة بيضاء تقريباً، تكلم العيون لمجرد النظر إليها فحسب.

فكّر في عائلته؛ في زوجته التي طلبت منه الطلاق بسبب عقوبته؛ في أبنائه الذين لم يكتبوا له قط؛ في أصدقائه ورفاقه الذين محوا اسمه من ذاكرتهم رغم أنهم خلال سنين أغدقوا عليه بالثناء لروعته، وفي تلك العصابة من اللصوص، المجرمين والمدمنين على المخدرات الذين يحقدون عليه حتى الموت، وعند أقل غفلة يطعنونه بحربة في ظهره أو يضعون قنبلة يدوية تحت سريره.

ـ ماذا ستحتاج؟ سأل دون أن يلتفت إليه ساعياً ألا يكون صوته ينمُّ عن أي التزام.

ـ شاحنة، «جيب»، وخمسة رجال. سآخذ أيضاً مبارك بن سعد، الدليل الطارقي. وسأحتاج جمالاً.

ـ كم من الوقت؟

ـ أربعة شهور. لكن سنبقى على اتصال بوساطة الراديو مرة في الأسبوع.

الآن نظر إليه مواجهة.

ـ لا أستطيع أن أجبر أحداً على مرافقتك. إذا لم ترجع وشاع خبر ذلك يقطعون رأسي.

ـ أعرف من سيذهب معي عن طيب خاطر ومن دون أي تعليق. يجب على الباقين ألا يعلموا شيئاً.

خرج الكابتن من الماء ببطء، ارتدى بنطلوناً قصيراً وواسعاً، احتذى «النايلس» تاركاً الهواء الساخن يجفف الماء عن جسده، وهزَّ رأسه غير مصدق:

ـ أعتقد أنك مجنون مثل ذاك الطارقي ـ أوضح ـ لكن ربما معك الحق، وسيكون ذلك أفضل من أن تستمر هنا منتظراً الموت ـ استراح ـ علينا أن نجد عذراً منطقياً لرحلة طويلة كهذه ـ ابتسم ـ فيما إذا لم تعد.

ابتسم مالك راضياً عن نجاحه، رغم أنه كان يعلم من اللحظة الأولى بأنه الغالب. لقد انكبَّ منذ أن توارى الطارقي في الصباح الباكر عن النظر، بين الكثبان، على إنضاج الشكل الذي سيطرح فيه خطته، وكلما أمعن به تأكد أكثر بأنه سيحصل على إذن.

شرعا بالمسير معاً صوب عنبر المكتب، وبابتسامة خفيفة أشار:

ـ كنت قد فكرت في ذلك ـ توقف الآخر ناظراً إليه ـ عبيد.

ـ عبيد...؟

ـ ذلك الطارقي الذي رحل هذا الصباح يمكنه أن يكون قد أخبرني أن لديه أخباراً عن قوافل عبيد تتوغل داخل حدودنا. تهريبهم يتزايد من جديد بقدر ينذر بالخطر.

ـ أعلم. لكنهم يتجهون إلى البحر الأحمر وإلى بلدان مازالت تتقبل العبيد.

ـ صحيح ـ اعترف مالك ـ لكن من يمنعنا من محاولة التحقق من وشاية، ونعترف فيما بعد بأنه كان إنذاراً زائفاً؟ ـ ابتسم بتهكّم ـ بالأحرى عليهم أن يهنئوننا على الغيرة وروح التضحية.

دخلا المكتب الذي لم يكن أكثر من مكان واسع بطاولتين وقد أصبح حاراً في مثل هذه الساعة من الصباح، وذهب الكابتن ليقف أمام خريطة كبيرة للمنطقة التي كانت تحتل الحائط الذي في العمق بكامله.

ـ أسأل نفسي أحياناً كيف بحق الشيطان ألقوا القبض عليك وأدخلوك في هذا الجحر وأنت بهذا المكر. أين تفكّر بالبحث؟

أشار مالك متيقناً إلى بقعة صفراء شاسعة وفي مركزها تبدو فسحة بيضاء تماماً، دون أي أثر درب للجمال، بئر أو مكان مأهول.

ـ هنا، في المركز ذاته لتيك ـ دابرا. من المنطقي أن القافلة سلكت الطريق الذي تركوا فيه تيك ـ دابرا إلى جهة الشمال، لتجنبها. لكن إذا انحرفوا وتوغلوا بين الكثبان عليهم أن يصلوا إلى هذه المنطقة من «أرض الخواء»، وسيكون قد فات الأوان للعودة إلى الوراء. لن يبقى لديهم حيلة سوى محاولة الوصول إلى آبار «مولاي الأكبر»، ولم يصلوا.

ـ ليست أكثر من نظرية. يمكنهم أن يكونوا هناك، كما في أي مكان آخر.

ـ ربما. لكنهم ليسوا في أي مكان آخر ـ لفت انتباهه ـ تقفُّوا أثرهم خلال سنوات في المنطقة جنوب تيك ـ دابرا. وفي الشرق، وفي الغرب. لكن ما من أحد تجاسر قط على تيك ـ دابرا ذاتها. أو على الأقل الذين تجاسروا لم يرجعوا أبداً.

حسب الكابتن بالنظر:

ـ أكثر من خمسمئة كيلومتر طولاً وثلاثمئة كيلومتر عرضاً من الكثبان والسهوب. سيكون لديك إمكانية أكبر بأن تجد برغوثاً أبيض في قطيع من المهاري.

الجواب كان مقتضباً:

ـ لدي أحد عشر عاماً للبحث.

جلس الكابتن على أريكته الرثة والمنجّدة بجلد الغزال، تناول سيجارة، أشعلها بتؤدة وأمعن بدقة في خريطة يحفظها عن ظهر قلب، حيث كانت هناك مغروسة في اليوم الذي وصل فيه إلى الموقع. عرف الصحراء، ويعرف تماماً ما الذي يعنيه التوغل في «العِرق» كالذي في تيك ـ دابرا، المكوَّن من كثبان مرتفعة جداً والممتدة كبحر بأمواج هائلة كأنها تحميه، كشرك من الرمل المتحرك الذي يغرق فيه رجال وجمال حتى الصدر أحياناً، في سهب شاسع بلا آفاق، مستوياً كأكثر الطاولات استواءً، والشمس فيه تقذف انعكاسات متواصلة تبهر النظر وتعسّره، قاطعة النَفَس، جاعلة الدم يغلي في عروق الناس والبهائم.

ـ ما من عظاءة تستطيع البقاء على قيد الحياة هناك ـ غمغم أخيراً ـ إذا ما رافقك أحد، فيجب أن يكون لديه «الكافارد» وتكون قد صنعت لي معروفاً بإنزاله عن كاهلي. فتح خزنة صغيرة مثبتة إلى الأرض ومخبأة تحت بعض الألواح إلى جانب طاولته ذاتها؛ عدَّ النقود التي فيها ونفى بإيماءة ـ عليك أن تصادر الجمال من قبائل البدو ـ أشار ـ ليس لدي نقود ولا تستطيع أخذ ما لدينا.

ـ سيساعدني مبارك في الحصول عليهم ـ اتجه صوب الباب ـ إذا أذنت لي سأتكلم مع رجالي.

ردَّ على تحيته بإيماءة، أغلق من جديد الخزنة ومكث هادئاً جداً، رجلاه فوق الطاولة، متأملاً الخريطة. ابتسم ابتسامة خفيفة، شاعراً بالرضى عن قبوله الاقتراح. إذا ساءت الأمور سيخسر ستة

رجال ودليلاً طارقياً، بالإضافة إلى سيارتين. لكن لن يطالبه أحد بشيء كان إلى حدٍ ما عادياً في تلك الامتدادات الشاسعة. كثيرة هي الدوريات التي اختفت إلى الأبد، حيث يكفي خطأ صغير من الدليل، عطب في "المَوتور"، أو كسر فيٍ المحور، لكي يتحول تجوال روتيني بسيط إلى كارثة من دون حلٍ ممكن. حتى إنه بالإضافة إليهما، أرسلوا إلى «عدوراس» كل حثالات الثُكنات والسجون في البلاد. بمنطق سديد، ما من أحد من رجاله يجب أن يعود حيّاً إلى المدنيَّة لأن المجتمع لا يريدهم في كنفه، وقد رفضهم إلى الأبد. لا أحد يبالي بالتالي، إذا ما طعنوا بعضهم، إذا ما أخذتهم الحمَّى، إذا ما تاهوا خلال دورية روتينية، أو إذا ما اختفوا خلال البحث عن كنز أسطوري.

«القافلة العظمى» كانت هناك، في مكان ما صوب الجنوب، وعلى هذا كان يتفق الجميع، حيث لا يمكن أن تكون قد تبخرت، والأثمن في حمولتها يتحمل دون تلف تعاقب السنين، وحتى القرون. وبجزء ضئيل من هذه الحمولة، الكابتن غالب الفاسي يمكنه أن يغادر «عدوراس» إلى الأبد ويقيم من جديد في فرنسا، في «كان» تلك وفي فندق «ماجستيك» حيث قضى أروع مراحل حياته، برفقة مستخدمة جميلة في أحد المتاجر في شارع «دو أنتيب» التي لا بد أنها انتظرت خلال سنين أن يفي في أحد الأيام بوعده، ويعود ليبحث عنها. كانا بعد ظهر كل يوم يفتحان النوافذ الكبيرة المطلة على المسبح وعلى الشاطئ، ويتضاجعان ووجههما إلى البحر حتى حلول الظلام، ليذهبا بعدها إلى العشاء في «Lemoulin de mougens»، «El Oasis» أو «Chez Felix» ويختمان الليل في الكازينو مجازفين بكل شيء على الرقم ثمانية.

كان ثمناً باهظاً هذا الذي يدفعه لتلك الأيام، ثمناً باهظاً جداً حسب وجهة نظره، والأسوأ ليس أن يكون في الصحراء بحد ذاتها، مع قيظها وروتينها، إنما في عالم الذكريات. وفي القناعة الأكيدة بأنه إذا ما تمكن في يوم ما من الخروج حيّاً من «عدوراس»، فلن

تتسنى له الشروط للاستمتاع من جديد بفنادق ومطاعم أو فتيات «كان».

مكث غارقاً في ذكرياته، سامحاً للعرق بالانسكاب على جسده كله، والذي يزداد كلما تمكن القيظ الذي لفرنٍ أن يسيطر على الموقع، منتظراً وصول طلبه بإحضار طبق كل يوم من «الكُسكُسْ» الدسم والمقرف الذي يلتهمه دون جوع، ويرافقه بجرعات صغيرة من الماء الفاتر، العكر والمالح قليلاً الذي لم يستطع الاعتياد عليه حتى الآن، مسبباً له الإسهال، رغم السنين التي عبرت.

ثم حين سقط وهج الشمس كالرصاص عمودياً وخانقاً إلى درجة أن الذباب لا يقوى على رفع جناحيه للطيران، عبر بتؤدة أشجار النخيل المنعزلة ملتجئاً إلى مهجعه من جديد، تاركاً الآن الأبواب والنوافذ مشرعة على مصاريعها، محاولاً قنص أي نفحة ضئيلة من الهواء.

كانت تلك ساعة القيلولة المقدسة في الصحراء، حيث خلال الساعات الأربع من قيظ الهاجرة الشديد، على الرجال ـ وحتى على البهائم ـ أن يمكثوا جامدين في الظل إذا ما أرادوا تجنب الخطر من التجفاف، أو أن يقعوا مصعوقين بضربة شمس.

الجنود نائمون في مهاجعهم، وخفير فقط بقي منتصباً محميّاً بمظلة معاركاً بكل قواه ـ مراراً بلا طائل ـ كي يتمكن من المحافظة على عينيه بنصف إغماضة حتى لا يغفو تماماً، وهي كافية كي لا يصاب بالعمى المؤقت بسبب انعكاسات وهج الشمس على الكثبان البيض.

كان يمكن الاعتقاد، ساعة بعد ذلك، أن الموقع العسكري في «عدوراس» ميْت. «الترمومتر» في الظل، ففي الشمس من المحتمل أن ينفجر، كان يقترب بخطورة من خط الخمسين درجة مئوية، وسعف النخيل ساكنة بلا حراك لفقدان أي نسمة والتي تجعل المرء يفكر بأنها ليست حقيقية إنما مرسومة في السماء فحسب.

الرجال يشخرون بفم مفتوح ووجوههم مغطاة بالعرق وَاهنين

ومحطمين كدمى بلا حياة، وقد جثم عليهم القيظ، غير قادرين على كشِّ الذباب الذي حطَّ على اللسان بحثاً عن رطوبة خفيفة. حلم أحدهم بصوت مرتفع، بما يشبه النحيب، واستيقظ عريف بقفزة وعيون جاحظة من الرعب، مكث لبضع ثوان خائفاً من الاختناق لأن الهواء لم يصل إلى رئتيه.

بدا دهمائياً كهيكل عظمي، ناعساً في ركنه، راقبه محدقاً به حتى هدأ من جديد وأغلق بدوره عينيه، لكنه بقي متيقظاً وعقله متهيج وقلق منذ ذات اللحظة التي اعترف له السرجنت ماجور بسريّةٍ أنه خلال أربعة أيام سيشرعون بالمغامرة المجنونة، التوغل في الأراضي الأكثر قفراً بحثاً عن قافلة ضائعة.

من المحتمل ألا يعودوا أحياء أبداً، لكن هذا أفضل من متابعة العراك مع الرمال يوماً بعد يوم، حتى اللحظة التي يعاركون فيها الرمال فوق أجسادهم نفسها.

كان الكابتن غالب الفاسي يشخر برخاوة في مهجعه أيضاً، حالماً ربما بالقافلة الضائعة وثروتها، وكان نومه من العمق بحيث أنه لم يتنبّه للظل الطويل الذي ارتسم للحظة في فراغ الباب متسللاً بعد ذلك، من دون أي همسة، حتى سريره، تاركاً إلى جانبه بندقية عتيقة وثقيلة مستندة إلى الحائط، ذكرى من مرحلة تمرد السنوسيين على الفرنسيين والإيطاليين، وأخرج خنجراً طويلاً ومسنوناً وغرز رأسه ببطء تحت ذقنه.

جلس غزال صياح على حافة السرير وضغط السلاح بخفة بينما يده تمسك بقوة على فم النائم. امتدت يمين الكابتن آلياً صوب المسدس الذي يتركه دائماً على الأرض إلى جانب الوسادة، لكن الطارقي أقصاه بقدمه بخفة في الوقت الذي انحنى أكثر فوقه:

همس بصوت أجش:

- صرخة واحدة وأذبحك. فهمت؟

تريث إلى أن يشير بعينيه بأنه قد فهم، ثم سمح له ببطء شديد أن يتنفس دون أن يتراخى ضغط الخنجر. خيط رفيع من الدم بدأ

بالانسياب على نحر الكابتن المذعور، وسرعان ما امتزج بعرقه المتصبب من صدره.

ـ هل تعلم من أكون؟

أومأ بالإيجاب.

ـ لماذا قتلت ضيفي؟

بلع لعابه. وأخيراً، بجهد وتقريباً بلا صوت، غمغم:

ـ كانت أوامر. أوامر صارمة جداً. الشاب يجب أن يموت. الآخر لا.

ـ لماذا؟

ـ لا أعلم.

انغرز رأس الخنجر بقوة أكبر.

ـ لماذا؟ ألحَّ الطارقي.

ـ لا أعلم، أقسم لك ـ كان ينشج تقريباً ـ يعطونني أمراً وعليَّ الطاعة. لست في ظروف أستطيع رفضها.

ـ من أعطاك هذا الأمر؟

ـ محافظ المنطقة.

ـ ما هو اسمه؟

ـ حسّان بن كوفرا.

ـ أين يعيش؟

ـ في العقب.

ـ والآخر... العجوز؟ أين هو؟

ـ كيف تريدني أن أعرف؟ أخذوه، هذا كل شيء.

ـ لماذا؟

لم يجب الكابتن غالب الفاسي. ربما أدرك بأنه قال الكثير؛ ربما تعب من اللعبة؛ وربما، حقيقة لا يعرف الجواب الدقيق. بحث

بيأس عن شكل يعتقه من الدخيل الذي قرأ في عينيه تصميماً عميقاً، ثم سأل نفسه ما الذي يفعله رجالي بحق الشيطان، كي لا يأتون لإغاثتي.

فقد الطارقي صبره. غرز رأس الخنجر بعمق أكثر، وقبض بيده اليسرى على عنقه، كاظماً صرخة من الألم سعت للهروب.

ـ من هو العجوز؟ ـ ألحَّ ـ لماذا أخذوه؟

ـ إنه عبد الكبير.

قالها بنبرةٍ من شرحَ كل شيء، لكنه أدرك أن الاسم لم يكن يعني شيئاً للدخيل، الذي استمر مترقباً، منتظراً تفسيراً:

ـ ألا تعلم من هو عبد الكبير؟

ـ لم أسمع به قط.

ـ هو مجرم. مجرم قذر، وأنت تخاطر بحياتك لأجله.

ـ كان ضيفي.

ـ هذا لا يمنعه من كونه مجرماً.

ـ وإن كان مجرماً لا يمنع من أن يكون ضيفي. أنا فقط من يقضي بذلك.

قام بحركة من رسغه قاطعاً الوريد بضربة واحدة.

تأمل احتضاره السريع، نظف يديه بالملاءة الوسخة، رفع المسدس والبندقية واقترب من الباب، حيث راقب الخارج.

تابع الخفير نومه كما كان عند مجيئه، وما من نسمة ريح، ما من نفحة حياة تحرك سعف النخيل.

انسل من جذع إلى جذع، إلى أن وصل الكثبان التي ارتقاها بمهارة.

خمس دقائق بعدها اختفى وكأن الرمال ابتلعته.

10

اكتشف مساعد الكابتن الجُثّة عند هبوط المساء.

صراخه، الهستيري تقريباً، انتشر في الواحة وجعل الرجال يلقون مجارفهم على الأرض ويركضون إلى المهجع الصغير متزاحمين فيه، وكان على السرجنت ماجور أن يطردهم دافعاً إياهم إلى الخارج.

جلس أخيراً على كرسي صغير عندما أصبح وحيداً أمام الجثة وبركة الدماء التي غطاها الذباب، لاعناً حظه. ابن الكلبة الذي فعل ذلك ألَمْ يستطع الانتظار أربعة أيام.

لم يشعر بأي حزن؛ ولا ببارقة صغيرة من الرأفة لابن الكلبة الآخر ذاك، والأكثر ابن كلبة من الجميع، الذي يجثم متمدداً أمامه، رغم مقاسمته كل هذه السنين من العيش في الجحيم، وكان الوحيد الذي احتفظ معه ببعض المحادثات الجديّة جزئياً خلال هذا الزمن. يعرف تمام المعرفة أن الكابتن غالب الفاسي يستحق الموت، أي نوع من الموت وفي أي مكان في العالم، لكن لم يكن يتمناه هنا وفي هذا التاريخ بالذات.

الآن سيرسلون قائداً جديداً، لا أحسن ولا أسوأ، لكنه ببساطة مختلف وستمضي سنين ربما قبل أن يتعرف عليه بعمق، يعثر على نقاط ضعفه كي يحرز التحكم به كما وصل إلى التحكم بالمرحوم. كانت تقلقه أيضاً الإجراءات المعقدة للجنة التحري، حيث حتى هو

نفسه، الذي يعرفه أكثر من الجميع، يشعر بأنه غير قادر على الإشارة إلى المجرم من بين تلك العصابة من المجرمين، الذين ينتظرون، ويعلقون مثارين بالحدث، على بعد خمسة أمتار من الباب.

رغب في اتهامهم جميعاً، وسرعان ما أدرك أنه هو نفسه يمكن أن يكون مشكوكاً في أمره، مادامت له الأسباب ذاتها كأي واحد آخر منهم ليتمنى له الموت، لرجل جعل حياتهم مستحيلة منذ أن خدموا تحت إمرته.

عليه أن يجد المتهم الحقيقي قبل مجيء أحد، وتقديم القضية محلولة إذا ما أراد تجنب المشاكل. أغمض عينيه وطاف ذهنياً وجه كل واحد من رجاله، باحثاً عن مُشتبه به، وفي النهاية لاحظ بأن مشاعر الإحباط العميقة تجتاحه. فلم يبلغوا الدزينة أولئك الذين شعر بأنه قادر على استبعادهم كأبرياء محتملين. أيّ من البقية يرتاده الإحساس العميق بالمتعة ساعة تبتر فيها رقبة قائده.

ـ مُولّا ـ غوَى.

دخل رجل قوي، جسيم ومتجهم فوراً ومكث جامداً بلا حراك شاحباً ممتقع الوجه ومرتجفاً تقريباً إلى جانب مفصلة الباب.

ـ أمرك سيدي السرجنت، تلعثم بجهد.

ـ أنت كنت خفيراً، أليس كذلك؟

ـ نعم، سيدي السرجنت.

ـ ولم تر أحداً؟

ـ أعتقد أنني غفوت في لحظة ما سيدي السرجنت ـ انتحب العملاق تقريباً ـ من يمكنه أن يتخيل هذا، في وضح النهار...؟

ـ أنت لا، بالطبع. والاحتمال الأكبر أن يودي بك هذا أخيراً إلى فصيل الإعدام. أنت المسؤول إذا لم يظهر الفاعل.

بلع الآخر لعابه، تنفس بصعوبة وقدم يديه بشكل يوحي بالتضرع:

ـ لكني لست الفاعل سيدي السرجنت. لماذا أفعله؟ خلال أربعة أيام كنا سنقوم بالبحث عن تلك القافلة.

ـ إذا عدت لذكر القافلة سأعمل أنا شخصياً لإعدامك. وسأنفي بأنني تكلمت معك عنها قط. ولتكن كلمتي ضد كلمتك.

ـ فهمت سيدي السرجنت ـ اعتذر مُوْلًا ـ لن أعيد ذكرها. فقط أريدك أن تفهم بأنني من القليلين الذين يريدون أن يبقى حيّاً.

وقف السرجنت ماجور مالك الحيدري منتصباً، التقط عن الطاولة علبة سجائر المرحوم وأشعل واحدة بولاعة ثقيلة من الفضة ووضعها بكل هدوء في جيبه.

ـ أفهمك ـ اعترف ـ أفهمك جيداً جداً، لكن أفهم أيضاً أنك كنت خفيراً، وأنت تعلم أن من واجبك أن تطلق النار على كل من يقترب من ذلك المهجع. اللعنة! أقسم لك إذا اكتشفت الفاعل سأسلخه حيّاً!

ألقى نظرة أخيرة على الجثمان، خرج وتوقف في ظل السقيفة حيث تصفّح وجوه الحاضرين واحداً واحداً. كانوا جميعهم هناك.

ـ اسمعوني جيداً ـ قال ـ علينا أن نحلَّ هذه القضية فيما بيننا، إذا كنا لا نريد أن يرسلوننا إلى سلسلة من الضباط الذين يعقّدون حياتنا أكثر مما هي عليه. مُوْلاً كان خفيراً، لكني أعتقد بأنه بريء، الآخرون يُفترض أنهم كانوا نائمين في المهجع.

مَنْ لم يكن هناك. ولماذا؟ حدَج الجنود بعضهم البعض كأن كل واحد منهم يشك في الآخر، مدركين خطورة المشكلة وخائفين من إمكانية مجيء لجنة للتحرّي.

أخيراً أشار عريف أول بوجلٍ.

ـ لا أتذكر أنه تغيب أحد، سرجنت. القيظ كان لا يُحتمل، سيكون من الغرابة إذا ما بقي أحد ما في الخارج في يوم كهذا.

همهمات من الموافقة الجماعية.

فكّر السرجنت للحظات:

ـ من خرج لقضاء حاجة؟

ثلاثة رجال رفعوا أيديهم. واحد منهم احتجَّ:

ـ أنا لم أمكث دقيقتين حتى. هذا رآني وأنا رأيته. ملتفتاً إلى الثالث.

ـ وأنت هل رآك أحد؟

الدهمائي النحيل شقَّ طريقه في العمق.

ـ أنا. ذهب حتى الكثبان وعاد دون أن يحيد عن طريقه. رأيت هذين الإثنين أيضاً... لم أنم وأستطيع التأكيد سرجنت أنه ما من أحد غادر المهجع أكثر من ثلاث دقائق. الوحيد الذي كان في الخارج هو مُوْلاً ـ توقف لحظة ثم أضاف، وكأن ليس للأمر أهمية ـ وحضرتكم، بالطبع.

تململ السرجنت ماجور متكدراً، ولأعشار من الثانية فقد رباطة جأشه وشعر بعرق بارد ينساب من ظهره. التفت إلى مُوْلًا الذي بقي ساكناً إلى جانب الباب وحدَجه بنظرة صاعقة.

ـ إذا لم يكن أحد منهم الفاعل، ولست أنا كذلك، وما من أحد على مسافة مئة كيلومتر من محيطنا، يبدو لي أنه عليك أن... ـ توقف بغتة، إذ أن ضوءاً التمع في دماغه، وقذف بشتيمة كانت في الوقت ذاته صرخة من الفرح: الطارقي! بحق جميع الشياطين... الطارقي! أيها العريف!

ـ قل لي سيدي السرجنت.

ـ ما الذي حدثتني به عن طارقي لم يكن يريد أن تدخلوا إلى مضربه؟ تتذكر هيئته؟

رفع العريف منكبيه بحركة من الارتياب:

ـ الطوارق كلهم متشابهون عندما يضعون اللثام، سيدي السرجنت.

ـ لكن يمكن أن يكون الذي خيّم هنا في الأمس؟

كان الدهمائي بهيكله العظمي الذي أجاب عنه.

ـ يمكنه أن يكون هو، سرجنت. أنا أيضاً كنت هناك. كان طويلاً، نحيلاً بـ«غندورة» زرقاء من دون أكمام، فوق أخرى بيضاء وكيس صغير أو تميمة من الجلد الأحمر معلقة في رقبته.

أوقفه السرجنت بإيماءة، وأطلق تنهيدة فَرَج هربت من أعماق أعماقه.

ـ إنه هو لا مجال للشك ـ قال ـ ابن الكلبة يملك الجرأة للدخول إلى هنا وينحر الكابتن تحت أنوفنا. أيها العريف! اغلق على مُوْلًا. إذا هرب سأرسلك للإعدام. ثم اتصل لي مع العاصمة. علي!

ـ تحت أمرك سيدي السرجنت ـ قال الدهمائي.

ـ جهّز جميع العربات... مؤونة كاملة من الماء، الوقود، الزاد. سنجد هذا الخنزير ولو اختبأ في الجحيم ذاته.

نصف ساعة بعد ذلك كان الموقع العسكري في «عدوراس» يضج بحيوية لم تحدث منذ زمن تأسيسه، أو منذ كانت القوافل الكبيرة ترتاح هناك قادمة من الجنوب.

11

لم يتوقف طوال الليل، قائداً مطيته من إباضها، مُضاء بقمرٍ وجلٍ وملايين النجوم التي تسمح له بتبينٌ جوانب الكثبان والتواءات الخطى بينها: «الغزي»، دروب متقلبة الأهواء خطتها الريح، لكنها تنهدم فجأة بين الحين والآخر مجبرة إياه بعدئذٍ على البدء بالصعود العسير فوق الرمال الطرية. يسقط لاهثاً وشاداً إباض المهري الذي يحتج مغتاظاً لجهدٍ كهذا يبذله في مسيرة وعثاء لبضع ساعات، ومن المنطقي أن يتبع ذلك استراحة ومرعى هادئ في السهوب.

لكن الاستراحة لم تكن أكثر من بضع دقائق حينما بلغا أخيراً «العِرق» الذي انفتح أمامهما مديداً ولانهائياً. سهل لا آفاق له مكوَّن من آلاف الملايين من الحجارة السوداء شدختها الشمس، ورمل شديد الخشونة كالحصى، لم تستطع الريح جرفه أبعد حينما تنفخ مجنونة أثناء العواصف الهائجة.

غزال يعرف أنه لن يجد الآن في طريقه بَلّاناً ولا «غرارا»، حتى ولا مضجعاً جافاً لنهر قديم، صادف الكثير منها حينما كان يجوب «الحمادة»، والمنخفض الناتج عن فسحة من الأرض المالحة بحوافه المنحدرة فحسب ربما يجعل المشهد الرتيب مختلفاً، والفارس فيه يبدو جلياً كراية حمراء تخفق عالياً فوق مكنسة.

لكن غزال يعرف أيضاً أنه ما من جمل يستطيع أن يضاهي مهريه في أرض كهذه، بصخورها اللانهائية الحادة والقاطعة التي

يبلغ ارتفاعها نصف متر، وتكوِّن بالإضافة إلى ذلك عائقاً لا يمكن اجتيازه للعربات الميكانيكية.

وإذا لم يخطئ ظنه فإن الجنود سيخرجون للبحث عنه في «جيب» أو شاحنات، فهم ليسوا أناساً من الصحراء ولم يعتادوا على المسير الطويل، أو على التأرجح على متن جمل خلال سفرة كاملة.

فاجأه الفجر بعيداً جداً عن الكثبان التي لم تكن أكثر من خط خفيف وملتوٍ في الأفق، وقدّر أن الجنود قد بدؤوا بالتحرك في هذه اللحظات. سيتأخرون ساعتين على الأقل في اجتياز الأثر الذي تركه في الرمل حتى الخروج إلى السهل. في أقصى الشرق من النقطة المتواجد فيها الآن، حتى لو افترض أن إحدى العربات ستسير مباشرة صوب «العرق» فلن يصلوا حافته حتى الضحى، حينما تكون الشمس مرتفعة جداً. ويمنحه هذا مجالاً واسعاً من الأمان، لذا ترجل وأشعل ناراً خفيفة وشوى عليها البقايا الأخيرة من الغزال، الذي بدأ النتن يدب فيها. أقام صلاته الصباحية متوجهاً صوب مكة، صوب الشرق، حيث سيأتي أعداؤه، وبعد أن غمر جيداً بالرمل بقايا النار أكل بشهية، أمسك بإباض مطيته، وشرع بالمسير عندما بدأت الشمس تدفئ ظهره.

اتجه إلى الغرب بخط مستقيم، مبتعداً عن «عدوراس» وعن كل الأراضي التي يعرفها؛ مبتعداً أيضاً عن «العقب» التي تركها في الشمال، وعن يمينه الذي قرر بأنها ستكون هدفه القادم. غزال طارقي، رجل من الصحراء، الزمن، الساعات، الأيام وحتى الشهور بالنسبة له تفتقر إلى الأهمية. يعرف أن «العقب» كانت دائماً هناك، منذ مئات السنين، وهناك ستبقى إلى أن تُمحى ذكراه وحتى ذكرى أحفاده عن وجه الصحراء. سيكون لديه متسع من الوقت ليعود بخطاه، عندما الجنود، وهم دائماً يفتقرون إلى الصبر، يتعبون من البحث عنه.

ـ الغضب الآن يترع قلوبهم ـ قال لنفسه ـ لكن خلال شهر لن يتذكروا حتى وجودي.

توقف عند الظهيرة تقريباً مجبراً المهري على الاستناخة في منخفض ضحل، والذي أحاطه بحجارة فيما بعد. غرز في الأرض السيف والبندقية ومدد غطاء فوقهما، يصلح كسقف يمنحه الظل الضروري جداً في مثل هذه الساعة، وقبع تحته. نام بعد دقيقة، وما من أحد يستطيع اكتشافه على مسافة أقل من مئتي متر.

أيقظته الشمس التي انداحت على وجهه مائلة للغروب، ولمح من بين الصخور عموداً ضئيلاً من الغبار ارتفع في السماء خلف عربة تتقدم ببطء شديد على حافة السهل، كأنها تخاف فقدان حماية الكثبان بتوغلها في القفر المديد «للعرق».

أوقف السرجنت ماجور مالك العربة. قطع الاتصال وجال ببصره بلا عجل السهل الذي لا ينتهي، وكأن يداً عملاقة تسلّت بزرع صخور سوداء حادة تهدد بتقطيع العجلات إرباً، أو انفجار صندوق المحرك عند أي غفلة صغيرة.

ـ أراهن على رأسي إذا لم يكن ابن القحبة هذا متوغلاً هناك ـ علق بينما يشعل سيجارة بإشحاح. ثم مدَّ يده دون أن ينظر إلى سماعة الراديو حيث وضعها الدهمائي علي: أيها العريف! ـ نادى ـ هل تسمعني؟

جاء الصوت قصيّاً.

ـ أسمعك سرجنت. هل وجدت شيئاً؟

ـ لا شيء. وأنت؟

ـ لا أثر.

ـ هل استطعتم الاتصال مع الماريك؟

ـ منذ قليل، سرجنت. لم ير شيئاً أيضاً. أرسلته للبحث عن مبارك، إذا حالفه الحظ يمكنه الوصول إلى مضربه قبل حلول الظلام. سيتصل بي في السابعة.

ـ فهمت ـ أجاب ـ اتصل بي حينما تتكلم معه. حوّل.

أعاد السماعة، وقف فوق المقعد، تناول المنظار وطاف ببصره من جديد السهب الحصّي، ثم رماه أخيراً مغتاظاً. نزل على الأرض وبدأ يبول مديراً ظهره لرجاله الذين حذوا حذوه.

ـ أنا أيضاً كنت توغلت في هذا الجحيم ـ غمغم بصوت مرتفع ـ هناك أسرع حيث يمكن التقدم حتى في الليل، بينما نحن نبقى حتى الرمق الأخير في الطريق ـ أغلق فتحة السروال، استعاد السيجارة التي تركها فوق «الجيب» وسحب منها مجّة طويلة ـ لو على الأقل لدينا فكرة إلى أين اتجه...

ـ ربما عاد إلى بيته ـ أشار علي ـ لكنه في الاتجاه المعاكس، صوب الجنوب الشرقي.

ـ بيت! ـ صرخ ساخراً ـ متى رأيت واحداً من هؤلاء اللعينين «أبناء الريح» يملك بيتاً؟ أول ما يفعلونه عند أقل إشارة خطر هو تبديل مضربه وإرسال عائلته إلى أي مكان بعيد على مسافة ألف كيلومتر. كلا ـ نفى متيقناً ـ بالنسبة لهذا الطارقي فإن بيته الآن حيث يكون جمله، من ساحل الأطلنطي حتى ساحل البحر الأحمر. وهذه ميزة لصالحه علينا: لا يحتاج شيئاً ولا أحداً.

ـ ما الذي علينا فعله إذاً؟

تأمل الشمس التي صبغت السماء بالأحمر، والتي كانت على أهبة أن تتوارى بشكل كامل. حرك رأسه من جهة إلى أخرى متشائماً.

ـ لن نفعل شيئاً ـ أشار ـ أقيموا المضرب وحضروا العشاء. خفير دائم، والذي ينام سأرديه قتيلاً في مكانه. أهذا واضح؟

لم ينتظر الجواب. أخرج خريطة من الصندوق مددها فوق غطاء المحرك وبدأ يتمحصها بدقة. مدركاً أنه لا يستطيع الثقة بها. تُبدل الكثبان مكانها بشكل مستمر، والدروب تختفي تحت الرمال، والآبار تجف. يعرف أيضاً من تجربته الذاتية أن الذين رسموا مثل هذه الخرائط لم يتوغلوا في «العرق» لقياسه بدقة قط، مقتصرين على رسم أطرافه بشكل تقريبي دون أن يبالوا كثيراً إذا ما نقص مئة كيلومتر أو زاد.

وفي الحقيقة فإن هذه المئة كيلومتر يمكنها أن تشكِّل الفارق بين الحياة والموت، وبشكل خاص عندما ينكسر محور «الجيب» ويجب المتابعة سيراً على الأقدام.

تملكه للحظة إغراء قذف كل شيء إلى الشيطان وإصدار الأمر بالرجوع إلى الموقع، حيث أولاً وأخيراً، الكابتن غالب الفاسي يستحق ألف مرة النهاية التي لقيها. لو لم يعلم بأن الطارقي هو الفاعل، لاقتصر على إرسال تقرير، معتبراً القضية منتهية. لكنه شخصياً يشعر بالإهانة والسخرية؛ فقد استُخدِمَ من قبل رثٍ، من «ابن الريح» الذي عرف كيف يخدعه، والذي كان يضحك منه تحت اللثام القذر، بينما يحكي له كل تلك الحكاية العبثية عن «القافلة العظمى» وكنوزها. ساعده حتى في تمتين حمولة الجمل، تأمين الماء وتقديم كل شيء من أجل رحلة طويلة جداً، بينما في الحقيقة كان يخطط للاختباء خلف الكثبان الأولى والعودة في اليوم ذاته ـ ألقى نظرة جديدة على السهل الذي بدأ يتحول إلى بقعة رمادية لا رونق لها ـ إذا ما قبضت عليك ـ غمغم لنفسه ـ أقسم بأنني سأنزع عنك جلدك ضرباً بالسياط.

صلّى صلاة العصر، وضع على كتفه كيساً من الجلد تناول منه حفنة من التمر راح يأكلها ببطء بينما يشرع بالمسير دائماً صوب الغرب، متوغلاً في الظلال التي استحوذت الأرض لتوها، مدركاً أن

ذلك الليل الذي سيمشيه دون عجلٍ سيضع، بالإضافة إلى ذلك، مسافة لا يمكن التغلب عليها، بينه وبين مطارديه.

شرب الجمل حتى الارتواء في اليوم السابق، ولم يخضع بعد لمسير طويل وجهود كبيرة، ومازال قوياً وسميناً وحدبته ممتلئة ولامعة، مما يعني أنه مزود باحتياط كافٍ لأكثر من أسبوع على ذات الوتيرة. بهيمة كتلك يمكنها أن تفقد ببساطة أكثر من مئة كيلو من وزنها قبل أن تبدأ بالتردي.

بالنسبة له اعتاد ارتياد الصيد لمسافات طويلة، وذاك الهروب لم يكن أكثر من نزهة شبيهة بالكثير غيرها التي يتقفى فيها أثر طريدة جريحة أو قطيع شارد وفاتن. كان يركن إلى نفسه هناك متوحداً في الصحراء، لأنها الحياة التي كان يحبها حقيقة، مع أنه يتوق مراراً إلى عائلته، وفي الليالي أو في حر ما بعد الظهيرة يفتقد حضور ليلى، لكنه يعلم علم اليقين أنَّ بإمكانه الاستغناء عنهم كل الوقت الضروري؟ الوقت الذي يلزمه لتحقيق مهمته التي وضعها أمامه: الانتقام من الإهانة التي ألحقوها به.

أبدى امتنانه فيما بعد لبزوغ القمر الذي أضاء له الطريق، وعند منتصف الليل تبيّن في البعيد الانعكاس اللجيني للسبخة. بحيرة كبيرة مالحة انفتحت أمامه على مدّ البصر كبحر متصحِّر لم يستطع تبيِّن ضفته الأخرى.

انحرف نحو الشمال ملتفاً حولها، تاركاً مسافة معينة، لأن البعوض على ضفاف تلك البحيرات المستنقعية الموحلة يتكاثر بألوف الملايين مُشَكِّلاً سحابة حقيقية، حيث تحجب الشمس عند الحدور(*) والأصباح وتجعل الحياة مستحيلة لأي رجل أو بهيمة يقترب منها. غزالاً رأى بأم عينه جِمالاً مسّها الجنون من الألم عندما يدخل بعض البعوض العيون والفم فتدب هاربة مطلقة العنان

(*) الحدور: هو الوقت الذي يسبق الغروب. م.

لجموحها، رامية حمولتها أو فارسها، متوارية عن النظر كي لا تعود أبداً.

لذا فإن مواجهة حواف السبخات يجب أن يكون في وضح النهار، عندما تكون الشمس مرتفعة وتكوي أجنحة البعوض إذا ما تجاسرت على رفعها للطيران. عندئذٍ تقبع مختبئة خلال ساعات الصهد كأن لا وجود لها، كأنها لا تشكل العقاب الأكبر الذي يمكن أن يرسله الله لقاطني الصحراء المعاقبين أصلاً ألف مرة.

غزال لم يكن يعرف شخصياً تلك البحيرة المالحة، لكنه سمع الحديث عنها من مسافرين عدة، ولم يجد فارقاً كبيراً بينها وبين الكثيرات مثلها التي صادفها في حياته، سوى في حجمها ربما.

منذ أمدٍ بعيد حينما كانت الصحراء بحراً كبيراً ثم انحسر، بقي الماء محصوراً في منخفضات جمَّة كهذه، والتي جفّت ببطء شديد فيما بعد تاركة في العمق طبقة من الملح المتراكم تبلغ كثافتها في المركز مراراً بضعة أمتار. ليس من الغرابة أن يكون أحياناً ثمة رافد سفلي يغذِّيها بالماء المالح أيضاً عندما يهطل المطر، وبهذا الشكل تشكلت قرب الضفاف منطقة من الرمال الرطبة والمالحة واللزجة، تحرقها الشمس حتى تحولها إلى قشرة قاسية كطرف رغيف أخرج لتوه من الفرن. هذه القشرة تنطوي على خطر التصدع في أي لحظة ملقية المسافر في عجينة تذكر بالزبدة نصف الذائبة التي تبتلعه في دقائق قليلة، وهي أكثر خطراً حتى من «الفِشفِش» الغدّار. تلك الأرض الرملية بلا سند، ويمكن أن يختفي فيها بغتة رجل وجمل كأنهما لم يوجدا قط.

يخشى غزال «الفِشفِش» المباغت الذي لا يُخطر أبداً بوجوده، لكنه مُمتنٌّ على الأقل للسرعة التي يقضي فيها على ضحيته، بينما الرمال المتحركة على أطراف البحيرات المالحة تتسلى بقنيصتها كذبابة في العسل، تغرقها سنتيمتراً بعد سنتمتر دون أي إمكانية للهروب في أطول احتضار يمكن تصوره.

لذلك كله يتقدم الآن ببطء شديد صوب الشمال، ساعياً إلى الدوران حول ذاك الامتداد الأبيض الذي لا يبدو أن له حدوداً، مدركاً أن هذا سيكون عائقاً آخر وضعته الطبيعة بينه وبين مطارديه. السبخة تبتلع أية عربة تسعى للتوغل فيها.

ـ مات مبارك. بَقَرهُ ابن القحبة هذا بسيفه. يؤكد ألماريك أنها كانت مبارزة نظيفة، وآل «سال» ليسوا على استعداد لبدء حرب بين القبائل لأجله. بالنسبة إليهم القضية منتهية.

ـ لسوء الحظ نحن لا نستطيع أن نفعل الشيء ذاته. ابقوا على عيونكم مفتوحة حتى إشعار جديد.

ـ مفهوم سرجنت. حوِّل.

التفت مالك إلى الدهمائي.

ـ يجب أن أتكلم مع موقع «تيديكِنْ»، مع الملازم أول رازمان. أخبرني عندما تصل المكالمة.

ابتعد كي يتمشى وحيداً في الليل، متأملاً النجوم والقمر الذي يرسل انعكاسات ذهبية تنبثق من الكثبان العالية المنتصبة خلفه. أدرك، رغم الأيام التي تنتظره والتي لا يمكن نكرانها، بأنه يشعر بالسعادة لوجوده هنا، على حافة «العِرق»، ملتزماً بالمغامرة الصعبة في مطاردة رجل وهو من دون شك يعرف الصحراء أفضل بكثير مما يمكن له أن يعرفها في حياته، ويلعب كأرنبة تلعب مع جمل طامحاً في القبض عليها. لكن بشكل ما أو بآخر، كانت هذه: مطاردة، وهذا ما جعله يشعر من جديد بالانطلاق، بالنشاط من جديد، ربما بالشباب من جديد، مثل تلك الأزمنة التي كان يترصد فيها ضباطاً فرنسيين في زوايا «القصبة» كي يطعن بالمدية بطونهم ثم يتوارى بين ظلال ألوف الأزقة. أو عندما يرمي بقنبلة في داخل أحد مقاهي الحي الأوروبي في اليوم الذي أعلنوا فيه كفاحهم العلني، متيقنين أن الحرية كانت قريبة.

كانت تلك حياة بديعة، مثيرة وممتلئة، كم هي مختلفة عن رتابة الثُكنات التي جاءت مع الاستقلال، وكم هي مختلفة عن رعب المنفى في «عدوراس» وعراكه الأبدي وعديم الجدوى ضد اجتياح الرمال.

«أريد أن أقبض على هذا الطارقي القذر ـ قال لنفسه ـ أن أقبض عليه حيّاً كي أنزع لثامه، أرى وجهه ويرى بدوره وجهي، ويدرك أنه ليس ثمة من يسخر مني».

كان قد أمضى ليلة طويلة من السهاد في فراشه حالماً بفكرة مرافقته إلى «أرض الخواء» بحثاً عن «القافلة العظمى»، متخيلاً المغامرات التي سيمران بها معاً، وكم سيكون رجل كذاك قادراً على إرشاده، الذي استطاع أن يذهب إلى هناك ويعود، ليس مرة، بل مرتين. تحوّل ذاك الطارقي خلال ليلة طويلة إلى صديقه، أعاد له الأمل بمستقبل ممكن، وفجأة في بضع ساعات فقط حطم هذا الطارقي نفسه أحلامه لمرتين، رافضاً مرافقته وناحراً الكابتن حينما توصل إلى إقناعه.

كلا. لم يولد بعد «ابن الريح» الذي يفعل به هذا ويبقى حياً. لم يولد بعد.

ـ سرجنت! الملازم أول على الجهاز.

ركض إلى هناك.

ـ ملازم أول رازمان؟

ـ نعم سرجنت، هل قبضتم على الطارقي؟

ـ ليس بعد سيدي الملازم أول. لكن لدي انطباع أنه يعبر «العرق» الكبير جنوب تيديكِنْ... إذا أرسلت رجالك يمكن قطع الطريق عليه قبل أن يتوغل في جبال «سيدي الماديا». صمت مطبق. أخيراً جاء صوت الملازم أول مرتاباً.

ـ لكن هذا يبعد مسافة مئتي كيلومتر من هنا تقريباً، سرجنت...

ـ أعلم ـ اعترف ـ لكن إذا دخل في «سيدي الماديا» جيوش العالم كله لن تستطيع العثور عليه. تلك متاهة.

تريث الملازم أول رازمان في جوابه. كان يزدري السرجنت مالك كما يزدري الكابتن غالب الفاسي الذي احتفل بموته، كما كان يزدري جميع من ينتهون في «عدوراس»؛ فهم حثالة جيشٍ تمنى أن يكون نظيفاً ومستقيماً، ولا يجب أن يتسع لأوغاد من صنفه حتى من أجل أن يبقى موقعاً لعيناً كهذا قائماً.

إذا تجاسر طارقي على الدخول إلى ذاك الجحيم وقتل الكابتن وهرب فهو في قرارة نفسه يقف إلى جانبه، مهما كان الدافع الذي جعله يقوم بذلك. لكنه يدرك أيضاً أن مكانة هذا الجيش ذاته كانت في خطر، وأنه إذا رفض طلب المساعدة والطارقي تمكن من الهرب، فالسرجنت سينتهز المناسبة كي يحمّله المسؤولية أمام مرؤوسيه.

خلال سنتين سيترفع إلى كابتن وسيتحول إلى سلطة عليا في المنطقة. بالإضافة إلى ذلك إذا اصطاد قاتل الضابط ـ مهما كان هذا الضابط خنزيراً في الحياة ـ فإن هاتان السنتان يمكنهما أن تُختصرا. أطلق تنهيدة ووافق بحركة من رأسه وكأن الآخر يمكنه أن يراه.

ـ حسناً سرجنت ـ أجاب أخيراً ـ سنخرج عند الفجر. حوّل.

ترك «الميكروفون» على الطاولة، أغلق مفتاح الاتصال ومكث ساكناً متأملاً جهاز الإرسال كأنه ينتظر إيجاد جواب منه.

صوت سعاد أخرجه من تأملاته مُعيدة إياه إلى الواقع.

ـ لا تعجبك هذه المهمة، أليس كذلك؟ سألته مطلة برأسها قليلاً من المطبخ.

ـ كلا، بالطبع ـ اعترف ـ لم أُولد كي أكون شرطياً، ولا لمطاردة رجل في الصحراء لأنه ببساطة فعل ما يعتبره عادلاً حسب قانونه فحسب.

ـ ليس هذا هو القانون، وأنت تعلم ذلك ـ لفتت انتباهه وهي قادمة لتجلس في الطرف الآخر من الطاولة الطويلة ـ نحن في بلد حديث ومستقل، ويجب أن نكون فيه متساوين جميعاً، لأنه من غير الممكن قيادته إذا كان كلٌ منا يريد أن يحكم حسب عاداته الخاصة. كيف نوفق بين عادات أناس الساحل مع الجبليين أو البدو وطوارق الصحراء؟ يجب البتر ثم البدء من جديد، إما أن نفرض تشريعاً مشتركاً للجميع أو نهلك في الحضيض. ألا تفهم ذلك؟

ـ نعم يمكن الفهم لمن تعلم في أكاديمية عسكرية مثلي، أو في جامعة فرنسية مثلك.

توقف قليلاً، تناول غليوناً ذا انحناء من بين نصف الدزينة المعلقة على الحائط في حامل خشبي وبدأ يعبئه برصانة ـ لكني أشك إذا كان يمكن أن يفهم ذلك من قضى حياته كلها في أقاصي الصحراء، دون أن نكلف أنفسنا عناء إخباره أن الظروف قد تبدلت. ألدينا الحق في إجباره بين ليلة وضحاها على تقبّل أنَّ حياته وحياة آبائه وأجداده منذ ألفي عام، لم تعد صالحة؟ لماذا؟ ماذا أعطيناه بالمقابل؟

ـ الحرية.

ـ هل هذه حرية أن ندخل إلى بيته، نقتل ضيفاً ونأخذ الآخر؟ ـ مندهشاً ـ أنت تتكلمين عن حرية سياسية مثلما تراها طالبة في المدينة الجامعية أو البارات، لكن ليس كما يمكن أن يراها رجل يعتبر نفسه دائماً حراً بشكل أصيل، سواء حكم الفرنسيون أو الفاشيون، أو الشيوعيون... الكولونيل «دوبريه» رغم كل شيء وكونه «كولونيالي» كان سيحترم تقاليد هذا الطارقي أفضل من الخنزير الكابتن غالب، رغم نضاله لصالح الاستقلال...

ـ لا يمكنك أن تضع غالبَ كمثال. كان جيفة نتنة.

ـ لكن هذا النمط من الجِيَفْ هم الذين يرسلونهم لمعاملة أناسنا الأكثر نقاء والذين يجب علينا رعايتهم، لأنَهم الجزء الحي والأفضل

في تاريخنا وبين شعبنا. آلُ كالِكْ، آل مالك والمحافظ بن كوفرا أولئك هم الذين أرسلوهم إلى الصحراء، بينما الفرنسيون خصصوا لها مع ذلك صفوة ضباطهم.

«لم يكن الكولونيل «دوبري» كل شيء، وأنت تعلم. أم أنك نسيت الفرقة الأجنبية ومجرميها؟ هم أيضاً سببوا الأذى بين قبائلنا، أهلكوا القسم الأكبر منهم، نزعوا آبارهم ومراعيهم، ودفعوا بهم إلى الحصباء.

أشعل الملازم أول غليونه، ألقى نظرة على المطبخ وأشار:

ـ سيحترق اللحم. كلا...ـ ثم أضاف ـ لم أنس الفرقة ووحشيتها. لكنني متيقنٌ بأنهم تصرفوا هكذا لأنهم كانوا في حرب دائمة مع القبائل المتمردة، ولم يتوقفوا حتى سيطروا عليهم. كانت هذه مهمتهم، ونفذوها بالشكل نفسه الذي سأقوم به غداً في تنفيذ مهمة القبض على الطارقي لأنه تمرد ضد السلطة القائمة، أياً كانت هذه السلطة ـ توقف وراقب كيف أخرجت اللحم عن النار وسكبته في أطباق وأخذته إلى المائدة ـ أين هو الفارق إذاً؟ نتصرف في الحرب مثل الكولونياليين، لكن في السلام لسنا قادرين على الاقتداء بهم.

ـ أنت تقتدي بهم ـ أشارت سعاد وفي نبرة صوتها رقة وحب لاشك فيهما ـ أنت تجهد نفسك في مساعدة وفهم البدو، تقلقك مشاكلهم، حتى أنك تبذل نقودك في سبيلهم... ـ هزّت رأسها مرتابة ـ كم يدينون لك؟ ومتى سيدفعون؟ منذ شهور لا أرى سنتيماً من راتبك، مع أنه يُفترض بنا هنا أن نعتمد التوفير ـ قاطعها بإيماءة ـ لا. أنا لا أشكو. يكفيني ما لدينا. أردتك أن تفهم فحسب، أنه ليس بين يديك الحلول لجميع المشاكل. لستَ أكثر من ملازم أول في فصيل غير مُثبت على الخرائط حتى. تريث... عندما تصبح مثل «دوبريه» كولونيلاً، محافظاً للمنطقة، وصديقاً حميماً لرئيس الجمهورية، ربما حينها تستطيع أن تفعل شيئاً.

ـ لا أعتقد أنه حتى ذلك الحين سيبقى شيء مما يمكن حمايته ـ

أجاب بينما بدأ يمضغ اللحم القاسي واللدن لجمل عجوز طلب نحره قبل أن يموت دون الحاجة لمساعدته ـ سيكونون قد أبيدوا، خلال جيل واحد بعد التحرير الوطني، في الوقت الذي استطاعوا فيه البقاء على قيد الحياة خلال قرون. ما الذي سيقوله عنا التاريخ؟ ما الذي سيقوله عنا أحفادنا حينما يرون كيف قمنا باستخدام حريتنا؟ ـ كان سيضيف شيئاً، لكن طرق وجل على الباب قاطعه، فأدار وجهه صوبه ـ تفضل! ـ طلب.

ارتسم على العتبة الشكل الفارع للسرجنت أجاموك، الذي استعد رافعاً يده بالتحية إلى العمامة.

ـ أمرك سيدي الملازم أول! حيّاه ـ مساء الخير! ـ أضاف باحترام ـ لاشيء جديد في الموقع. تأمر حضرتكم شيئاً؟

ـ نعم، تفضل من فضلك ـ أشار ـ سنخرج عند الفجر صوب الجنوب. تسعة رجال في ثلاث عربات. أنا سأكون في المقدمة وأنت تبقى في القيادة هنا. جهِّز كل شيء من فضلك.

ـ كم يوماً؟

ـ خمسة... أسبوع كحدٍ أقصى. السرجنت مالك يخامره الشك بأن الطارقي هذا يمكن أن يجتاز «العرق» باتجاه «سيدي الماديا» ـ لاحظ التبرم في تعابير الآخر ـ أنا كذلك لا يعجبني، لكن أفترض أنه واجبنا.

يعرف السرجنت أجاموك حدوده تماماً، لكنه يعرف أيضاً الملازم أول رازمان ويعلم أن بإمكانه السماح لنفسه بالتعليق:

ـ مع كل الاحترام سيدي ـ قال ـ يجب عليك ألا تسمح لهؤلاء الأوباش في «عدوراس» أن يزجوك في مشاكلهم...

ـ إنهم جزء من الجيش، أجاموك ـ لفت انتباهه ـ أردنا أم لا... تفضل بالجلوس، أرجوك! قطعة حلوى؟

ـ شكراً، لكن لا أريد الإزعاج.

كانت سعاد قد توجهت إلى المطبخ مع الأطباق دون الانتهاء

تقريباً ـ كان اللحم عملياً لا يؤكل ـ وعادت مع طبق من الحلوى المنزلية التي جعلت عيون القادم الجديد تلتمع.

ـ هيا سرجنت! ـ ضحكت ـ لا كلفة بيننا، أخرجتها من الفرن منذ ساعتين فقط.

امتدت يد صوب الطبق كأنها تملك حياة خاصة بها، مستقلة عن إرادة صاحبها.

ـ أنت تفسدينني يا سيدتي ـ اعترف أجاموك ـ زوجتي مهما حاولت لا تصنع مثلها... ـ غرز أسنانه الهائلة والناصعة البياض في عجينة اللوز المقمَّرة وتذوقها مستمتعاً بها. وبفم ممتلئ أضاف ـ: من بعد إذنك حضرة الملازم أول، أعتقد أنه يجب أن تسمح لي بمرافقتك. لا أحد يعرف مثلي هذه المنطقة.

ـ أحد ما يجب أن يبقى هنا.

ـ يمكن الثقة بالعريف محمد. وزوجتكم تحسن التحكم بالراديو ـ توقف قليلاً بينما يبلع ـ هنا لا يحدث شيء أبداً.

فكّر الملازم أول بينما سعاد تقدم الشاي الساخن والشديد الحلاوة، المعطّر والشهي. يعجبه السرجنت ويستمتع برفقته، وهو الوحيد من بين رجاله الذي يستطيع القبض على الفارّ. ربما لذلك، في لاوعيه تقريباً حاول أن يتركه على الهامش، فهو في قرارة نفسه مازال إلى جانب الطارقي. نظرا إلى بعضهما من فوق كؤوس الشاي، ويمكن القول إن كل واحد منهما تكهن بما يفكر به الآخر.

ـ إذا كان على أحد ما أن يقبض عليه ـ ألحَّ السرجنت ـ فالأفضل أن نكون نحن وليس مالك، عندما يقع نظره عليه سيرديه بطلقة معتبراً القضية منتهية كي لا يتدخل أحد.

ـ تعتقد ذلك أيضاً؟

ـ أنا متأكد.

ـ وتعتقد أنه من الأفضل تسليمه للمحافظ؟ ـ لم يحر جواباً، وأضاف متأكداً مما يقول ـ: الكابتن غالب لم يتجاسر على قتل ذلك

الرجل دون مساندة بن كوفرا. والذي استغربه أنه لم يأمر بقتل عبد الكبير أيضاً ـ انتبه للصرامة والنظرة القلقة التي وجهتها له زوجته من باب المطبخ، ومتنهداً هواء التعب ـ حسناً... ـ غمغم ـ قضية لا تخصنا. موافق... ـ قبل أخيراً ـ سترافقني. أيقظني في الرابعة!

نهض السرجنت أجاموك وكأنه مدفوع بنابض، استعد دون أن يستطيع إخفاء رضاه، ثم توجه صوب الباب.

ـ شكراً حضرة الملازم أول! مساءً سعيداً، سيدتي... وشكراً على الحلوى.

خرج مغلقاً الباب وراءه، لكن الملازم أول رازمان تبعه بعد لحظات، وذهب ليجلس في الرواق كي يتأمل الليل والصحراء التي تمتد أمامه شاسعة، حتى تختفي عن البصر بين الظلال.

انضمت إليه سعاد ومكثا هكذا صامتين لوقت طويل مستمتعين بالهواء النقي والطري، فبعد كل شيء كان يوماً من القيظ الخانق. أشارت أخيراً:

ـ لا أعتقد أنه عليك أن تقلق. الصحراء كبيرة جداً. الأكثر احتمالاً هو أنك لن تجده أبداً.

ـ وإذا ما وجدته، فربما أترفّع ـ أجاب رازمان دون أن ينظر إليها ـ هل فكرتِ في ذلك؟

ـ نعم ـ اعترفت بطبيعية ـ فكرتُ في ذلك.

ـ و...؟

ـ عاجلاً أم آجلاً ستترفع، ومن الأفضل أن يكون ذلك لأجل شيء تشعر فيه بالفخر، وليس ككلب «بوليس». أنا لست عَجِلة. هل أنت مستعجل؟

ـ أتمنى أن أعطيك حياة أفضل.

ـ ما أهمية نجمة أخرى، وزيادة طفيفة على الراتب، طالما أنك لا ترتدي أبداً البزّة العسكرية وتستمر بالاستدانة على الراتب؟ سيدينون لك بنقود أكثر، هذا كل شيء.

ـ ربما أتعين بعيداً عن هذا المكان. نستطيع العودة إلى المدينة. إلى عالمنا...

ضحكت متسلية:

ـ أوه، هيّا رازمان! ـ صاحت ـ مَنْ تريد أن تخدع؟ هذا هو عالمك، وأنت تعلم. ستبقى هنا مهما رفعّوك. وأنا سأبقى معك.

عاد لينظر إليها، ومبتسماً:

ـ أتدرين...؟ ـ قال ـ يعجبني أن نمارس الحب مثل تلك الليلة... بين الكثبان.

نهضت، توارت في البيت، وعادت مع دثار تحت ذراعيها.

12

بلغ حافة السبخة حين كانت الشمس مرتفعة جداً، وقد بعثت في الأرض القيظ، ودفعت بالبعوض إلى ملاجئه تحت الحجارة والبَلَّان.

توقف وتأمل الامتداد الأبيض الذي يلتمع كمرآة على بعد عشرين متراً من تحت قدميه. كَلَمَتْ عيناه مجبرة إياه على أن يغلقهما نصف إغماضة، حيث الملح يعكس الضوء عنيفاً، مهدداً بحرق بؤبؤي عينيه رغم اعتياده منذ الطفولة على الوهج العنيف لرمال الصحراء.

تناول أخيراً حجراً غليظاً وقذفه بكلتا يديه وتركه يهبط في العمق. كما توقع، حطم الحجر القشرة التي أيبستها الشمس واختفى في اللحظة. وسرعان ما خرج من الحفرة التي خلّفها الحجر فقاعات وكتلة لزجة بلون الكستناء الفاتح.

تابع رمي الحجارة، وفي كل مرة على مسافة أبعد من الحافة المنحدرة حتى بدأت تستقر على مسافة ثلاثين متراً في الملح، دون أن تخترقه. ثم انحنى بعد ذلك إلى الأمام صوب المنحدر مُطِّلاً برأسه بحذر وبحث عن الأماكن التي يمكن أن ترشح فيها الرطوبة. أخيراً كرَّس أكثر من ساعة، في تمحصٍ دقيق للحافة، كي يقوم بالهبوط من النقطة الأكثر ملاءمة والأقل خطراً.

عندما اكتنفته القناعة بأنَّ اختياره صحيح أجبر المهري على الاستناخة، علّق أمامه ثلاثة قبضات من الشعير، أقام مضربه ونام مباشرة.

أربع ساعات بعد ذلك، وفي اللحظة التي بدأت الشمس فيها تهبط بوجلٍ فتح عينيه وكأن صوت منبه رنَّ بغتة إلى جانبه.

بعد ذلك بدقائق انتصب متوازناً فوق مطيته، راصداً الصحراء التي خلّفها وراءه. لم يتبينّ أي عمود من الغبار مرتفعاً في الهواء، لكنه يعلم أن الحصى الثقيلة في «العِرق» لا يرتفع منها الغبار، والعربات تجد نفسها مجبرة على السير البطيء بسبب الصخور التي لا تحصى. انتظر بصبرٍ، وأعطى الصبر هذا ثمرته: شيء معدني بعيد جداً أعاد انعكاس شعاع الشمس. قدّر المسافة: يحتاجون ست ساعات على الأقل كي يصلوا إلى النقطة التي يتواجد فيها.

قفز إلى الأرض، تناول إباض البهيمة، ورغم احتجاجاتها الصاخبة قادها إلى حافة المنحدر حيث هبطا بحذر لا نهائي، خطوة خطوة، حذرين ليس فقط كي لا ينزلقا ويسقطا في الأسفل مع خطر كسر الرقبة، بل حذرين أيضاً من كل حجر، كل صخرة ملساء، لأنَّه متيقن أن تحتها، هناك إلى جانب السبخة تعشش العقارب بالآلاف.

تنفس برضا عندما وصل إلى العمق، توقف وتمحص بدقة القشرة التي تبدأ على مسافة أربعة أمتار منه. تقدم وتحسسها بقدمه. بدت قاسية ومتينة، وترك الإباض طليقاً على مداه، لافّاً طرفه على معصمه مدركاً أنه إذا ما غرق فالمهري سيخرجه جراً من الخطر.

شعر بلدغة البعوضة الأولى في رسغه. بدأت الشمس تخفض من حدتها وقريباً ستتحول المنطقة إلى جحيم.

شرع بالمسير وبدا له كأنه يسمع تأوهات القشرة تتقصف تحت باطن قدميه، وفي بعض الأماكن كانت تلتوي دون أن تتقصف. تبعه المهري طائعاً، لكن غريزته أخطرته بالخطر فتوقف بعد أربعة أمتار متلكئاً ورغا مستاءً، مع أن صرخته يمكن اعتبارها احتجاجاً تقريباً عندما لاحظ الامتداد اللانهائي للملح، حيث لا يلمح فيها حتى بَلّانه بائسة.

ـ هيّا، أيها الأحمق... ـ تمتم ـ لا تتوقف!

أجابه بُرغاء من جديد، لكن شدَّة مفاجئة للإباض وكلمتان صاخبتان جعلته يحزم أمره. تقدم عشرة أمتار وبدا عليه الهدوء أكثر كلما شعر بالقشرة المالحة أكثر صلابة، إلى أن شكلت أرضاً راسخة وآمنة.

شرعا بالمسير ببطء دائماً باتجاه الشمس التي كانت تتوارى، لكز المهري وقد هبط الليل تاركاً إياه يتابع طريقه، مدركاً أنه لن يحيد عن وجهته بينما هو يغط في نوم طويل، قابعاً هناك على مقعده العالي، متأرجحاً كأنَّه فوق بحر هائج لكنه آمن ومريح، كما لو أنه نائم تحت سقف خيمته إلى جانب ليلى.

كان الأكثر سكينة بين الليالي. لم تبكِ الريح، ولم ينمّ أقل صوت عن قوائم المهري المخملية عندما تطأ الملح، وليس ثمة ضباع أو بنات آوى تعوي هناك في مركز السبخة الشاسعة مطالبة بغنيمة. مرتفعاً بدا القمر، بدراً ساطعاً ونظيفاً، مرسلاً بريقاً لجينياً على ألوف الملايين من المرايا لسهب بلا عارض واحد، حيث فوقه طيف المهري وفارسه يشكلان وهماً، مظهراً شبحياً خارجاً من عدم الليل صوب عدم الظلال، صورة بحتة للعزلة المطلقة، ربما لم يكن أي كائن بشري في مثل وحدة ذلك الطارقي في تلك البقاع المالحة.

ـ إنه هناك!

مدَّ بالمنظار إلى السرجنت أجاموك الذي تابع اتجاه ذراعه، ضبطه على بصره وتبينَّ فعلاً الفارس يتقدم ببطء تحت شمس الصباح الساطعة.

ـ نعم ـ وافق ـ إنه هناك، لكن لدي انطباعاً بأنه قد رآنا. لقد توقف ونظر باتجاهنا.

تناول الملازم أول رازمان المنظار من جديد، ووجهه صوب النقطة حيث غزال صياح ينظر أيضاً إلى نقطة تواجدهم في حافة السبخة، عبر انعكاسات السديم على الصفحة البيضاء. متيقناً من أنَّ

عيني النسر اللتين للطارقي معتادتان على المسافات البعيدة، وتعادل نظر رجل عادي مستعيناً بمنظار.

نظرا إلى بعضهما. في الواقع إن المرء لا يتبين من المسافة التي بينهما أكثر من طيف، ملتبس ومتموج بفعل الانعكاس الملتمع، لبهيمة وفارس، وتمنى أن يعرف بماذا يفكر في هذه اللحظة التي اكتُشف فيها وقد أطبقت عليه مصيدة من ملح في مركزها، ولا تقدم له أي إمكانية للهروب.

ـ كان أسهل مما فكرت... ـ علّق.

ـ حتى الآن لم نمسك به... ـ أشار أجاموك.

عاد ونظر إليه:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ ما قلته ـ أجاب السرجنت بعفوية ـ عرباتنا لا تستطيع الوصول إلى السبخة، حتى إذا وجدنا مكاناً مناسباً فسوف نغوص في الملح. ومشياً على الأقدام لن نمسك به أبداً.

أدرك الملازم أول رازمان أن معه الحق، فمدَّ يده وتناول سماعة الراديو التلفوني:

ـ سرجنت! ـ هتف ـ سرجنت مالك! هل تسمعني؟

أطلق الجهاز صفيراً، همهم مبحوحاً، وأخيراً جاء صوت مالك الحيدري جلياً.

ـ أسمعك أيها الملازم أول.

ـ نحن في الجهة الغربية من السبخة ووجدنا الفارّ، إنه يتقدم نحونا، لكن لسوء الحظ اعتقد أنه رآنا.

يمكن تقريباً سماع اللعنات الصماء للسرجنت الذي أجاب بعد استراحة وجيزة:

ـ أنا لا أستطيع المتابعة. وجدت سبيلاً للهبوط لكن القشرة لاتتحمل ثقل «الجيب».

ـ لا أرى حلاً آخر سوى محاصرة السبخة والانتظار إلى أن يجبره الظمأ على أن يسلّم نفسه.

ـ يسلّم نفسه...؟ ـ الصوت كان مزيجاً من الدهشة وعدم التصديق ـ طارقي قتل رجلين لا يسلّم نفسه أبداً ـ قام أجاموك بحركة تنمُّ على الموافقة مؤكداً كلامه ـ يمكن أن يترك نفسه يموت، لكن لا يستسلم أبداً.

ـ هذا ممكن... ـ وافق ـ لكن من الواضح أننا لا نستطيع الوصول إليه. فلننتظر!

ـ حضرتكم تأمر سيادة الملازم أول.

ـ فلنبقَ على اتصال. حوّل.

أغلق مفتاح الاتصال والتفت إلى أجاموك.

ـ ما بك؟ ـ غمغم ـ تريدنا أن نقذف بأنفسنا في هذه البقاع لتقفي طارقي كي يلعب بنا أو يرمينا بطلقة...؟ ـ توقف قليلاً والتفت إلى أحد الجنود ـ حضِّر لي راية بيضاء ـ طلب فيه.

ـ تلتمس التفاوض؟ ـ اندهش أجاموك ـ ماذا ستكسب من ذلك؟

هزَّ كتفيه:

ـ لا أدري، لكني أعمل ما باستطاعتي حتى لا يكون هناك مزيد من هدر الدماء.

ـ دعني أذهب ـ رجاه السرجنت ـ لست طارقياً لكني ولدت في هذه البقاع وأعرفهم جيداً.

رفض متيقناً.

ـ أنا الآن السلطة العليا في جنوب «سيدي الماديا» ـ قال ـ ربما يصغي إليَّ.

أمسك بمقبض العصا الذي ربط الجندي في طرفها منديلاً وسخاً، نزع المسدس، وبدأ بالهبوط من المنحدر الخطر بحذر.

ـ إذا ما حدث لي مكروه، تستلم أنت القيادة ـ أوضح ـ يجب ألا يستلمها مالك لأي سبب كان. واضح؟

ـ لا تقلق.

وصل الملازم أول إلى الأسفل بعد أن تعثّر وانزلق وكان على شفا السقوط في الهاوية، راقب بريبة القشرة الرقيقة للملح، تغلّب على وجَله متيقناً من أن الرجال يراقبونه، وبدأ بالتقدم بخطئ ثابتة صوب الطيف البعيد للفارس، طالباً من السماء ألا تتقصف الأرض بغتة تحت قدميه.

تابع مسيره عندما شعر بالأمان، ملوّحاً بالراية البائسة تحت شمس بدأت تتحول إلى رصاص مصهور، ملاحظاً كيف ترتفع الحرارة إلى أكثر من خمس درجات في هذا المنخفض الذي شكلته الأملاح، دون نفحة هواء وقد أججته الشمس، وكيف يحرق الهواء الساخن الرئتين عند وصوله إليهما

راقب كيف يجبر الطارقي مطيته على الاستناخة ويمكث منتصباً إلى جانبها، وبندقيته مهيأة للإطلاق، وندم في منتصف الطريق على ما قدِم عليه. العرق كان يتصبَّبُ على كامل جسده، مبللاً بزته، ورجلاه بدتا على أهبة أن ترفضا حمله.

الكيلومتر الأخير كان، من دون أي مجال للشك، الأطول في حياته كلها، وعندما توقف على بعد عشرة أمتار من غزال، احتاج زمناً كي يسترجع قواه، يسترد أنفاسه، ويهمس: ألديك ماء؟

رفض الآخر دون أن يكفَّ عن التسديد إلى صدره مباشرة:

ـ أحتاجه. ستشرب عند العودة.

وافق متفهماً، ومرَّر لسانه على شفتيه حيث لم يجد سوى الطعم المالح للعَرَق.

ـ معك الحق ـ اعترف ـ أنا أحمق لأنني لم أحمل القربة معي. كيف تستطيع تحمّل هذا السعير؟

ـ أنا معتاد... هل جئت لتتكلم معي عن الطقس؟

ـ كلا. جئت لأطلب منك أن تسلّم نفسك. لا تستطيع الهرب!

ـ هذا. الله وحده يستطيع قوله. الصحراء شاسعة جداً.

ـ لكن ليس هذه السبخة، ورجالي يحيطون بها ـ ألقى نظرة على القربة المتهدلة المعلقة على المطية ـ لديك القليل من الماء. لن تصمد كثيراً... ـ توقف قليلاً ـ أعدك بمحاكمة عادلة إذا جئت معي.

ـ لا يجب على أحدٍ محاكمتي ـ أوضح غزال بطبيعية ـ قتلت مبارك في مبارزة حسب تقاليد سلالتي، وقتلت العسكري لأنه كان مجرماً لم يحترم الأعراف المقدسة للضيافة... لم أرتكب أية جنحة حسب القانون الطارقي.

ـ لماذا تهرب إذاً...؟

ـ لأنني أعلم أنه لا الكفار الـ «رومي»، ولا أنتم الذين نسختم عنهم قوانينهم العبثية، تحترمون قوانيني، رغم تواجدنا في الصحراء. بالنسبة لك لستُ سوى «ابن الريح» القذر الذي قتل واحداً منكم، ولست «إنموشار» من كيل ـ تالغيموس الذي أقام العدل حسب حقٍ موغلٍ آلاف السنين في القدم؛ سنين كثيرة قبل أن يحلم أي منكم أن يطأ هذه الأرض.

ترك الملازم أول رازمان نفسه يتهاوى بحذر، آخذاً له مكاناً على القشرة المتينة للملح بينما نفى متيقناً:

ـ بالنسبة لي لستَ «ابن الريح» القذر. أنت «إموهاغ» نبيل وشجاع. وأتفهم دوافعك ـ توقف قليلاً ـ وأوافقك عليها. من المحتمل أنني كنت تصرفت مثلك، دون السماح بإهانة كهذه ـ أطلق تنهيدة مسموعة ـ لكن واجبي هو تسليمك للسلطات تجنباً لهدر الدماء. أرجوك...! ـ توسل ـ لا تجعل الأمور أكثر صعوبة.

يمكن القَسَم بأن مخاطبه يبتسم ساخراً خلف لثامه عندما أجاب متهكماً:

ـ أكثر صعوبة لمن؟ ـ هزَّ رأسه ـ بالنسبة للطارقي، الأمور تبدأ

بأن تكون حقيقة صعبة في اللحظة التي يفقد فيها حريته. حياتنا قاسية جداً، لكننا نعوّض عنها بكوننا أحراراً. إذا فقدنا هذه الحرية فقدنا الدافع للحياة ـ توقف قليلاً ـ ماذا ستفعلون بي؟ تحكمون عليَّ بعشرين عاماً؟

ـ لا يجب أن تكون بهذا القدر...

ـ لا؟ كم إذاً؟ خمسة... ثمانية...؟ ـ رفض مقتنعاً ـ ولا يوماً واحداً، اسمعني جيداً! رأيت سجونكم، حدثوني عن الحياة فيها، وأعرف أنني لا أتحملها يوماً واحداً ـ قام بحركة معبّرة من يده مشيراً إليه أن يذهب ـ تعال لأخذي إذا أردت القبض عليَّ...

نهض رازمان بتثاقل مرعوباً من فكرة العودة في طريق طويلة تحت شمس تحتدم كل لحظة أكثر:

ـ لن آتي للقبض عليك... يمكنك أن تطمئن لذلك ـ كان هذا كل ما قاله قبل أن يدير له ظهره.

راقبه غزال بينما يبتعد تعباً مستنداً على العصا التي استخدمها كصارية للراية، مرتاباً من أنه سيكون قادراً على الوصول إلى حافة السبخة دون أن يقع ضحية «ضربة شمس». من جهته غرز «التاكوبا» والبندقية في الملح القاسي، ارتجل سقفاً والتجأ إليه مستعداً للمكوث صبوراً، كي تمضي أكثر ساعات النهار صعوبة...

لم يغفُ، بعينين محدقتين بالنقطة التي ترسل منها العربات اللمعان المعدني للشمس، ملاحظاً كيف دقيقة بعد دقيقة، يصبح السديم أكثر كثافة والحرارة ترتفع مهددة بجعل الدم يغلي في العروق؛ قيظ كثيف، خانق وثقيل، هو الذي أجبر المهري على الاحتجاج وهو المعتاد بطبيعته على أعلى درجات الحرارة.

لن يستطيع البقاء على قيد الحياة زمناً طويلاً هناك، في مركز السبخة، وهو يعرف ذلك. معه ماء ليوم واحد. ثم تعلن أشباح الهذيان والموت عن ظهورها: الأكثر رعباً بين الميتات؛ تلك التي يخافها الطوارق منذ اليوم الذي يولدون فيه: الموتُ ظمأً.

13

راقب أجاموك ارتفاع الشمس قلقاً، وتمحص بدقة أطراف السبخة:

ـ بعد أقل من نصف ساعة سيأكلنا البعوض أحياء ـ أشار متيقناً ـ علينا الانسحاب.

ـ نشعل ناراً.

رفض السرجنت بحزم.

ـ ما من نار أو حماية ممكنة من هذه الجائحة ـ أصرَّ ـ حينما يبدأ بالهجوم سيخرج الجنود عدواً ولا أتعهد بإيقافهم ـ مبتسماً ـ أنا أيضاً سأهرب.

أراد أن يقول شيئاً لكن أحد الجنود قاطعه مشيراً بذراعه نحو السبخة.

ـ أنظر...! ـ صرخ ـ إنه يرحل...!

تناول الملازم أول المنظار ووجهه صوب النقطة المشار إليها. فعلاً، رفع الطارقي مضربه البائس وابتعد جارّاً مطيته من إباضها.

التفت إلى مساعده مفكراً:

ـ إلى أين سيذهب...؟

هزَّ أجاموك كتفيه:

ـ من يستطيع أن يعرف بماذا يفكر طارقي؟

ـ هذا لا يعجبني.

ـ ولا أنا كذلك.

فكر الملازم أول بضع لحظات وهو في حالة قلقٍ بيِّن.

ـ أفترض أنه سيحاول التسلل في الليل ـ غامر في القول ـ ستذهب إلى الشمال مع ثلاثة رجال. سعود إلى الجنوب... أنا سأغطي هذه المنطقة، ومالك موجود مع رجاله في الشرق... ـ هزَّ رأسه ـ لن يمرّ إذا ما بقينا يقظين.

لم يجب السرجنت، لكن من الواضح أنه لا يشارك قائده هذا التفاؤل. إنه بدوي، يعرف الطوارق جيداً، وبالكيفية نفسها يعرف جنوده جيداً، جبليون يكملون خدمتهم العسكرية الإجبارية في صحراء لا يعرفونها ولا يودّون معرفتها. كان يعجبه الملازم أول رازمان، مُثمناً جهوده المبذولة على التلاؤم مع تلك الأرض، وتصميمه كي يصبح خبيراً حقيقياً بها، لكنه على يقين بأنه مازال ينقصه الكثير لمعرفة خباياها. لا يمكن استيعاب الصحراء وناسها في سنة واحدة، ولا في عشر، والذي لا يستطيع استيعابه أبداً بشكل كامل هو عقلية ونمط تفكير واحد من أولئك الماكرين «أبناء الريح»، فهم بسطاء كما يبدون بشكل وطريقة حياتهم، لكنهم في الواقع معقدون بشكلٍ عميق.

تناول المنظار الذي يُركَن على مقعد السيارة ووجهه صوب الرجل الذي كان يتحول إلى نقطة، في كل مرة أكثر صغراً، تتبعه راحلته متأرجحةً. لماذا يتوغل مرة أخرى في ذلك الفرن المقيت، لم يستطع معرفة ذلك، لكنه كان يشعر بل يستطيع لمس خدعة ما تختبئ خلفه. إذا ما تحرك طارقي مع قليل من الماء، ومعه مطيته، يوجد دافع قوي لذلك.

طنَّ عند أذنه فقفز مرتعشاً.

ـ هيا ـ صرخ ـ البعوض!

قفزوا إلى الشاحنات وبدؤوا بلطم اليدين والوجه عندما أقلعوا مبتعدين بأقصى سرعة تسمح لهم الأرض الوعرة بها، متجنبين قدر الإمكان المنطقة المستنقعية. ثم تفرقوا متخذاً كل منهم اتجاهاً مختلفاً.

أمر الملازم أول رازمان رجاله أن يبقوا معه ليقيموا المضرب ويحضروا العشاء، وقام بالاتصال مع السرجنت مالك الحيدري مطلعاً إياه على تحركاتهم وتحركات الفارّ.

ـ أنا أيضاً لا أعرف ما الذي يبتغيه، أيها الملازم أول ـ اعترف مالك ـ لكني متأكد من أن هذا الرجل ماكر جداً ـ توقف قليلاً ـ ربما من الأفضل التوغل وراءه للقبض عليه...

ـ من المحتمل أن هذا ما يبتغيه... ـ أجاب ـ لكن تذكر أنه مشهور بالتسديد. مع جمل وبندقية هناك في الداخل سنكون تحت رحمته. فلننتظر...!

وانتظروا طوال الليل ممتنين لضوء القمر، بأسلحة مهيأة للإطلاق، حذرين من أي حركة مريبة.

لكن لم يحدث شيء، وعادوا عندما ارتفعت الشمس في الأفق إلى حافة السبخة. استطاعوا أن يتبينوا هناك، في المركز ذاته تقريباً، المهري باركاً والرجل نائماً بطمأنينة في ظله.

أربع مناظير موجهة إليه طوال اليوم من الأبعاد المتساوية للجهات الأربع، دون أن يبدي، لا الفارس ولا مطيته، حركة واحدة محسوسة من هذه المسافة.

حينما بدأ يحل الأصيل من جديد، وقبل أن يترك البعوض ملجأه، أقام الملازم أول رازمان خطاً مفتوحاً مع رجاله.

ـ لم يتحرك ـ لفت انتباههم ـ ما رأيكم بذلك؟

تذكر السرجنت مالك كلماته: «يجب أن تعيش كحجر، حذراً من

أن تقوم بأي حركة تستهلك من خلالها الماء... حتى في الليل عليك أن تتحرك ببطء شديد كحرباء، وهكذا إذا استطعت أن تفقد إحساسك تجاه القيظ والظمأ، وقبل كل شيء، إذا استطعت التغلب على الهلع واحتفظت بالسكينة، يكون لديك إمكانية بعيدة في البقاء على قيد الحياة».

ـ يحتفظ بقواه... ـ أشار ـ سيتحرك هذه الليلة... ما ينقصنا معرفته هو إلى أين سيتجه...

ـ سيحتاج أربع ساعات على الأقل حتى يصل إلى حافة السبخة ـ تدخل أجاموك ـ وساعة أخرى ليصعد في العتمة كي يصل إلى حيث نحن ـ حسب ذهنياً ـ علينا أن نكون يقظين عند منتصف الليل تقريباً، وإذا ما انتظر أكثر، لن يكون لديه الوقت كي يبتعد كثيراً حتى إذا استطاع المرور.

ـ سيجمح المهري ـ تذكر سعود وهو في أقصى الجنوب ـ البعوض هنا يشكِّل سحابة. ثمة رافد ماء وإذا ما اقترب سيغرق لا محالة.

اكتنفت الملازم أول رازمان القناعة بأن الطارقي يفضِّل أن تبتلعه الرمال على أن يمسكوا به حيّاً. لكنه لم يقم بأي تعليق. اقتصر على إعطاء التعليمات.

ـ أربع ساعات من الراحة ـ قال ـ لكن اعتباراً من تلك اللحظة سيكون الجميع يقظين...

كان الليل كذلك طويلاً ومتوتراً على حدٍ سواء، تحت قمر مازال يضيء السهب بقوة. وفاجأهم الفجر وقد تغلب عليهم الوسن والإعياء، بعيون محمّرة من الترصد في العتمة، والأعصاب محطمة مما تحملوه من ضغط.

عندما اقتربوا من جديد من السبخة استطاعوا رؤيته؛ في النقطة ذاتها، في الوضعية ذاتها، دون أن يقوم، على ما يبدو، بأي حركة.

صدح صوت الملازم أول عصبياً عبر الميكروفون.

ـ ما رأيكم بهذا....؟

ـ إنه مجنون! ـ ردَّ مالك مستاءً ـ لا يمكن أن يكون قد بقى لديه ماء... كيف سيصمد يوماً آخر في هذا الفرن؟

ليس لدى أحد جواب. حتى بالنسبة لهم، خارج المنخفض ولديهم ما يكفي من الماء في أوعية كبيرة، فكرة قضاء يوم آخر تحت تلك الشمس اللاهبة شيء لا يحتمل، ومع ذلك يبدو أن الطارقي مستعد لأن يترك يوماً آخر ينصرم دون أن يتحرك.

ـ إنه انتحار... ـ غمغم الملازم أول لنفسه ـ انتحار، وما اعتقدت قط أن طارقياً قادراً على الانتحار. إنه يبحث عن الهلاك الأبدي.

ما من يوم بهذا الطول.

ولا بهذا السعير.

الملح يقذف عليه لمعان الشمس مضاعفاً حممها، محوّلاً ملاذه الضئيل إلى شيء عديم الفائدة تقريباً، وقد أعياه وأعيا المهري الذي قيَّد قوائمه الأربع كي يُبقي عليه باركاً، رغم الألم الذي أصاب روحه وللعذاب الذي يسببه له دون أن يستحقه، بعد كل هذه السنين الذي قاده فيها فوق الرمال والحصباء.

تلا صلواته شبه نائم، وشبه نائم ترك الساعات تنقضي، جامداً بلا حراك، حتى ولا حركة يبعد فيها ذبابة، لا وجود لها هناك لأنه حتى الذباب لا يتحمل جحيماً كهذا. كان يكافح كي يحوّل نفسه إلى حجر متناسياً جسده وحاجاته، مدركاً أنه لم يبق لديه نقطة ماء واحدة في القِرَب، وشاعراً كيف بدأ جلده بالتجفاف. وراوده الانطباع الغريب بأن دمه أصبح أكثر كثافة في عروقه ويسري فيها كل مرة ببطء أكثر.

فقد وعيه بعد منتصف النهار ومكث متكئاً على جسد البهيمة، بفم مفتوح على آخره، غير قادر على تنفس هواء عاد كثيفاً تقريباً وكأنه يرفض الهبوط إلى رئتيه بعناد.

هَذَى، لكن حنجرته الجافة ولسانه المزرقّ لم يستطيعا إصدار أي صوت. ثَمَّ اختلاجة صدرت عن المهري ونواح نبع من الأحشاء ذاتها للبهيمة المسكينة أعاد له الحياة وفتح عينيه، لكن سرعان ما أغلقهما من جديد، مغلوباً من البريق الأبيض للسبخة.

ما من يوم، حتى ولا ذاك اليوم الذي احتضر فيه ابنه البِكر باصقاً دماً وقاذفاً على الرمل قطعاً من رئته وقد افترسه السل، بدا له بمثل هذا الطول.

ولا بمثل هذا السعير.

ثم جاء الليل وبدأت الأرض تبرد ببطء، الهواء وصل بسهولة أكثر إلى رئتيه واستطاع أن يفتح عينيه دون أن يعاني من الإحساس بخناجر تنغرز في شبكية عينيه. استفاق المهري أيضاً من سباته، وتحرك مضطرباً وهو يرغي بوهن.

أَحبَ تلك البهيمة وأسف لموتها الذي لامناص منه. رآه وليداً، ومنذ اللحظة الأولى أدرك أنه سيكون حيواناً نشيطاً، جَلداً ونبيلاً. رعاه بمحبة وعلّمه طاعة صوته ولمسة كعبه برقبته؛ لغة خاصة بهما وحدهما يفهمانها. لم يُرغم على ضربه قط خلال كل تلك السنين. والحيوان لم يحاول عضّه أو مهاجمته حتى ولا في أسوأ أيام فترة التناسل، في الربيع، عندما الذكور الأخرى تتملكها الهستيريا ولا يمكن التعامل معها، متمردة على أسيادها ومطيحة، مرة بعد أخرى، بحمولتها وفرسانها على الأرض.

كان ذلك الحيوان الجميل في الحقيقة نعمة من الله، لكن ساعته حانت وهو يدرك ذلك. انتظر إلى أن ظهر القمر في الأفق وأشعته المنعكسة على الملح حولت الليل إلى نهار تقريباً، وعلى ضوئه

أخرج خنجره المسنون وبتر بطعنة واحدة، بقسوة، بقوة وبعمق، الرقبة البيضاء.

تلا فروض صلواته وجمع الدم الذي تدفق فائراً في إحدى قِرَبه. وعندما امتلأت شربه ببطء وهو مازال ساخناً وذو وجيب تقريباً، وسرعان ما شعر بالانتعاش. انتظر بضع دقائق، استعاد همته وجسّ بحذر معدة الجمل الذي لم يتحرك، مقيداً كما كان بمجيء الموت، مقتصراً على انحناءة ذليلة للرأس. نظفَ، عندما أصبح متأكداً من اختيار النقطة، خنجره بالدثار المهترئ للمطية، وغرزها بقوة وعمق وهو يديره مرة بعد أخرى محاولاً قدر الإمكان توسيع الجرح. وعندما سحب السلاح سال قليل من الدم، ثم دفقة من الماء المخضرّ والنتن عبّأه في القِرْبة الثانية حتى الامتلاء. في النهاية سدَّ أنفه بإحدى يديه، أغلق عينيه ووضع شفتيه على الجرح شارباً منه مباشرة سائلاً كريهاً، لكنه يعلم علم اليقين أن حياته متعلقة به.

استهلك حتى آخر نقطة مع أنه كان قد ارتوى، ومعدته تنذر بالانفجار.

ثم تملكه الغثيان، مجاهداً بالتفكير في شيء آخر كي ينسى رائحة وطعم ماء كان له أكثر من خمسة أيام في معدة الجمل، واحتاج كل إرادته الطارقية المستعدة للبقاء على قيد الحياة كي يحققه.

أخيراً ركن إلى النوم.

14

ـ إنه ميت... ـ تمتم الملازم أول رازمان ـ يجب أن يكون ميتاً. لم يتحرك منذ أربعة أيام، وكأنه تحول إلى تمثال من الملح.

ـ هل تريد أن أذهب للتأكد منه...؟ ـ عرض أحد الجنود نفسه مدركاً أن عرضه هذا يقتضي ترفيعه إلى رتبة عريف ـ الحرارة بدأت بالانخفاض...

رفض مرة بعد أخرى بينما يشعل غليونه بمساعدة فتيل طويل وثخين، فتيل البحارة الأكثر عملية في تلك البقاع من الرمل والريح.

ـ لا أثق بهذا الطارقي... ـ علّق ـ لا أريد أن يقتلك في الظلام.

ـ لكننا لا نستطيع أن نمضي حياتنا هنا... ـ لفت الآخر انتباهه ـ لم يبق ماء إلا لثلاثة أيام.

ـ أعلم... ـ اعترف ـ غداً، إذا بقي كل شيء على حاله، أرسل رجلاً من كل طرف. لا أريد أن أخاطر بحماقة.

لكن عندما بقي وحده تساءل إن لم يكن الخطر الأعظم في متابعة الترقب واستمرار اللعبة مع الطارقي، غير قادر على التكهن بنواياه لأنه لا يقبل بفكرة أنه قرر ترك نفسه يموت من القيظ والظمأ دون أن يقدم على المعركة. ما كان يعرفه عن غزال صياح أنه واحد من الطوارق الأخيرين الأحرار بشكل أصيل، «إنموشار» نبيل، أمير تقريباً بين سلالته، قادر أن يذهب إلى «أرض الخواء»ويعود، وقادر أيضاً على مواجهة جيش بكامله للانتقام من إهانة لحقت به. وليس

منطقياً أن رجلاً كهذا يكتفي بترك نفسه يموت حينما يشعر بأنه محاصر. ليس للانتحار مكان في عقل الطوارق، كذلك يجب ألا يكون له مكان في عقول الأغلبية الساحقة من المسلمين، لأنهم يدركون أن الذي يحاول الاعتداء على حياته لا يستطيع أن يأمل أبداً ببلوغ الجنة. الفارّ، ربما مثل آخرين كُثُر من أبناء شعبه، لم يكن مؤمناً ورِعاً، واحتفظ بالقسم الأعظم من تقاليده القديمة، لكن حتى هكذا لا يتخيل أن يطلق رصاصة على نفسه، أو يقطع شرايين معصمه، أو يدع الشمس والظمأ يقضيان عليه.

لديه خطة، إنه متأكد من ذلك. خطة «ميكيافيللية» وفي ذات الوقت بسيطة جداً، حيث العناصر المحيطة به تلعب دوراً هاماً، والطارقي تعلّم ـ حتى قبل أن يولد ـ استخدامها لصالحه، لكن مهما أثقل دماغه بالتفكير لم يصل إلى حل طلّسمه. حدس أنه كان يلعب بتعب رجاله وتعبه ذاته، وبقناعة أن ما من كائن بشري يستطيع تحمّل وقت طويل دون أن يحتسي الماء في فرن كهذا. كان يراهن على استرخائه، في لا وعيه تقريباً، كسبب في جعلهم متأكدين أنهم يخفرون جثة هامدة، مما يجعلهم يتهاونون في الحراسة، دون أن ينتبهوا، في تلك اللحظة، أنه يتسلل من بين أصابعهم كشبح مختفياً وقد ابتلعته الصحراء الشاسعة.

تعليل منطقي وكان متأكداً تماماً منه، لكن كلما تأكد من أنه ليس على خطأ، تذكر القيظ الذي لا يُطاق وكان عليه تحمله حينما نزل إلى السبخة. قدّر كمية الماء التي على الإنسان أن يستهلكها، مهما كان طارقياً، كي يبقى على قيد الحياة في مكان كهذا، وأدرك أن كل نظرياته تتداعى وما من أمل بأن الفارّ يستمر في الحياة.

ـ إنه ميت... ـ ردد مرة أخرى حانقاً على نفسه وعلى عجزه ـ يجب أن يكون ميتاً ابن القحبة!

لكن غزال صياح لم يكن ميتاً.

ساكناً مثلما مكث ساكناً خلال أربعة أيام وأربع ليالٍ تقريباً،

تأمل الشمس كيف تتوارى في الأفق معلنة مجيء الظلال دون تحولات تذكر، وأدرك أنَّ تلك هي الليلة الذي عليه أن يتصرف أخيراً فيها.

كان كما لو أن عقله بُعث من سُبات غريب والذي جهد بوعي كامل إلى طمسه آملاً أن يتحول إلى كائن جامد: نبتة «ببايا»، صخرة من «العِرق» أو حبة ملح بين الملايين من حبات الملح في السبخة، متغلباً بذلك على حاجاته من الشرب، التعرّق وحتى التبول.

كان كما لو أن مسامات جلده قد أُغلقت، كأن مثانته فقدت التواصل مع العالم الخارجي، ودمه قد تحول إلى كتلة لزجة وبطيئة يسيل مثل حركة «كاميرا بطيئة» باسترخاء، مدفوعاً من قلب تدنت نبضاته إلى الحد الأدنى.

كان عليه من أجل ذلك أن يتوقف عن التفكير، التذكّر والتخيّل، لأنه يعلم أن العقل والجسد يعتمدان على بعضهما بشكل صارم، وأن مجرد تذكّر ليلى، التفكير ببئرٍ ماءٍ عذبٍ، أو أن يحلم بأنه هرب من ذلك الجحيم، يجعل قلبه ينبض سريعاً بغتة، مجهضاً حاجته للتحول إلى «رجل ـ جلمود».

لكنه أحرز مراده، وصحا الآن من غيبوبته الطويلة، تأمل الغروب وأعمل عقله منتشلاً إياه من الرقاد كي يقوم بدوره في تنشيط جسده، سريان دمه واستعادة كل عضلة من عضلاته مَنَحاه القوة والمرونة التي سيحتاج.

مع الظلال، حينما اكتنفه اليقين المطلق بأن لا أحد يستطيع رؤيته، بدأ بالتحرك، أولاً الذراع، ثم الذراع الآخر وأخيراً الساقان والرأس كي يجرّ نفسه خارج ملاذه، منتصباً على قدميه، مضطراً أن يستند على جثة الجمل الذي بدأت تفوح منه رائحة النتن الحاد والنافذ.

تناول القربة ولجأ مرة أخرى إلى كل قوة إرادته الهائلة كي

يبتلع السائل الأخضر والكريه الذي سال ثخيناً تقريباً، كأنه زلال البيض مخفوقاً بصفاره. تناول بعد ذلك خنجره، نحّى مقعد الركوب وقطع بقوة جلد سنام الجمل، مخرجاً منه شحماً أبيض، وَدَكٌ(*) بارد هذا الذي عاجلاً ما يبدأ بالفساد، لكنه مضغه مدركاً أنه الوحيد الذي يستطيع أن يعيد إليه قواه.

حتى بعد الموت قدمت له مطيته الوفية خدمة أخيرة: دم من شرايينها، ماء من معدتها كي يكافح ضد الظمأ، واحتياط الوَدَك البديع كي يعيد إليه الحياة.

ساعة بعد ذلك، والليل قد أرخى سدوله، توجه إلى مطيته بنظرة امتنانٍ أخيرة، تناول أسلحته وقربة الماء، وشرع بالمسير على مهلٍ متجهاً صوب الغرب.

نزع عنه العباءة الزرقاء، تاركاً للعيان ما تحتها فحسب، فبدأ بذلك كبقعة بيضاء متسللاً بصمت فوق السهب الأبيض. حتى حينما يبزغ القمر، الذي أبان أول ظل في محيطه، لا يمكن للمرء أن يتبينه على مسافة أكثر من عشرين متراً.

لمح المنحدر عندما بدأت بالظهور أوائل البعوض، ولفَّ نفسه بعمامته مغطِّياً باللثام حتى عينيه، جارّاً خلفه على الأرض أطراف لباسه كي يمنع الحشرات من التسلل ولدغه في رسغه.

طنت بالملايين مهددة، أقل طبعاً من أوقات الغروب أو الفجر، لكنها مدهشة بعددها وضراوتها. كان عليه أن يكيل الضربات على الذراعين والرقبة، وبدا عددها وكذلك حجمها كبيراً حتى أن بعضها استطاع مهاجمته من فوق ردائه.

شعر بوضوح كيف بدأت قشرة الملح ترق وتصبح أكثر خطورة تحت قدميه، لكنه يعرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في الظلام سوى أن يعهد بنفسه إلى الله آملاً أن يقود خطاه. وتنفس الصعداء حينما

(*) الودك: شحم، دسم، دهن. م.

شعر بملامسة الصخور الملساء الأولى المنبثقة من أعلى المنحدر، وبحث عن النقطة التي يستطيع التسلق منها دون أن يقلق الآن ـ كان لديه ما يكفي من الهموم ـ من أن يضع قدمه أو لا يضعها فوق عشٍ من العقارب.

وجد على بعد ثلاثمئة متر عن يساره المكان المناسب للصعود، وحينما أطلَّ برأسه على الامتداد الشاسع «للعرق» ولفحته هبة ريح خفيفة على وجهه، ترك نفسه يسقط على الرمل، منهكاً، مباركاً الخالق الذي سمح له بالإفلات من فخاخ الملح، مع أنه جاءت لحظة كانت ثقته فيها على حافة الانهيار، مقتنعاً بأنه لن ينجو أبداً.

استراح لفترة طويلة، ساعياً إلى نسيان طنين البعوض، ثم زحف متراً بعد مترٍ بصبر حرباء تترصد حشرة، إلى أن ابتعد ما يقارب نصف الكيلومتر عن حافة السبخة.

ولا مرة واحدة رفع رأسه عن مستوى الصخور، حتى أنه لم تنمّ عنه أية حركة عندما خرجت أفعى صغيرة تجرّ نفسها أمام عينيه.

التفت بوجهه إلى السماء مراقباً النجوم وقدّر كم من الوقت مازال لطلوع الفجر. ثم بحث حوله ووجد المكان المناسب: ثلاثة أمتار مربعة من الحصى الكبيرة مُحاطة بشكل كامل تقريباً بصخور سوداء صغيرة. أخرج خنجره وبدأ يحفر بصمت، مزيحاً الرمل بحذر، إلى أن حفر حفرة بطول جسده، وأكثر من شبرين في العمق. انجلى الصبح حينما تمدد فيها، وانتهى من تغطية نفسه بالحصى عندما بزغ الشعاع الأول للشمس متسللاً فوق السهب، تاركاً فقط عينيه، وأنفه وفمه مكشوفة، حيث سيكون محمياً بظلال صخرتين، في أسوأ ساعات الصباح وبعد الظهر.

يمكن لأحدٍ ما أن يبول على بعد ثلاثة أمتار منه، دون أن يتصور أن رجلاً يختبئ هنا، تقريباً تحت قدميه.

كل صباح حينما تبدأ «الجيب» بالاقتراب من جديد من حافة

السبخة ثمة إحساسان يحتدمان بعنف في داخله: الخوف من أن يتبينّ الشكل الهامد في المكان ذاته، والخوف من ألا يتبينه.

أول ما ينتاب الملازم أول رازمان كل صباح مشاعر الحنق والعجز التي تحمله على الشتيمة بصوت مرتفع على ذلك القذر «ابن الريح»، الذي يحاول السخرية منه، وفي كل صباح يلاحظ مشاعر الرضا الحميمة في أعماقه لإثباته أنه لم يخطئ ظنه بالطارقي.

ـ يجب أن يكون على قدر كبير من البسالة كي يترك نفسه يموت من الظمأ قبل أن يذهب ليكون نزيلاً في السجن ـ اعترف ـ قدرٌ كبير من البسالة... ويجب أن يكون ميتاً. جاءه صوت السرجنت مالك عبر الراديو نافد الصبر:

ـ لقد رحل، أيها الملازم أول... ـ كان يكتنفه الحنق ـ يبدو كل شيء على حاله من هنا، لكنني متيقن من أنه أزمع الهرب.

ـ إلى أين؟ ـ أجاب مستاءً ـ إلى أين يمكن أن يرحل رجل من دون ماء أو جمل...؟ أم أن ذلك ليس بجمل؟

ـ نعم، إنه جمل ـ اعترف الآخر ـ والذي إلى جانبه يبدو كرجل، لكن يمكن أن يكون دمية أيضاً ـ توقف قليلاً ـ بكل احترام سيدي، أطلب السماح لي بالذهاب إليه.

ـ موافق... ـ قَبِل على مضض ـ هذه الليلة.

ـ الآن!

ـ اسمع، سرجنت! ـ أجاب ساعياً أن يكتنف نبرة صوته أكبر قدر ممكن من السلطة ـ أنا المسؤول. ستذهبون عند الغروب، وأريدكم أن تعودوا عند الفجر. واضح...؟

ـ واضح جداً، سيدي...

ـ ولك أيضاً، أجاموك؟

ـ سمعتكم أيها الملازم أول.

ـ سعود...؟

ـ سأرسل رجلاً عند المغيب.

ـ موافق إذاً ـ ختم ـ أريد أن أعود غداً إلى «تيديكن»... ضقت ذَرعاً من هذا الطارقي وهذا القيظ ومن هذه الحالة العبثية. إذا لم يكن ميتاً ولا يريد أن يسلّم نفسه، اقضوا عليه رمياً بالرصاص.

ندم في اللحظة ذاتها تقريباً على ما تفوه به، لكنه أدرك أنه لا يجب عليه التراجع، مع أن السرجنت مالك سيسعى لأخذ كلامه حرفياً ويقضي على الطارقي مرة وإلى الأبد. اعترف في قرارة نفسه أن ذاك على الأرجح هو الحل الأفضل، إذ برهن الطارقي أنه يفضل الموت على أن يكون نزيل سجنٍ قذر.

حاول أن يتخيل ذلك الرجل الطويل بحركاته النبيلة وكلامه المتقطع، الذي تصرّف مقتنعاً بأنه لم يفعل شيئاً أكثر من أداء واجبه وبما تقتضيه تقاليده القديمة، يعيش مع الحثالة التي تمتلئ بها السجون، وأدرك أنه لن يتحمّل ذلك أبداً.

غالبية أبناء بلده كانوا متوحشين وبدائيين، ورازمان يعرف ذلك. عاشوا خلال مئة عام خاضعين للمستعمرين الفرنسيين الذين سعوا كي يبقى الشعب جاهلاً، رغم اعتبارهم أنفسهم الآن أحراراً ومستقلين، بيد أن سنين الاستقلال لم تعطِ ثمارها في جعل السكان أفضل وأكثر ثقافة. على العكس من ذلك، كثيراً ومراراً ما فُسِّرت الحرية بشكل سيء من قبل الكثيرين، الذين اعتبروا تحريرهم من الفرنسيين يعني أن يفعلوا ما يشاؤون وأن يستولوا بالقوة على ما يرغبون، في الوقت الذي ترك الفرنسيون ذلك خلفهم.

النتيجة كانت هي الفوضى، الأزمة، والاضطرابات السياسية الدائمة؛ حيث تبدو السلطة فيها أكثر ما تكون غنيمة ولِعَ بها الجميع، حينما يلتمسون الغنى السريع، وليست شكلاً من قيادة الأمة نحو مصيرها.

لذا كانت السجون طافحة باللصوص والسياسيين من المعارضة، ولم يكن ثمة مكان في أي من تلك السجون لشخص مثل ذاك الطارقي الذي ولد ليعيش في فضاءات بلا حدود.

لفحت الشمس وجهه بكامله حينما لم يعد يحميه ظل الصخرة، وقطرات ثخينة من العرق انداحت بحرية من جبهته. حينها فتح عينيه ومن دون أن يتحرك، رمق محيطه.

نام دون أن يقوم بحركة واحدة، ولم يحرك ذرة من طبقة الرمل التي كانت تغمره، فاقداً الإحساس بالقيظ، بالذباب، وحتى بالعظاءة التي في لحظة محددة عدت فوق وجهه، واستوت هناك على صخرة على بعد أقل من متر من أنفه، ترمقه بعينيها المدورتين، القاتمتين والجاحظتين، مرتابة من ذلك الحيوان الغريب، عينان، أنف وفم فحسب، هذا الذي اقتحم مملكتها.

تنصّت. الريح لا تحمل صخب أصوات بشرية، والشمس مرتفعة جداً، وتسقط عمودياً، مما أوحى له بأنها الآن ساعة «القيلة»، القيلولة التي قليل من الناس يستطيعون فيها مقاومة الوسن وسكينة النوم. رفع رأسه دون أن يحرك جسده تقريباً، ورصد ما حوله خلف الصخور. أكثر من كيلومتر بقليل، صوب الجنوب على حافة السبخة، تبيّن شاحنة صلحت كسند لمظلة من الكتان تسقط مائلة ومشدودة، موثوقة بحبل طويل إلى صخرتين، تشكل ظلاً مناسباً يمكن أن ينضوي تحته نصف دزينة من الأشخاص.

تبيّن خفير فقط، مديراً له ظهره، يحرس السبخة لكنه لم يستطع التأكد من عدد الآخرين الذين ينامون القيلولة هناك.

عرف، لأنه رآهم في الأيام الماضية، أن ما تبقى من الشاحنات ومستخدميها تكمن بعيداً جداً، وليس لديه سبب للقلق بشأنهم.

صيده كان هناك أمامه، وسيبقى هناك إلى وقت الحدور، حيث البعوض سيدفعه مرة أخرى إلى داخل «العِرق».

ابتسم محاولاً أن يتخيل أي وجه سيكون لهم إذا ما توصلوا إلى الاشتباه بأنهم كانوا على مرمى بندقيته، وأنه يستطيع في تلك الساعة ببساطة التسلل كحيوان زاحف، من صخرة إلى صخرة، الاقتراب من الخلف، طعن الخفير، ثم طعن البقية النائمة، بالطريقة ذاتها ومن دون أي خطر.

لكنه لم يفعل، مقتصراً على تحريك الجسد قليلاً، وتحسين وضع الصخور كي تحميه من الشمس. اشتد القيظ لكن طبقة الرمل عزلته، وسرت نسمة خفيفة جعلت تنفس الهواء ممكناً خلافاً للثقل الذي لا يطاق داخل السبخة. كان «العِرق» جزءاً من عالمه، والأيام التي قضاها هكذا مطموراً بينما ينتظر قطيعاً من الغزلان، لا تحصى. كان يتركها تقترب ببطء، وهي ترتع في «الغرارا» حتى أنه كان يستطيع أن يتفل في مخطمها، وفي اللحظة المناسبة يرفع الذراع المسلّح ويطلق عليها رصاصة في القلب.

وهكذا قضى أيضاً على فهد هائل كان يفترس الماعز، حيوان ضارٍ، سفاك دماء وداهية. بدا وكأنه يمثل الخطر ذاته، أو مصاناً من جنيّة الأذى، يهاجم راعياً غير مسلح يرعى قطيعه ثم يختفي وكأن الأرض ابتلعته. ثم يهرع غزال ببندقيته ليغمر نفسه بالرمل خلال ثلاثة أيام، قبل أن يأتي أكبر أبنائه بالقطيع، منتظراً بأناة ظهور الوحش.

رآه قادماً يدب من بَلاّنة إلى أخرى ملتصقاً بالأرض وصامتاً، حتى الصغير أو الحيوانات لم تنتبه لحضوره، وفقط عندما تهيأ للقيام بالقفزة الحاسمة صرعه بطلقة في رأسه قبل أن تلامس قائمتاه الأرض. جِلد ذاك الفهد هو أحد أسباب فخره، ويوقظ الإعجاب عند زائريه في خيمته، والطريقة الذي قتله فيها ساهمت في انتشار لقبه «الصياد» في كل المنطقة.

15

شرع الرجال الأربعة المسير بشكل متوافق، واحد من كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة ومعهم الأمر الصريح في الوصول معاً عند منتصف الليل إلى مكان الطارقي، القضاء عليه إن لم يكن ثمة سبيل آخر، والمباشرة بالعودة كي يصلوا إلى أماكنهم عند الفجر.

لم يسمح السرجنت ماجور مالك الحيدري لأحد بأن يحتل مكانه وتبع، قبل أن يستيقظ البعوض، الأثر الذي تركه الفارّ على حافة السبخة، متوغلاً فيها مع بندقيته في الحزام، مقتنعاً كما كان أن القذر «ابن الريح» قد توارى.

متى فعل ذلك، أو أين يكون في هذه اللحظات، هذا ما لم يستطع معرفته، وتساءل كيف استطاع ترتيب هروبه مشياً على الأقدام ودون ماء من «العِرق» الفسيح، إذا كان البئر الأكثر قرباً موجود على بعد أكثر من مئة كيلومتر، عند ثغور سلسلة جبال «سيدي الماديا».

«ستظهر جثته في يوم ما وقد أبلتها الشمس إذا لم تجدها قبل ذلك الضباع وبنات آوى» قال لنفسه، لكن في دخيلته لم يكن مقتنعاً بذلك، لأن ذاك الرجل اعترف له بأنه ارتاد «أرض الخواء» مرتين، وكان متأكداً من أنه لم يكذب. من المحتمل أن مئة كيلومتر في «العِرق» لا تشكل عائقاً لا يمكن اجتيازه بالنسبة للطارقي، بيد أنه لم

يأخذ في الحسبان، أنه هو مالك، سيذهب لينتظره عند البئر فيما إذا لم يجده في السبخة.

تحولت تلك المطاردة بالنسبة للسرجنت ماجور إلى شأن شخصي، فالأمر لم يعد مجرد رغبة في حل القضية دون تدخل السلطات العليا، إنما في أن الطارقي سخر منه في الواحة، ذبح الكابتن أمام أنفه، تعقبه من مكان إلى آخر كأحمق في الصحراء، وتركه أخيراً خمسة أيام منتظراً دون أن يعرف تماماً ما الذي ينتظره.

كان رجاله يتهامسون عليه من خلفه، وهو يعرف ذلك. عند العودة إلى «عدوراس» سيتناقلون التعليقات بأن السرجنت ماجور المَهُوْب(*) سخر منه طارقي أُمِّي، وليس من السهولة السيطرة على فصيل كذاك. من دون أن يفرض الرعب الذي استطاع دبَّه فيهم، لأَقدم أكثر من واحد منهم على الهرب عبر الصحراء، واثقاً من أنه إذا كان ممكناً قتل الكابتن ثم الانصراف دون عقاب، فبنفس المنطق يمكنه قتل السرجنت ثم يختفي. انطلاقاً من هذا الأساس، فإن حياته لم تعد تساوي حفنة تمر.

أمر الملازم أول رازمان عند الغروب بالانسحاب إلى الداخل، بعيداً عن جائحة البعوض، وبينما رجاله يفكون غطاء الكتان الذي صلح كملاذ لهم، جال بنظرة أخيرة إلى العريف وهو يبتعد بخطوات ثابتة صوب قلب السبخة، وركّز المنظار من جديد إلى النقطة التي كانت هاجسه.

لم يقم الجنود الذين بقوا معه بأي تعليق حتى، مقتنعين بعدم جدوى السؤال مرة أخرى، فيما إذا كان الطارقي قد تحرك. واضح أن الأموات لا يتحركون، وليس لدى أي منهم أدنى شك بهذا

(*) المَهُوْب: يخافه الناس. م.

الخصوص. تملكت البسالة «ابن الريح» بأن يترك الشمس تحرقه، ومع الزمن يغمر الملح جسده مُحنطاً إياه إلى جانب جمله، بحيث ربما في يوم ما، بعد مئات السنين، قد يكتشفه أحدهم سليماً، ويسأل نفسه عن الدافع الغريب الذي جعله يذهب ليموت في مكان بعيد كهذا.

ابتسم الملازم أول رازمان في سريرته، مفكراً بأنه يستطيع أن يتحول إلى الرمز الروحي للطوارق في القرون المقبلة، عندما تكون سلالته قد اختفت إلى الأبد عن وجه الأرض. «إنموشار» فخور، ينتظر الموت رابط الجأش في ظل مهريه مُتَّهماً من قِبَل أعدائه، ومقتنعاً أن هذا الموت كان أكثر نبلاً وكرامة من الاستسلام والسجن.

«سيتحول إلى أسطورة ـ قال لنفسه ـ أسطورة مثل عمر المختار أو حامودو أسطورة تفتخر بها سلالته، ويذكرهم بأنه في زمن ما جميع «الأماهِغ» كانوا مثله».

أعاده صوت أحد رجاله إلى الواقع.

ـ عندما تريد، أيها الملازم أول...

ألقى نظرة أخيرة على السبخة، وتحركوا بالعربة مبتعدين مرة أخرى عن منطقة البعوض، لإقامة المضرب الجديد في المكان الذي يقيمون فيه كل مساء.

فتح الراديو بينما بدأ أحد الجنود بتحضير العشاء الزهيد فوق سخانة البترول، وهتف إلى القاعدة.

أجابته سعاد في اللحظة تقريباً.

ـ هل أمسكتم به؟ ـ سألت بلوعة.

ـ كلا. حتى الآن.

فاصل طويل من الصمت، وأخيراً أشارت بصدق:

ـ سأكذب عليك إذا قلت لك آسفة... ستعود غداً؟

ـ ما الذي يتبقى لي! لقد نفد منا الماء.

ـ انتبه إلى نفسك!

ـ هل من جديد في المضرب...؟

ـ الليلة الماضية كان عندنا ولادة... أنثى.

ـ هذا جيد. إلى الغد!

أنهى المكالمة ومكث بضع لحظات ممسكاً بالسماعة مفكراً ومتأملاً السهب الذي بدأ يتدثر بغطاء رمادي. ولدت ناقة وهو يمضي مطارداً طارقياً فاراً. كان جليّاً أنه سيكون أسبوعاً استثنائياً من النشاط في الموقع العسكري في «تيديكن»، حيث تمضي شهور هناك دون أن يحدث شيء على الإطلاق.

تساءل مرة أخرى، إذا كان هذا ما تخيله حينما التحق بالأكاديمية العسكرية، أو هذا الذي حلِم به حينما قرأ سيرة الكولونيل دوبريه متطلعاً أن ينافس مآثره، متحولاً إلى منقذ جديد للقبائل الرُحّل. مع أنه لم يكن هناك قبائل رحل في محيط «تيديكن»، لأنهم كانوا يتجنبون الموقع العسكري وكل صلة مع الجنود بعد التجربة المكدّرة في «عدوراس».

من المحزن الاعتراف بذلك، لكن هؤلاء الجنود لم يعرفوا استمالة السكان الأصليين إليهم قط، فلم يروا فيهم سوى غرباء وقحين يصادرون جِمالهم، يحتلون آبارهم ويتحرشون بنسائهم.

كان الليل قد أرخى سدوله فوق الفلاة الحصيّة، أصوات ضباع في البعيد، ونجوم وجلة ترتجف في سماء سرعان ما تترصع بها، في مشهد مدهش قلما تعب من تبجيله. ربما هذه النجوم في هدأة الليل، هي التي كانت تعينه على المتابعة في هذا الثغر، بعد نهار طويل من القيظ، والسأم وفقدان الأمل. «الطوارق يَخِزون النجوم برماحهم كي يضيئوا بها الدرب...» مَثَلٌ بديع من الصحراء؛ ليس أكثر من جملة، لكن الذي أبدعه يعرف جيداً تلك الليالي وتلك النجوم،

ويعرف ماذا يعني تأملها خلال ساعات من هذا القرب. ثلاثة أشياء كانت تدهشة منذ الطفولة: الصِلاء، أمواج البحر وهي تتحطم على الصخور في جرف، والنجوم في سماء بلا سَحاب. ناظراً اللهب فينسى التفكير؛ ناظراً البحر، يغوص في ذكريات طفولته، وحينما يتأمل الليل يشعر بسلام مع نفسه، مع الماضي، مع الحاضر، وحتى مع مستقبله ذاته تقريباً.

وفجأة بزغ من بين الظلال، واللمعان المعدنيُّ لبندقيته هو أول ما استطاعوا تبينه.

نظروا إليه غير مصدقين. لم يكن ميتاً، ولم يتحول إلى تمثال من الملح في مركز السبخة. ها هو ذا، منتصباً أمامهم، شاهراً بندقيته بحزم، ومسدس عسكري في وسطه. وعيناه، الشيء الوحيد الذي يسمح بإظهاره من وجهه، تبينان بوضوح بأنه سيضغط على الزناد عند أقل إشارة توحي بالخطر.

ـ ماء! ـ أمر.

قام بإشارة، فمدَّ له أحد الجنود قربة الماء بيد مرتجفة. رجع الطارقي خطوتان إلى الوراء، رفع اللثام قليلاً، ودون أن يحيد ببصره عنهم ممسكاً البندقية بيد واحدة، شرب حتى الارتواء.

ما كاد الملازم أول يقوم بحركة وجلة باتجاه المسدس الذي يقبع فوق مقعد العربة حتى توجهت فوهة البندقية إليه مباشرة، ولاحظ توتر الإصبع على الزناد. لبث ساكناً بلا حراك، نادماً على حركته، موقناً أنه لا يستحق المخاطرة بحياته من أجل الانتقام للكابتن غالب.

ـ اعتقدت أنك ميت ـ قال.

ـ أعلم ـ اعترف الطارقي حينما انتهى من الشرب ـ أنا أيضاً اعتقدت ذلك في لحظة من اللحظات... ـ مدَّ يده، تناول الصحن من أحد الجنود وبدأ يأكل بأصابعه رافعاً اللثام قليلاً ـ لكنني «إموهاغ» ـ أشار ـ الصحراء تحترمني.

ـ إنني أرى، أي شخص آخر كان سيموت. ماذا تفكر بفعله الآن...؟

أشار غزال إلى «الجيب» بحركة من رأسه.

ـ ستأخذني إلى جبال «سيدي الماديا». لن يجدني أحد هناك.

ـ وإذا ما رفضت...؟

ـ عليّ قتلك حينها، وأحدهم سيأخذني.

ـ لا يفعلون إذا أمرتهم بألا يفعلوا.

نظر إليه الآخر طويلاً وكأنه يقيس الحماقة التي تفوه بها للتو:

ـ لن يستمعوا إليك إذ ستكون ميتاً ـ حَكَم ـ ليس لدي شيء ضدهم... ـ أضاف ـ ولا ضدك ـ توقف قليلاً ثم أشار بهدوء ـ: من الجيد معرفة متى يربح المرء ومتى يخسر. أنت خسرت.

وافق الملازم أول رازمان بحركة:

ـ معك الحق ـ اعترف ـ خسرت. آخذك عند بزوغ الفجر إلى «سيدي الماديا».

ـ عند بزوغ الفجر، كلا. الآن!

ـ الآن...؟ ـ مندهشاً ـ في الليل؟

ـ قريباً سيظهر القمر.

ـ أنت مجنون...! ـ صاح ـ من الصعب حتى في النهار المسير في «العرق»... الحجارة تمزق الإطارات وتكسر المحاور. في الليل لا نتقدم كيلومتراً واحداً.

تأخر الطارقي في الجواب. كان ماداً يده لتناول الصحن من الجندي الآخر، وجالساً على الأرض، وقد تقاطعت ساقاه ومسنداً السلاح على ركبتيه، يلتهم بلوعة، دون تذوق، وغاصاً به تقريباً.

ـ اسمع... ـ حذّره ـ إذا وصلنا البئر في «سيدي الماديا»، ستعيش. إذا لم نصل سأقتلك، حتى ولو كان ليس ذنبك ـ تركه يتأمل

ما قاله للتو، وأضاف أخيراً ـ: وتذكر إنني «إنموشار» وأفي دائماً بكلامي.

أحد الجنود، شاب فتي جداً، علّق بقناعة:

ـ كن حذراً أيها الملازم أول. إنه مجنون، وأعتقد أنه قادر على القيام بما يقول.

لم يُبدِ الطارقي أي تعليق. اقتصر على التحديق به، ثم أخيراً سدد البندقية نحوه:

ـ تعرّ! ـ أمر.

ـ ماذا قلت...؟ ـ كرر الشاب غير مصدق.

ـ أن تتعرى... ـ ثم سدد على الآخر ـ أنت أيضاً.

ارتابوا. حاولوا الاحتجاج، لكن صوت الطارقي كان ينطوي على كثير من الهيبة بحيث أدركوا أنه لم يبق لهم حل آخر، وشرعوا بنزع بزاتهم ببطء.

ـ الجزمات أيضاً...

تركوها كلها أمام غزال الذي جمعها باليد الفارغة، ثم رماها في المقعد الخلفي للعربة. صعد إليها، اتخذ مكاناً وقام بحركة من رأسه إلى رازمان.

ـ لقد ظهر القمر... ـ قال ـ هيا بنا!

تأمل الملازم أول رجاله عراة تماماً، واجتاحه إحساس عميق بالتمرد. لبضع لحظات كان على أهبة الاعتراض، حتى أنه تبادل معهم نظرة «الذكاء الميداني»، لكنهم رفضوا بإيماءة، والأفتى بينهم أشار بصوت تعب:

ـ لا تقلق بشأننا أيها الملازم أول... أجاموك سيأتي لأخذنا.

ـ لكن ستموتون من البرد عند الفجر... ملتفتاً إلى غزال ـ أعطهم غطاء على الأقل...

بدا الطارقي على أهبة القبول لكنه انتهى إلى الرفض، وكان في نبرته سخرية عندما أشار.

ـ فليدفنوا أنفسهم في الرمل. ذلك يحميهم من البرد، وهو جيد لتخفيف الوزن.

رفع رازمان يده إلى جبهته بتحية فاترة، أدار المحرك، أشعل المصابيح، لكن فوهة البندقية غاصت في ضلوعه مباشرة:

ـ من دون أضواء!

أطفأها، لكن هزّ رأسه متشائماً:

ـ أنت مجنون...! غمغم مستاءً ـ مجنون تماماً.

انتظر حتى تعتاد عيناه على الظلمة من جديد، وأخيراً تحرك ببطء منحنياً بالقدر الممكن إلى الأمام محاولاً أن يتبين العوائق. كانت مسيرة بطيئة وثقيلة خلال الساعات الثلاث الأولى، إلى أن أشار غزال أن باستطاعته إضاءة المصابيح. وبذلك تقدما بسرعة أكبر، لكن هذا جلب لهم التعثر مباشرة تقريباً، حيث انفجرت إحدى العجلات.

شتم الملازم أول، وجزّه العرق عند تبديلها، ومخفوراً دائماً بالسلاح، كان عليه أن يبذل جهداً كي لا ينتهز فرصة رميه بالمفتاح الإنكليزي مثيراً عراكاً جسداً لجسد، واضعاً حداً لهذه الحالة المربكة. لكنه أدرك أن الطارقي أطول وأقوى منه، وحتى في الحالة البعيدة الاحتمال، لو نزع البندقية منه فإن عدوه مسلح بمسدس وسيف وخنجر.

الشيء الوحيد الذي لا مناص منه هو أن يقوم بصعود سريع، والابتهال ألا تتعقد الأمور أكثر مما هي عليه، إذ أنه لا يريد أن يترك نفسه يُقتل في سن الثانية والعشرين من قِبَل رجل تتوافق معه أفكاره، فهذا يشكل حماقة لا حد لها، وكان يعرف ذلك.

في منتصف الليل تماماً اقترب أربعة رجال من الجمل الميت؛ لم

يشكل أي مفاجأة لأي منهم عندما تأكدوا أن الطريدة قد طارت، والسرجنت ماجور مالك الحيدري انتهز المناسبة كي يسهب في كل ما هو بذيء في قاموسه اللغوي الثكناتي، لاعناً الطارقي، ولاعناً أيضاً وبإلحاح أكثر «المليزم أول» الأحمق الذي خُدع كمبتدئ.

ـ ما الذي سنفعله الآن...؟ ـ سأل أحد الجنود محتاراً.

ـ لا أعرف ما سيفعله الملازم أول، أما أنا، بموافقته أو عدمها، سأتجه إلى بئر «سيدي الماديا». مهما كان طارقياً ابن القحبة هذا، لن يستطيع أن يتحمل كل هذه الأيام دون شرب.

أشار خبير مجرّب كان يتفحص جثة المهري بوساطة مصباح كهربائي، إلى جرح في البطن.

ـ لديه ماء... ـ علّق ـ ماء مقزز يميت أيّاً كان، لكن الطوارق قادرون على البقاء على قيد الحياة بهذا. وشرب أيضاً دمها ـ توقف قليلاً ثم أضاف مقتنعاً: لن نجده أبداً....

لم يجب السرجنت ماجور مالك الحيدري، ألقى نظرة أخيرة على الحيوان الميت، واستدار وقفل عائداً صوب عربته. قدّر قياساً لدرجة التفسخ، أن الجمل مضى على موته أكثر من ثمانية وأربعين ساعة، مما يعني أن الطارقي ضحّى به منذ ليلتين مضت. فإذا ما شرع بالمسير بعد ذلك مباشرة، وهو شيء أرتاب له، سيكون له السبق الزائد، لكن إذا ما بقي ليوم آخر كي تكتنفهم الثقة فيخففون من حراستهم، عندئذٍ لا يكون قد ابتعد كثيراً، وربما مازال لدينا الوقت لقطع الطريق عليه.

لم يثق بفكرة اللحاق به في «العرق»، لأنه من دون مطيّة سيغمر نفسه بالرمل حينما يلمح شاحنة من بعيد، لكن الماء المنهضم تقريباً في معدة الجمل لا يتحمّل يوماً آخر دون أن يفسد، والفارّ يحتاج لا مفرّ مؤونة جديدة. «أتنكور» الوديان وثغور الجبال إذا ما حفر فيها كثيراً يمكن أن تحوي أحياناً جرعات من سائل ترابي ومالح لا يكفي للبقاء على قيد الحياة، لكنها تشكل مساعدة لا أكثر للمسافر الذي

تجاسر على التوغل في المتاهة اللانهائية لجبال متلاصقة وصخرية.

لذا فالسيطرة على البئر تعني إجبار الطارقي على الاستسلام، أو يُحكم بالهلاك. بلا وعي أسرع خطاه، وفاجأ نفسه يركض تقريباً في لوعته للوصول إلى «الجيب». اختفى القمر في الأفق، إلّا أن حسّه في تحديد الاتجاه كان كبدوي تقريباً بعد كل هذه السنين من العيش في تلك الصحارى، ومازال أمامه ساعة لطلوع الفجر. تسلّق كيفما استطاع هضبة لاعناً البعوض الذي هجم عليه بشدة، راكضاً صوب رجاله، صارخاً ملء رئتيه.

أحاطوه مذعورين.

ـ ماذا جرى...؟ ـ سأل الدهمائي علي.

ـ ماذا سيجري...؟ لقد رحل. هل ارتبت في ذلك؟

ـ وماذا سنفعل الآن؟

لم يجب السرجنت. تناول جهاز الراديو واتصل بلا انقطاع.

ـ ملازم أول! هل تسمعني. ملازم أول؟

حينما ألحَّ خمس مرات من دون الحصول على جواب، أطلق شتيمة، وأدار المحرك متأهباً للانطلاق:

ـ إنه من الحماقة، حتى إنني أعتقد أنه بقي نائماً... هيّا!

انطلق محدثاً قفزات حول السبخة باتجاه شمال غرب، وكان على رجاله أن يتشبثوا بكل ما تصله أيديهم كي لا يطيروا في الهواء.

16

توقف الملازم أول عند الفجر لتعبئة بنزين، أفرغ «الغالون» وقَلَبه كي يبين لغزال بأنه لا يكذب عليه.

ـ لقد فرغ... ـ لفت انتباهه.

لم يجب الطارقي، راكناً في المقعد الخلفي للعربة متأملاً الأفق الذي بدأ يأخذ شكلاً، والخط الأسود المرسوم أمامهما منكسر وبلا انسجام. مرتفعات «سيدي الماديا» تنتصب بغتة في السهب، حمراء ومَغِرَة(*)، ثمرة كارثة هائلة موغلة في القدم، ربما منذ ظهور الإنسان فوق الكوكب الأرضي، وكأن يداً وحشية دفعتها من مركز الأرض ذاتها واضعة إياها هناك كضربة من فن السحر.

كنست الريح الأبدية للصحراء ذراها عبر ملايين السنين وعرّتها من كل أثر للتربة، الرمال أو النبات، ومظهرها مثل صخرة لا نهائية عارية، برّاقة، معاقبة من الشمس ومشققة بسبب الفروقات الوحشية للحرارة بين الليل والنهار. المسافرون الذين عبروا في مناسبة معينة تلك الجبال أكدوا أنهم كانوا يسمعون عند الفجر أصواتاً، صراخاً ونحيباً، مع أن الأمر في الواقع يتعلق بتشقق الحجارة حينما تنخفض حرارتها بشكل مفاجئ.

مكان أجرد في الحقيقة، في مركز منطقة هي جرداء في حد

(*) مَغِرَة: لون الحمرة وهو ليس بناصع. م.

ذاتها؛ منطقةٌ حيث يمكن التفكير بأن العلي القدير كان مصراً على رمي كل نفايات خلقه هناك، مكدساً إياها في خليط محيّر لصخور، بقع أملاح، رمال «وأراضٍ خاوية».

لكن في نظر غزال، فإن مرتفعات «سيدي الماديا» لا تبدو الآن كمنطقة ملعونة من آلهة السماء، إنما كمتاهة يمكن لجيش بكامله الاختباء فيها دون أن يأمل أحد بالعثور عليه.

ـ كم تبقى لدينا من البنزين...؟ ـ سأل أخيراً.

ـ ما يكفي لساعتين... ثلاثة كحدٍ أقصى. يُستهلك كثيراً بهذه السرعة وبمثل هذه الأرض... ـ توقف قليلاً ثم أضاف بقلقٍ ـ: لاأعتقد بأننا سنصل إلى البئر.

نفى غزال بإيماءة.

ـ لن نذهب إلى البئر ـ أشار.

ـ لكنك قلت...!

وافق الطارقي بحركة:

ـ أعرف ما قلت ـ اعترف ـ أنت سمعت ما قلت ورجالك أيضاً سمعوا... وأعرف أنهم سيقولون للآخرين ـ توقف قليلاً ـ . في تلك الأيام، وأنا وحيد في السبخة، تساءلت كيف كان ممكناً تعقب خطاي بعد أن قطعت مسافة كبيرة، لكن في الأمس رأيت كيف تتكلمون في هذا الجهاز، وفهمت. ما اسمه؟

ـ راديو.

ـ هذا هو... راديو. ابن عمي سليمان اشترى واحداً. شهران من حمل أحجار البناء كي يقتني شيئاً يطلق زعيقاً ويُخرج الضجيج! هكذا وجدتموني، أليس كذلك؟

أشار الملازم أول رازمان بالإيجاب صامتاً. مدَّ غزال يده. أخذ السماعة، انتزعها من الجهاز ورمى بها بعيداً. ثم حطم بعقب البندقية ما تبقى من الجهاز

ـ ليس عدلاً ـ قال ـ أنا وحدي وأنتم كُثر. ليس عدلاً أن تستخدموا بالإضافة إلى ذلك، طرقاً فرنسية.

أنزل الملازم أول سرواله وتبرّز مقرفصاً على بعد أقل من ثلاثة أمتار من «الجيب».

ـ أعتقد أحياناً أنك لا تدرك واقع الأمر ـ أشار بطبيعية ـ لا يتعلق الأمر بعراك بينك وبيننا. المسألة هي أنك ارتكبت جنحة وعليك أن تدفع الثمن. لا تستطيع أن تقتل دون حساب.

حذا غزال حذوه مترجلاً عن العربة، وتبرّز أيضاً على مسافة معينة دون أن يتغافل عن سلاحه.

ـ هذا ما قلته للكابتن ـ أجاب ـ لم يكن عليه أن يقتل ضيفي... ـ توقف قليلاً ـ لكن لم يعاقبه أحد على ذلك. كان عليّ أن أقوم أنا بذلك.

ـ الكابتن نفّذ الأوامر.

ـ مِمَنْ؟

ـ أوامر عليا، أفترض... من المحافظ.

ـ ومن هو المحافظ كي يعطي أوامر كهذه؟ أي سلطة له عليَّ، على عائلتي، مضربي وضيوفي...؟

ـ ما يعطيه الصلاحية هو كونه يمثل الحكومة في المنطقة.

ـ أي حكومة؟

ـ التابعة للجمهورية.

ـ ماذا يعني جمهورية؟

أطلق الملازم أول تنهيدة تأفف، بحث حوله عن حجرٍ مناسب ونظف بها نفسه. ثم وقف وزرر سرواله برصانة.

ـ لا تطلب مني أن أشرح لك الآن كيف يعمل العالم...

بحث الطارقي من جهته عن حجر، نظف نفسه، ثم رشق بشكل متكرر بالرمل على شرجه، مكث بضع لحظات ثم نهض واقفاً.

ـ لِمَ لا...؟ ـ أراد أن يعرف ـ تريد أن تشرح لي أنني ارتكبت جنحة، لكن لا تريد أن تشرح لي لماذا؟ يبدو لي ذلك عبثياً.

تقدم رازمان صوب «غالون» الماء وسكب منه بالوعاء المعلق بسلسلة في القسم الخلفي للعربة، مضمض فمه وغسل يديه.

ـ لا تهدره... ـ لفت الطارقي انتباهه ـ سوف أحتاجه.

أذعن ثم عاد ونظر إليه:

ـ قد يكون معك الحق... ـ اعترف ـ من المحتمل أنه كان عليَّ أن أشرح لك أننا لم نعد مستعمرة، وأنه مثلما تبدل كل شيء بالنسبة للطوارق عندما جاء الفرنسيون، تبدل الآن كل شيء حينما ذهبوا...

ـ إذا كانوا قد ذهبوا فمن المنطقي أن نعود إلى تقاليدنا القديمة.

ـ كلا. ليس منطقياً. المئة سنة هذه لم تذهب سدى. حدث الكثير من الأشياء... العالم «كل العالم» تبدل.

قام غزال بحركة واسعة من يده مشيراً إلى ما حوله.

ـ هنا لم يتبدل شيء. الصحراء مازالت نفسها وستكون على ما هي عليه خلال مئة سنة... لا أحد جاء ليقول لي: «خذ ماء، خذ طعاماً أو ذخيرة وأدوية، لأن الفرنسيين قد ذهبوا. لا نستطيع أن نحترم عاداتك لزمن أطول، قوانينك وتقاليدك التي تعود لأجدادك وأجداد أجدادك، لكن بالمقابل سنعطيك أخرى أفضل، كي تحصل على حياة أسهل في الصحراء؛ هي من السهولة حتى أنك لن تحتاج إلى هذه العادات...».

فكر الملازم أول بضع لحظات مطأطئ الرأس، متأملاً حذاءه وكأنه يشعر بالذنب في أعماقه وهازّاً منكبيه، جالساً كما كان على سلّم «الجيب»، ووافق.

ـ هذا صحيح... كان عليهم أن يقولوه لك، لكننا بلد فتي حصل للتو على استقلاله ونحتاج إلى سنين كي نتكيف مع الظروف الجديدة.

ـ في هذه الحالة... ـ كان منطق غزال من وجهة نظره ساحقاً ـ إذا كنتم غير قادرين على التكيف مع كل شيء فمن الأفضل احترام ما هو موجود. من الحماقة الهدم قبل البناء سلفاً.

أدرك رازمان أنه لا يملك جواباً. في الحقيقة لم يملك جواباً أبداً حتى ولا لنفسه عندما كانت الأسئلة تزدحم في عقله، في لحظات يهرع فيها للعون، مذعوراً من التلف الذي أصاب المجتمع الذي ولد فيه.

ـ من الأفضل أن نترك هذا ـ قال ـ لن نستطيع أن نتفق أبداً... هل تريد أن تأكل شيئاً؟

قام غزال بإشارة تنمُّ على الموافقة، وبحث في الصندوق الخشبي الكبير الذي يحتفظ فيه بالمؤونة. فتح علبة لحم وتقاسماها، ثم أضاف عليها البسكويت وقطعة من جبن الماعز القاسي والجاف، بينما الشمس ترتفع في الأفق وتسخن الأرض محدثة انعكاسات على الصخور السوداء في «سيدي الماديا» التي ترتسم في الأفق كل مرة أكثر كمالاً.

ـ إلى أين نذهب؟ أراد الملازم أول أن يعرف أخيراً.

أشار غزال إلى نقطة عن يمينه:

ـ هناك يقع البئر. نحن سنتوجه إلى تلك الصخرة المرتفعة الناتئة الأخرى على اليسار.

ـ عبرت في إحدى المرات من تحتها. لا يمكن الصعود.

ـ أنا، نعم أستطيع. فجبال الـ «هوايلا» تشبهها. وربما أسوأ! أنا أذهب إلى هناك لصيد الودّان. وقد اصطدت في إحدى المرات خمسة. كان لدينا لحم مجفف لمدة عام وأبنائي ينامون على جلودهم.

ـ غزال «الصياد»... ـ صاح الملازم أول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ـ تشعر بالفخر أن تكون من تكون وأن تكون طارقياً. أليس كذلك؟

ـ إن لم يكن كذلك لتبدلت. ألا تشعر أنت بالاعتزاز لكونك من تكون؟

هزّ رأسه.

ـ ليس كثيراً... ـ اعترف بصدق ـ في هذه اللحظات أفضل أن أكون إلى جانبك أكثر من الجانب الذي أنا فيه. لكن لا تُبنى البلاد هكذا.

ـ إذا كانت البلدان تبنى بالقيام بأعمال غير عادلة تكون نهايتها وخيمة... ـ أوضح الطارقي ـ من الأفضل أن نذهب. لقد تحدثنا كثيراً.

شرعا بالمسير، انفجر إطار من جديد، وبعد ساعتين بدأ المحرك بالتعطل، فرقع ثم توقف تماماً على بُعد خمسة كيلومترات من النقطة التي ترتفع فيها الصخرة العالية، مشحوذة القمة، حيث ينتهي هناك «عِرق» تيديكن الكبير.

ـ إلى هنا وصلنا...! ـ قال رازمان بينما راح يراقب بانتباه الجدار الأملس، الأسود والبرّاق، الذي يشبه جداراً لقلعة «السيكلوب»(*) العمالقة ـ أتريد حقيقةً التسلق من هناك؟

أشار غزال بالإيجاب صامتاً، قفز إلى الأرض وبدأ بتعبئة حقيبة الجنود بالمأكولات والذخيرة. أفرغ الأسلحة من الذخيرة، تأكد من عدم بقاء رصاصة واحدة في حجرة الانفجار، وتفحص البنادق العسكرية مختاراً الأفضل بينما ترك بندقيته فوق المقعد:

ـ أهداني إياها والدي حينما كنت طفلاً ـ علّق ـ ولم أستخدم

(*) السيكلوب: مسوخ عمالقة لهم عين واحدة وسط الجبهة. م.

غيرها أبداً... لكنها الآن أصبحت قديمة، وفي كل يوم يصبح العثور على ذخيرة لعيارها أكثر صعوبة.

ـ سأحتفظ بها كقطعة متحفيّة ـ أجاب الملازم أول ـ سأضع عليها لوحة: «تنتمي إلى غزال صياح (قاطع طريق ـ صياد)».

ـ لست قاطع طريق.

ابتسم مهدئاً إياه.

ـ إنها مزحة فحسب...

ـ المزاح جيد في الليالي، إلى جانب الصِلاء، وبين الأصدقاء ـ توقف قليلاً ـ الآن سأقول لك شيئاً: لا تلاحقني أكثر، لأنني سأقتلك إذا عدت ورأيتك.

ـ عليّ أن ألاحقك إذا ما أمروني بذلك ـ لفت انتباهه.

توقف الطارقي عن عمله في إفراغ قربته القديمة وملئها بماء نظيف، هازاً رأسه غير مصدق:

ـ كيف يمكنك أن تعيش مرتبطاً بما يأمرونك به؟ ـ سأل ـ كيف تستطيع أن تشعر بأنك رجل، وحر، متعلقاً دائماً بإرادة الآخرين؟ إذا قالوا لك: «لاحق بريئاً» تلاحقه. إذا قالوا لك: «اترك بسلام مجرماً مثل الكابتن»، تتركه بسلام. لا أفهم...!

ـ الحياة ليست بهذه البساطة التي تبدو عليها هنا في الصحراء.

ـ لا تحملوا إذاً هذه الحياة إلى الصحراء. هنا واضح ما هو جيد أو سيء، عادل أو غير عادل ـ أكمل تعبئة القربة وتأكد من أن قُرَب الجنود ممتلئة أيضاً. «الغالون» أصبح فارغاً تقريباً، فنبهه الملازم أول:

ـ سوف تتركني من دون ماء...؟ ـ سأل قلقاً ـ أعطني قربة على الأقل.

رفض بثبات.

ـ قليل من الظمأ يجعلك تفهم كيف كنت أشعر في السبخة ـ أجاب ـ جيد أن تتعلم الظمأ في الصحراء.

ـ لكني لست طارقياً ـ قال محتجاً ـ ولا أستطيع العودة مشياً على الأقدام إلى المعسكر. إنه بعيد جداً وسوف أضل الطريق. أرجوك...!

رفض من جديد.

ـ عليك ألا تتحرك من هنا ـ نصحه ـ وعندما أصل إلى الجبال يمكنك أن تحرق البطانية وثياب جنودك. سيرون الدخان ثم يأتون لإنقاذك ـ توقف قليلاً ـ أتعطني كلمتك بأن تنتظر حتى أصل إلى الأعلى؟

أشار بالإيجاب صامتاً، وراقب دون أن يتحرك من مكانه كيف يحمل الطارقي حقائب وقِرَب الجنود، وقربته وأسلحته. لا يبدو كأنه يحمل ثقلاً، وبدأ بالابتعاد بخطوٍ ثابت، سريع، وحاسم دون أن يبالي بالقيظ.

كان قد ابتعد أكثر من مئة متر عندما قام رازمان بتشغيل بوق السيارة بإلحاح مما أجبره على الالتفات:

ـ حظاً سعيداً...! ـ صاح.

قام الآخر بحركة من يده، استدار نصف استدارة وتابع طريقه.

17

«تحب أشجار النخيل أن تكون رؤوسها في النار وأرجلها في الماء». يؤكد ذلك قول مأثور قديم، وكان أمام عينيه ما يقدّم إثباتاً لهذا المثل. إذ تمتد أكثر من عشرين ألف نخلة حتى تختفي عن البصر تقريباً في البعيد، مشرعةً ذؤاباتها في السماء دون أن تبالي بالقيظ الخانق، لأن جذورها تنفذ بثبات إلى الماء النقي والطري لمئة نبع وعدد لا يحصى من الآبار.

كان مشهداً بديعاً في الحقيقة، حتى عند سقوط أشعة الشمس اللاهبة عمودياً كالرصاص، مدمرة وخانقة، لأن في الداخل، في المكتب الفسيح والمعتم، المحمي من العالم الخارجي بزجاج ثخين وستائر رقيقة ناصعة البياض يحافظ «المكيّف» فيه بشكل دائم، ليلاً ونهاراً وخلال جميع مراحل السنة، على درجة البرودة ذاتها. صقيعية تقريباً، هذا ما يشترطه المحافظ حسّان بن كوفرا دون نقاش كي يستطيع العمل بارتياح.

الصحراء، مرئية من هناك، وفي اليد كأس من الشاي وسيجار «دافيدوف ـ أمباساتريس» في الأخرى، تصبح بطريقة ما مُحتملة، ويمكن اعتبارها جنة حقيقية. لا سيما عند الغروب أحياناً، حيث تبدو الشمس كأنها راكنة لتستريح قليلاً في مضجع قمم النخيل التي تشكل الأفق الوحيد «للعقب» قبل أن تتوارى تماماً في مستوى منارة الجامع.

في الأسفل قرب شرفاته، في الحديقة الهادئة التي، كما تروي الأساطير أنَّ الكولونيل «دوبريه» نفسه، عندما طلب تشييد القصر، قام شخصياً بتصميمها، حدائق الورود والقرنفل تزاحمت مكان حقول التفاح والليمون، في ظل أشجار السرو المرتفعة حيث كان يهدل اليمام هناك بالآلاف أو تستريح طيور السمّاني التي تجيء بأسراب هائلة بعد طيران الهجرة الطويل.

كان «العقب» بديعاً لا مجال للشك؛ من أجمل واحات الصحراء، من مراكش إلى شواطئ النيل، ولذا اختيرت عاصمة لمنطقة، هي لوحدها، أكبر من كثير من البلدان الأوروبية. ومن ذلك المكتب الصقيعي في القصر كان المحافظ «الذوّاق» حسّان بن كوفرا يقود مملكته بالسلطة المطلقة كوالٍ، بيد حازمة، إيماءات مُقاسة، وكلمات جارحة.

ـ أنت، أيها الملازم أول إنسان غير جدير ـ قال، ثم عاد ونظر إليه بابتسامة ملائمة أكثر للتهنئة مما هي للإهانة ـ إذا كانت دزينة من الرجال لا تكفي للقبض على فارّ مسلح ببندقية عتيقة، ماذا تحتاج إذاً؟ كتيبة؟

ـ لم أشأ وضع حياة الآخرين في خطر ياصاحب المعالي. أعرف ماذا قلتُ. يمكنه ببندقيته العتيقة أن يقتلنا الواحد تلو الآخر، دون أن يسمح لنا بالاقتراب. تسديده أسطوريٍ، ورجالنا لم يطلقوا أربعين طلقة في حياتهم حتى... ـ توقف قليلاً ـ لدينا أوامر بعدم هدر الذخيرة.

ـ أعلم ـ اعترف المحافظ تاركاً الشرفة، عائداً إلى طاولة المكتب المهيبة ـ أنا نفسي أعطيت هذا الأمر. إذا لم يكن ثمة حرب قريبة فسيكون من التبذير أن نجعل من أول جندي جديد رامٍ من الدرجة الأولى، بينما سيعود خلال عام إلى بيته... يكفي أن يعُرف الضغط على الزناد.

ـ لكن ذلك لم يكن كافياً، يا صاحب المعالي. واعذر لي

جسارتي. في الصحراء مراراً ما تكون حياة الإنسان متعلقة بقدرته على التسديد ـ بلع ريقه ـ هذه كانت إحدى الحالات ـ خلص إلى القول.

ـ اسمع أيها الملازم أول... ـ أجاب حسّان بن كوفرا دون أن يفقد رصانته ـ وفي الحقيقة لا أحد يتذكر أنه فقدها قط ـ خذ بعين الاعتبار أنني أستطيع قول هذا بحرية لأنني لست عسكرياً. يبدو لي إن احترام حياة الجنود هو شيء حسن، لكن هناك حالات، وهذه واحدة منها ـ أوضح عن قصد ـ على هؤلاء الجنود أن يقوموا بواجبهم قبل كل شيء، لأن شرف الجيش الذي ينتمون إليه على المحك. السماح لبدوي بأن يقتل كابتن وأحد أدلائنا، ثم يعرّي جنديين ويجعل من ملازم أول سائقاً له عبر الصحراء، يشكل قلة اعتبار لكم كقوة عسكرية، ولي كسلطة عليا في المنطقة.

وافق الملازم أول رازمان بصمت، كابحاً ما استطاع قشعريرة انتابته، إذ أنَّ بزته الخفيفة لم تكن ملائمة لبرودة ذلك المكتب.

ـ طلبتم مساعدتي في محاولة القبض على رجل وإخضاعه للمحاكمة ياصاحب المعالي ـ أجاب، ساعياً لمنح قوة ورباطة جأش لكلماته ـ وليس لقتله ككلب ـ توقف قليلاً ـ من أجل التصرف كشرطي كان عليّ أن أحصل على أوامر عليا، واضحة جداً ومحددة. أردت التعاون، وأعترف أنَّ تصرفي لم يوافه الحظ، لكنني أعتقد بصدق أن الأسوأ هو العودة مع خمس جثث.

رفض المحافظ ببطء شديد، واتكأ إلى الخلف في مقعده الوثير وكأنه يقول، انتهت المحادثة.

ـ هذا، أنا من عليه أن يقرر ذلك، ومن التقارير التي وصلتني كان من الأفضل لنا الجثث. لقد فرضنا الاحترام الموروث عن الفرنسيين على قبائل البدو الرحل، والآن للمرة الأولى، بفضل هذا البدوي، وعدم جدارتك التي برهنت عليها، تصدع هذا الاحترام. ليس جيداً ـ حَكَم ـ كلا. ليس جيداً.

ـ آسف.

ـ وستتأسف أكثر أيها الملازم، أؤكد لك. اعتباراً من اليوم ستتعين في موقع «عدوراس» لتحل محلَّ الكابتن غالب الفاسي.

لاحظ الملازم أول رازمان أنَّ عرقاً بارداً اجتاحه دون أن يكون للمكيف علاقة بذلك، وساقاه ترتجفان حتى أنهما كادتا تصطدمان ببعضهما.

ـ «عدوراس»! ـ ردد غير مصدق ـ هذا غير عادل يا صاحب المعالي. يمكن أن أكون قد ارتكبت خطأ، لكن ليس جُنحة.

ـ «عدوراس» ليس سجناً ـ لفت انتباه محاوره بهدوء ـ إنه موقع متقدم فحسب. وسلطتي تسمح لي بإرسال من أراه مناسباً إلى هناك.

ـ لكن الجميع يعرف أنه مكان مقتصر على اللصوص... حثالة الجيش!

هزَّ المحافظ حسّان بن كوفرا كتفيه بلا مبالاة، وبدأ بدراسة تقرير كان أمامه على المكتب، متظاهراً بالاهتمام العميق به. ودون أن ينظر إليه عقّب:

ـ هذا مجرد رأي، وليس أمراً موافقاً عليه رسمياً... لديك شهر لتسوية شؤونك وتنظيم انتقالك.

أراد الملازم أول أن يقول شيئاً، لكنه أدرك ألّا جدوى من ذلك. حيّا بصرامة وتوجه إلى الباب متضرعاً إلى السماء أن يتوقف ارتعاش ساقيه، كي لا يمنح الرضا لابن الكلبة ذاك، إذا ما رآه يقع على الأرض.

في الخارج كان عليه أن يسند جبهته إلى إحدى أعمدة المرمر، ومكث بضع لحظات لأنه لم يجد نفسه قادراً على هبوط درج المرمر المهيب دون أن يتدحرج أمام أنظار عشرات الموظفين والعاملين، حتى يصل إلى الحديقة وجنائنها.

عَبَر أحد هؤلاء الموظفين من خلفه بصمت، طرق باب المكتب ثلاث مرات، ثم دخل مغلقاً وراءه.

ترك المحافظ التظاهر بدراسة التقرير وتأمل منارة الجامع عبر النافذة دون أن يتحرك من كرسيه، أحنى رأسه انحناءة خفيفة صوب القادم الجديد، الذي توقف باحترام على طرف السجادة، وسأل:

ـ ماذا يحدث، أنور؟

ـ ما من خبر عن الطارقي ياصاحب المعالي، لقد اختفى.

ـ لا أستغرب... ـ اعترف ـ في شهرٍ، واحدٌ من «أبناء الريح» هؤلاء قادر على اجتياز الصحراء من طرفها إلى طرفها. سيكون قد عاد إلى ذويه. أنعرف بدقة من يكون على الأقل؟

ـ غزال صياح، «إنموشار» من كيل ـ تالغيموس. يتنقل في أراضٍ شاسعة بالقرب من جبال «الهوايلا».

ألقى المحافظ حسّان بن كوفرا نظرة على الخريطة الضخمة للمنطقة، المعلقة على الجدار، وهزّ رأسه متشائماً.

ـ جبال «الهوايلا»! ـ كرر ـ تقع بعيداً، على الحدود...

ـ الحدود في هذه المنطقة عملياً غير موجودة، سيدي، ولم يحددها أحد بدقة.

ـ «لا شيء» مُحدد هناك بدقة ـ لفت انتباهه ناهضاً ومتمشياً ببطء في المكتب الفسيح ـ البحث عن طارقي في تلك الأقفار الموحشة، كالبحث عن سمكة في المحيط... ـ عاد ونظر إليه وجهاً لوجه ـ احفظ القضية في الأرشيف.

أنور الموجكري، سكرتير كفؤ، تحت إمرة المحافظ المباشرة منذ أكثر من ثماني سنوات، وقد سمح لنفسه بنعمة التبرم بإيماءة معبراً عن عدم قناعته:

ـ لن يعجب ذلك العسكر يا صاحب المعالي... لقد قتل كابتن...

ـ كانوا يزدرون الكابتن غالب الفاسي ـ ذكّره ـ كان حيواناً... ـ تناول من جديد سيجار «دافيدوف» وأشعله ببطء ـ كما يزدرون السرجنت الحيدري...

ـ هؤلاء الأنواع من الناس وحدهم القادرون على كبح حثالة «عدوراس»...

ـ الآن يجب أن يقوم بهذا العمل الملازم أول رازمان...

ـ رازمان...؟ ـ اندهش الموجكري ـ نقلتم رازمان إلى «عدوراس»...؟ لن يتحمل ثلاثة أشهر ـ ابتسم متسلياً ـ لذا كان على أهبة أن يغمى عليه هناك في الخارج. سينتهون إلى اغتصابه قبل أن يقطعوا عنقه.

ترك المحافظ نفسه يتهاوى على أحد المقاعد الثلاثية الواسعة من الجلد الأسود التي تحتل ركن المكتب، أطلق في الهواء عموداً من الدخان، ونفى بإيماءة:

ـ ربما لا... ـ غامر ـ ربما يستيقظ، يعارك من أجل حياته ويدرك أنه لا يستطيع المجيء إلى هذه المنطقة كي يقرأ (Beau Geste) ويقلّد «دوبريه» ـ توقف طويلاً ـ أوكلوا إليَّ بمهمة: تكنيس كل بقايا الرومانسية القديمة المنحطة والأبوية المرَضيّة من المنطقة ودفع هذه المحافظة وأناسها إلى الإذعان من أجل الخير العام. يوجد هنا بترول، حديد، نحاس، فوسفات وألف ثروة أخرى مما نحتاجه إذا أردنا أن نتحول إلى أمة جبارة متطورة وحديثة... ـ نفى متيقناً ـ ولكن ليس مع رجال مثل الملازم أول رازمان نستطيع أن نحصل على ذلك، إنما مع رجال من صنف مالك أو الكابتن غالب... من المؤسف أن نعترف بذلك، لكن الطوارق ليس لهم حق الوجود في ذروة القرن العشرين، مثلما ليس لدى هنود الأمازون، كما لم يكن للهنود الحمر الأمريكيين حق الوجود. هل تتصور قبائل «السيوكس» مازالوا يطوفون مروج الغرب الأوسط، يطاردون

قطعان الجواميس بين آبار البترول أو المراكز الذريّة؟ ثمة أشكال من الحياة تكمل حقبة تاريخية ثم يُحكم عليها بالزوال، وهذا يحدث، شئنا أم أبينا، مع البدو الرحّل عندنا. يجب تكييفهم أو القضاء عليهم.

ـ يبدو ذلك قاسياً جداً...

ـ كذلك بدا قاسياً عندما بدأنا القول بوجوب طرد بعض الفرنسيين الذين كانوا يعيشون بيننا منذ ما يقارب المئة عام. حتى إن كثيراً منهم كانوا أصدقائي الشخصيين، ذهبنا معاً إلى المدرسة، وكنت أعرفهم بالاسم وبأذواقهم. لكن حانت اللحظة للقضاء عليهم دون أن نقع بالعاطفية، وهذا ما فعلناه. ثمة أشياء يجب أن تكون فوق الأخلاق البرجوازية، وهذه إحداها ـ توقف طويلاً من جديد ومتأملاً ـ الرئيس يمتلك الوضوح التام، وهذا ما قاله لي: «حسّان... الرحّل أقلية على وشك الزوال، منطقياً. إما أن نحوّلهم إلى عمال مفيدين أو نعجِّل في زوالهم كي نجنبهم العذاب ونتجنب المشاكل...».

ـ مع ذلك في خطابه الأخير... ـ غامر بوجلٍ.

ـ أوه أنور، هيّا...! وبَّخه كما يوبِّخُ صبي ـ هذه ليست أشياء تقال على الملأ، فقسم من هؤلاء الرحّل يستمعون، والعالم يضع عينه على تطورنا كبلد مستقل... الأمريكيون مثلاً، تحولوا إلى أكبر مدافعين عن حقوق الإنسان في الوقت الذي قضوا فيه على حقوق هنودهم.

ـ كانت أزمنة مختلفة.

ـ لكن الظروف متشابهة. أمة استقلت حديثاً، تحتاج إلى استثمار كل ثرواتها، والتخلص من عبء ثقيل وحمل بشري لا يمكن استيفاؤه... نحن على الأقل نعطيهم فرصة الاندماج في الحياة العامة. لا نبيدهم رمياً بالرصاص كما أننا لا نسجنهم في «الاحتياط».

ـ والذين لا يريدون الاندماج؟ الذين مازالوا يعتقدون، مثل غزال، بأن عليهم أن يحافظوا على تقاليدهم القديمة التي تتعلق بها حياة الصحراء؟ ما الذي سنفعله بهم؟ نطاردهم بالرصاص مثلما طاردوا الهنود الحمر؟

ـ كلا، طبعاً... نطردهم ببساطة. أنت نفسك قلت إن الحدود في الصحراء لم تُحدد وهم لا يحترمونها... فليتجاوزوها... فليذهبوا إلى أخوتهم في البلدان الأخرى... ـ هزّ يده في الهواء ـ لكن إذا ما بقوا فعليهم أن يتكيفوا مع نمط حياتنا أو يتحملوا العواقب.

ـ لن يتأقلموا... ـ أجاب أنور الموجكري بقناعة ـ لقد عاشرتهم بعمق هذه الفترة، وأنا على يقين، مع أن بعضهم تخلّى عن عاداته، لكن الأكثرية ستتابع تشبثها برمالهم وعاداتهم... ـ أشار إلى الخارج، إلى المئذنة البعيدة، والمؤذن فيها يدعو المؤمنين للصلاة ـ حلت ساعة الصلاة... ستذهب إلى المسجد؟

أومأ المحافظ بالإيجاب صامتاً. اقترب من المنضدة، أطفأ «الهابانو» ساحقاً إياه في مرمدة ثقيلة من الكريستال، وتصفح الوثائق التي كان يدرسها:

ـ سنعود فيما بعد ـ أوضح ـ فلتبقَ إحدى السكرتيرات؟ يجب إرسال هذه الوثائق إلى العاصمة غداً.

ـ ستذهب للعشاء في المنزل؟

ـ كلا. فليخبروا زوجتي.

خرجا. أعطى أنور بعض الأوامر، وركض نازلاً الدرج ليلحق به في اللحظة التي صعد فيها عربته السوداء؛ وكان السائق قد أشغل فيها المكيف بأقصى طاقته. قطعا المسافة القصيرة، صليا إلى جانب بعضهما محاطين ببدو محترمين تركوا لهما مكاناً واسعاً بمحاذاتهم. تأمل المحافظ برضى النخل الظليل، وهو مسحور بتلك

الساعة من الغروب، فقد كانت بلا شك الأجمل في الواحة، كما الأصباح هي اللحظات الأكثر سحراً في الصحراء، وكان يستمتع بالتنزه ببطء عبر الحدائق والآبار، مراقباً كيف تجيء مئات الطيور من الأقاصي كي تقضي الليل على قمم الأشجار.

يعلم أنه في هذه الساعة تستيقظ الروائح أيضاً من سباتها أثناء قيظ النهار، مسحوقة بالشمس العنيفة، وطليقة الآن روائح الورد، والياسمين والقرنفل. والمحافظ حسّان بن كوفرا تكتنفه القناعة بأنه لا يوجد مكان في العالم تصل رائحة الورد فيه إلى هذه الدرجة في تلك الأرض الساخنة والثريَّة.

صرف السائق بإيماءة، وسلك ممرات الحدائق الضيقة ببطء؛ متناسياً لبضع دقائق الألف مشكلة التي كانت تؤرقه كحاكم لمنطقة خربة ولأناس أنصاف متوحشين. الوفي له أنور يتبعه كظله، واعياً أنه في هذه اللحظات يفضل الصمت، ومدركاً سلفاً كل نقطة يتوقف فيها، أين يُشعل «هابانو»، ومن أي قسم من أقسام الورد يقطف باقة لطاولة المساء إلى جانب سرير «تامات». تحولت تلك النزهات إلى طقس يومي تقريباً، ويجب أن يشتد القيظ كثيراً أو يتراكم العمل بشكل مفرط لكي يتخلى صاحب المعالي عما يشكل تمرينه وتسليته الوحيدة.

أقبل الليل بالسرعة التي يسقط فيها دائماً فوق المناطق الاستوائية، وكأنه لا يريد أن يجعل الرجل يستمتع بإفراط بجمال وسكينة الغروب، لكنه لم يكن يبالي بالعتمة التي خيّمت في دقائق على الجنائن وواحة النخيل، لأنه يعرف مغمض العينين كل درب، وكل نبع، وأضواء القصر هناك في البعيد كافية كي يعرف الاتجاه.

لكن هذه المرة، وقبل أن تنغلق العتمة بشكل كامل، انبثق ظل من خلف نخلة، أو ربما من الأرض ذاتها. وحتى قبل تبينه تماماً، وقبل أن يدركا بوضوح بأنه يُشهر مسدساً ثقيلاً، أدركا أنه هو، وأنه كان ينتظرهما.

كان أنور يريد الصراخ، لكن الفوّهة السوداء للمسدس توقفت على بعد شبر أمام عينيه.

- اسكت! - أمر - لا أريد إيذاءك.

المحافظ بن كوفرا لم يرتبك حتى.

- عمّا تبحث إذاً؟

- عن ضيفي. أتعلم من أكون؟

- أتخيل... - توقف قليلاً - لكن ضيفك ليس عندي...

نظر إليه غزال صياح لحظة طويلة وأدرك أنه لا يكذب.

- أين هو؟ - أراد أن يعرف.

- بعيداً جداً - توقف - لا جدوى. لن تجده أبداً.

لمعت ما وراء اللثام عينا الطارقي السوداوان بحدة لبضع لحظات. ضغط بقوة على عقب السلاح:

- سوف نرى... - قال ثم أشار إلى أنور الموجكري - تستطيع الذهاب - أمر - خلال أسبوع إذا لم يظهر عبد الكبير، سليماً، طليقاً ووحده في «الغويلتا» شمال جبال «سيدي الماديا»، سأقطع رأس سيدك. هل فهمت؟

لم يشعر أنور الموجكري بأنه قادر على الإجابة، وكان حسّان بن كوفرا الذي فعل:

- إذا كنت تبحث عن عبد الكبير، فمن الأفضل أن تطلق عليَّ رصاصة في هذا المكان ذاته، ونتجنب سوية الإزعاجات - أكد له مقتنعاً - لن يسلموك إياه أبداً.

- لماذا؟

- لن يوافق الرئيس.

- أي رئيس؟

- أي رئيس يكون؟ رئيس الجمهورية.

- حتى ولا مقابل حياتك؟

- حتى ولا مقابل حياتي.

هزّ غزال صياح كتفيه، والتفت بهدوء إلى أنور الموجكري:

- اقتصرْ على نقل رسالتي - توقف - وحذّر هذا الرئيس، كائن من كان، إذا لم يُعِدْ لي ضيفي سأقتله أيضاً.

- أنت مجنون!

- كلا. أنا طارقي - لوّح بالسلاح - الآن اذهب، وتذكّر: خلال أسبوع في «الغويلتا» شمال جبال «سيدي الماديا» - غرز فوهة السلاح في خاصرة المحافظ، ودفعه في الاتجاه المعاكس - من هنا! - أشار.

تقدم أنور الموجكري بضع خطوات ثم التفت في الوقت المناسب كي يراهما وقد اختفيا بين ظلال النخيل.

ثم ركض صوب أضواء القصر.

18

ـ عبد الكبير هو صانع استقلالنا، بطل قومي، الرئيس الأول للأمة كأمة. هل من الممكن حقيقة أنك لم تسمع أحداً يتكلم عنه؟

ـ أبداً.

ـ أين كنت خلال كل هذه السنين؟

ـ في الصحراء... لم يأتِ أحداً ليحدثني عمّا يحدث.

ـ ألم يعبر مسافرون بمضربك؟

ـ قلّة... وكان لدينا أشياء أهمّ للتحدث عنها. ما الذي حدث مع عبد الكبير؟

ـ خلعه الرئيس الحالي... نزع منه السلطة، لكنه كان يحترمه ولم يتجرأ على قتله. كافحا معاً، ومعاً أمضيا سنوات عديدة في سجون الفرنسيين ـ هزَّ رأسه متأسفاً ـ كلا لم يستطع قتله... لا ضميره ولا شعبه كانا سيغفران له.

ـ لكن سَجَنهُ، أليس كذلك؟

ـ أبعده. إلى الصحراء.

ـ أين؟

ـ لقد قلت لك. إلى الصحراء.

ـ الصحراء شاسعة جداً.

ـ أعلم. لكنها ليست كبيرة بحيث لا يستطيع أن يجده أحد مُريديه ويساعده على الهرب. وهكذا وصل إلى خيمتك.

ـ من كان الفتى؟

ـ أحد المتعصبين له ـ تأمل طويلاً الصِلاء التي كانت تتلاشى ببطء شديد، بدا وكأنه يغرق في أفكاره. حينما تكلم لم يكن ينظر إلى الطارقي، إنما كمن يتكلم مع نفسه تقريباً ـ أحد المتعصبين الذين يريدون قيادتنا إلى حرب أهلية. إذا نال عبد الكبير حريته، سينظم المعارضة في المنفى، وننتهي غرقى في حمام من الدم. الفرنسيون الذين طاردوه في زمن سابق، يساعدونه الآن ـ توقف قليلاً ـ يفضلونه علينا...

رفع وجهه وأجال بصره ببطء في المغارة الضيقة ليقف به أخيراً على غزال الذي كان يراقبه بدوره، متكئاً على نتوء من الصخر. نبرة صوته كانت صادقة حينما أضاف:

ـ أتدرك الآن لماذا أكرر القول مرة تلو الأخرى بأنك تهدر الوقت؟ لن يبادلونني به أبداً، وأَعذرهم. لست أكثر من محافظ بسيط: موظف وفيّ ومفيد، يكمل عمله بأحسن ما يستطيع، لكن لا أحد يخاطر من أجله بحرب أهلية... يجب أن تمضي سنين كثيرة جداً حتى تذوب ذكرى عبد الكبير في العدم وتختفي هالته... تناول باحتراس، بيديه المقيدتين كما هما عليه، كأس الشاي وأخذه إلى شفتيه، راشفاً منه كي لا يحترق ـ والأمور لا تمضي على ما يرام في هذا الوقت ـ تابع ـ ارتكبوا أخطاء؛ أخطاء من خاصية البلدان المتحررة حديثاً، والحكومات الجديدة، لكن هناك الكثيرين الذين لا يفهمون الوضع بهذه الطريقة وهم مستاؤون... عرف عبد الكبير كيف يَعِدُ بأشياء... أشياء ينتظر الشعب منا تحقيقها، ولا نستطيع منحها أبداً لأنها طوباوية...

التزم الصمت ووضع كأس الشاي من جديد على الرمل، قريباً

من النار، عينا الطارقي المسمرتان به تراقبانه وتطلان من فوق اللثام وكأنهما تريدان الإيغال في ما وراء جبهته.

ـ تخافه ـ أدلى غزال برأيه أخيراً ـ أنت وجماعتك تخافونه بذعر، أليس كذلك...؟

وافق بإشارة مقتنعاً.

ـ أقسمنا له على الوفاء، مع أني لم أشارك في المؤامرة وعلمت بها بعد أن حدث كل شيء، بيد أنني لم أتجرأ على الاحتجاج ـ ابتسم بحزن ـ اشتروا صمتي بتعييني حاكماً مطلقاً على بقعة شاسعة، ووافقت ممتناً. لكن معك الحق، وفي أعماقي مازلت أخافه. جميعنا نخافه لأننا نغفو ونحن على يقين بأنه سيعود يوماً طالباً الحساب. عبد الكبير يعود دائماً.

ـ أين هو الآن...؟

ـ في الصحراء مرة أخرى.

ـ في أي مكان من الصحراء؟

ـ لن أقول لك أبداً.

حدّق به الطارقي بصرامة، ووجد في نبرة صوته ما ينم على القناعة التامة بما يقول.

ـ إذا أردت فستقول ـ أكد له ـ أسلافي كانوا مشهورين بقدرتهم على تعذيب أسراهم، مع أننا لم نعد نفعل ذلك، بيد أن الطرق القديمة وصلتنا بالتناقل من فم إلى فم. كفضولٍ محض ـ تناول إبريق الشاي وملأ الكؤوس من جديد ـ اسمع! ـ تابع ـ ربما لا تفهم لأنك لم تولد في هذه الأرض، لكنني لا أستطيع النوم بسلام إذا لم أعرف أن هذا الرجل طليق مثل اليوم الذي ظهر فيه أمام باب خيمتي. إذا كان عليَّ من أجل ذلك أن أقتل، أخرِّب، وحتى أعذّب فسأفعل، رغم أسفي لذلك. لا أستطيع أن أعيد الحياة للذي أرسلت لقتله، لكنني أستطيع إعادة الحرية للآخر.

ـ لا تستطيع.

نظر إليه محدقاً بغرابة:

ـ هل أنت متأكد؟

ـ تماماً. الوحيد الذي يعرف مكانه في «العَقَبِ» هو أنا. ومهما بلغ تعذيبك لي لن أقول لك.

ـ أنت مخطئ ـ أدلى غزال برأيه ـ أحد ما آخر يعرف.

ـ مَنْ؟

ـ زوجتك.

فرح لإدراكه بأنه أصاب، لأنَّ وجه حسّان بن كوفرا اضطرب للمرة الأولى فَقَدَ رباطة جأشه. أراد أن يحتج وجلاً، لكن غزال قاطعه بإيماءة.

ـ لا تحاول خداعي ـ طلب منه ـ منذ خمسة عشر يوماً وأنا أراقبك، ورأيتك معها... إنها واحدة من تلك النساء التي يقاسمها الرجل جميع أسراره بثقة مطلقة. أم لا...؟

نظر إليه بانتباه:

ـ أتساءل أحياناً فيما إذا كنت مجرد طارقي بسيط وجاهل ولدت وترعرعت في المكان الأكثر دنساً في الصحراء، أم أن أحداً آخر يختبئ خلف هذا اللثام.

ابتسم الطارقي ابتسامة خفيفة:

ـ يقولون أن سلالتنا كانت ذكية، متحضرة وقديرة، هناك في جزيرة كريت، في زمن الفراعنة. من علامات الذكاء والمقدرة أنهم حاولوا غزو مصر، لكن امرأة خانتهم، وخسروا المعركة الكبرى. بعضهم هرب صوب الشرق، استقروا قرب البحر وشكلوا شعب الفينيقيين وسيطروا على المحيطات. آخرون هربوا صوب الغرب، واستقروا فوق الرمال مسيطرين على الصحراء. بعد ذلك بألوف السنين جئتم أنتم البربر العرب الذين أخرجكم محمد من الجهل الأكثر حلكة...

ـ نعم، لقد سمعت بهذه الأسطورة التي تعلنون فيها انحداركم من سلالة الـ«غرامانِتِسْ» لكني لا أعتقد بها.

ـ يمكن ألا تكون صحيحة، لكن الصحيح أننا هنا قبلكم بزمن طويل، وأننا كنا دائماً أكثر ذكاء، لكن أقل طموحاً. تعجبنا حياتنا ولا نتطلع إلى أكثر من ذلك. ونفضل أن ندعكم تفكرون حولنا ما تشاؤون، لكن عند إثارتنا نعرف كيف نتصرف ـ خَشَّنَ صوته ـ ستقول لي أين عبد الكبير أم عليَّ أن أسأل زوجتك؟

تذكر المحافظ حسّان بن كوفرا ما أوصاه به وزير الداخلية عشيّة سفره إلى «العقب»:

ـ «لا تثق بالطوارق ـ قال له ـ لا تتركهم يأخذونك بمظهرهم، لأنني متأكد من أنهم يملكون العقول الأكثر تحليلية والأكثر دهاء في القارة. إنهم سلالة خاصة، حتى أنهم لو أرادوا لسيطروا علينا، سواء كانوا من الساحل أم من الجبال. يستطيع الطارقي أن يدرك ما هو البحر دون أن يكون قد رآه أبداً، ويستطيع حلّ مسألة فلسفية، لا أنا ولا أنت ندرك حتى مصطلحاتها المطروحة. حضارتهم غارقة في القدم، رغم أنهم كمجموعة اجتماعية بدأت بالانحلال بتغيير محيطهم، وفقدوا روحهم القتالية، بيد أنهم كأفراد مازالوا جديرين بشكل متميز. خذ حذرك منهم...!».

ـ الطارقي لا يؤذي امرأة أبداً ـ قال أخيراً ـ ولا أعتقد أنك الاستثناء. احترام المرأة بالنسبة لكم له ذات الأهمية تقريباً لقانون الضيافة. تخرق قانوناً لتفي بآخر...؟

ـ كلا، بالطبع ـ قَبل غزال ـ لكنني لن أحتاج لإيذائها. ستقول لي عندما تدرك أن حياتك متعلقة بالإفصاح عن مكان وجود عبد الكبير أو عدم الإفصاح عنه.

فكّر حسّان بن كوفرا بـ «تامات»، بالثلاثة عشر عاماً من زواجهما، وبولديه، وكان على قناعة مطلقة بأن الطارقي على حق.

ولا يستطيع لومها، لأنه يعرف بأنه سيفعل الشيء ذاته. أولاً وأخيراً الاعتراف بمكان وجود عبد الكبير لا يعني إطلاق حريته.

ـ موجود في حصن «الغيريفييس» ـ قال أخيراً.

اكتنف غزال الانطباع بأنه يقول الحقيقة، وحَسَبَ المسافة ذهنياً.

ـ أحتاج ثلاثة أيامٍ للوصول، ويوم آخر للحصول على جمال ومؤونة... ـ فكر طويلاً وفي نبرة صوته شيء من التسلي ـ هذا يعني أنه عندما ينصبون كميناً في «الغويلتا» في «سيدي الماديا» سأكون قد وصلت إلى حصن «الغيريفييس» ـ شرب شايه ببطء شديد، وتلذذ ـ ينتظرنا يوم؛ يومان كحد أقصى قبلِ أن يدركوا الحقيقة ويرسلوا خبراً كي ينتظرونني... لدي وقت! ـ أكّد متيقناً ـ نعم. أعتقد أنه لدي وقت.

ـ وماذا ستفعل بي؟ ـ سأل المحافظ مع ارتجافة طفيفة في نبرة صوته.

ـ كان عليّ قتلك، لكني سأترك لك ماء وطعام لعشرة أيام. إذا كان ما قلته لي هو الحقيقة، سأرسل إليك أحدهم. وإذا كذبت عليّ وعبد الكبير ليس في هذا المكان ستموت من الجوع والظمأ، لأن القيد مصنوع من جلد البعير وما من أحد يستطيع قطعه.

ـ كيف أعرف حقيقة أنك سترسل أحداً لأجلي؟

ـ لا تستطيع معرفته، لكني سأفعل... ألديك نقود؟

أشار المحافظ حسّان بن كوفرا بإيماءة من ذقنه إلى محفظته التي يحتفظ بها في الجَيب الخلفي لسرواله، فأخذها الطارقي. أقصى الأوراق النقدية الكبيرة على حِدة ثم قسمها بحذر إلى نصفين. احتفظ بقسم وترك القسم الآخر في المحفظة، واضعاً إياها إلى جانب الصِلاء.

ـ سأبحث عن بدوي، أعطيه أنصاف الأوراق النقدية هذه،

وأشرح له أين يمكن أن يجد النصف الآخر منها... ـ ابتسم تحت لثامه ـ من أجل كمية كهذه، أي بدوي يقضي شهراً على جمله. لا تقلق ـ هدأه ـ سيأتون لأجلك. الآن انزع سروالك.

ـ لماذا؟ ذُعِرَ.

ـ ستقضي عشرة أيام في هذا الكهف مقيد اليدين والقدمين... إذا ما تبولت ولوثت نفسك ستمتلئ بالبثور ـ قام بإشارة معبرة من يديه ـ ستكون أفضل إذا كانت مؤخرتك مكشوفة...

تأهب صاحب المعالي المحافظ حسّان بن كوفرا، السلطة العليا بلا منازع على منطقة تفوق مساحتها فرنسا، للاحتجاج، لكنه فكر بشكل أفضل، بلع اعتزازه وحنقه، وبدأ يفك بعسر الحزام والسراويل.

ساعده غزال في نزعها، ثم شدّ قيده من جديد وجرده أخيراً من الساعة وخاتم مرصع بالماس.

ـ سأدفع بهذا ثمن الجمال والمؤن ـ أشار ـ أنا فقير وكان عليّ أن أقتل مطيّي. كان مهري بديعاً. لن أجد مثله أبداً.

جمع أشياءه، وترك قربة ماء وكيساً من الفاكهة المجففة مركونة إلى الحائط وأشار إليها بإيماءة.

ـ احرص عليها! ـ نصحه ـ الماء قبل كل شيء. ولا تحاول أن تحرر نفسك. فذلك يجعلك تتعرق وتحتاج بعدها للشرب، وفي هذه الحالة ربما لن يكفيك الماء. اسعَ كي تنام... هذا أفضل شيء: وأنت نائم لا تستهلك طاقة...

خرج. كان الليل قاتماً تحت سماء بلا قمر، تناثرت فيها النجوم التي تبدو هناك في الجبال أكثر قرباً وكأنها تلامس ذراها المرتفعة وقد انتصبت فوق رأسه، ومكث لحظات مفكراً ربما بالاتجاه أو برسم الطريق، في عقله، الذي عليه أن يسلكه من المكان الذي هو فيه إلى حصنٍ بعيد. يحتاج قبل كل شيء إلى مطايا، وإلى كميات كبيرة

من المؤونة، وقِرَباً لتخزين كل الماء الذي يستطيع حمله، لأنه متأكد من عدم وجود آبار في كل محيط «العِرق» في «تيك دابرا»، وأبعد إلى الجنوب تنفتح «أرض الخواء الشاسعة» حيث لا يعرف أحد بدقة نهاياتها.

مشى طوال الليل بخطاه تلك السريعة والمرنة، خطئ تنهك أَيَّاً كان، لكنها تشكل بالنسبة للطارقي شيئاً جوهرياً في الحياة، وفاجأه الفجر عند قمة هضبة تطل على وادٍ كان يجري فيه جدول منذ آلاف السنين. كان الرُحّل يعرفون أنه يكفي أن يحفروا نصف متر في ذلك الوادي، كي يقدم «أتانكور» ماءً يكفي لخمسة جمال. لذا كان طريقاً إجبارياً للقوافل القادمة من الجنوب، والمتجهة صوب واحة «العقب» الكبيرة.

استطاع أن يتبينّ ثلاثة مضارب موزعة على مجرى الجدول، وبدؤوا مع سنا الفجر الأول بتأجيج مواقدهم. جمعوا الدواب التي تقتات الكلأ على ضفاف مجرى الجدول، بينما هم يتهيؤون للشروع بالرحيل.

راقبهم بانتباه دون أن يترك لهم مجال لرؤيته، إلى أن تأكد بشكل مطلق من أنه لا يوجد جنود بينهم، حينها فقط قرر الترجل ليقف أمام الخيمة الكبرى التي صادفته في طريقه، حيث أربعة رجال فيها يرشفون شاي الصباح.

ـ ميتوليم، ميتوليم!

ـ السلام عليكم ـ كان الجواب الجماعي ـ تفضل بالجلوس، وتناول الشاي معنا. بسكويت؟

قدّم شكره على البسكويت، والجبنة الزنخة تقريباً، لكنها قوية ولذيذة، والتمر الريّان الذي رافقه شاي دسم حلو، كثير السكر، أدفأ جسده طارداً برد الفجر في الصحراء.

الذي بدا قائداً للمجموعة كان بدوياً ذو لحية خفيفة وعينين ماكرتين تحدقان بإمعان، سأل دون أي نبرة في صوته:

ـ أنت غزال؟ غزال صياح من كيل ـ تالغيموس...؟ أمام موافقته الصماء، أضاف ـ: إنهم يبحثون عنك.

ـ أعرف.

ـ هل قتلت المحافظ؟

ـ كلا.

نظروا إليه باهتمام حتى أنهم تركوا المضغ جاهدين على الأرجح لمعرفة أن ما يقوله هو الحقيقة أم لا.

أضاف البدوي أخيراً بطبيعية:

ـ هل تحتاج شيئاً؟

ـ أربع مهاري، وماء وطعام ـ أخرج من كيس صغير من الجلد الأحمر المعلق في رقبته، الساعة والخاتم، وعرضهما قائلاً ـ: أدفع ثمنها بهذا.

عجوز ضامر، بيدين طويلتين ورقيقتين كيدي «الماهِررو» تناول الخاتم وتفحّصه بتعابير من يتقن مهنته بينما ذو اللِحْيَة الخفيفة يتفحص بدوره الساعة الثقيلة.

سلّم الحرفي أخيراً الحِلية إلى رئيسه:

ـ يساوي عشرة جمال على الأقل ـ أكّد ـ والحجر الكريم فيه ممتاز.

وافق الآخر، احتفظ بالخاتم ومدَّ ذراعه معيداً الساعة.

ـ خذ ما تحتاج مقابل الخاتم ـ مبتسماً ـ هذه قد تحتاج إليها.

ـ لا أعرف استخدامها.

ـ أنا أيضاً لا أعرف، لكن عندما تريد بيعها سيدفعون لك ثمناً ممتازاً... إنها من الذهب.

ـ يعرضون نقوداً مقابل رأسك ـ علّق الحرفي دون أن يعطي أهمية لذلك ـ الكثير من النقود.

ـ هل تعلم أحداً يبتغي قبضها؟

ـ لا أحد منا ـ أوضح الأفتى من هؤلاء البدو والذي كان يتأمل الطارقي طوال الوقت بإعجاب لا شك فيه ـ هل تحتاج مساعدة؟ أستطيع مرافقتك.

على الأرجح والده الرئيس رفض بإيماءة تنمّ عن عدم الموافقة:

ـ لا يحتاج مساعدة، يكفيه أن تلزم الصمت ـ توقف قليلاً ـ ولا يجب أن نتدخل في ذلك. العسكر حانقون ولنا ما يكفينا من المشاكل معهم... ـ ملتفتاً إلى غزال ـ آسف، لكن عليَّ أن أحمي جماعتي.

وافق غزال بإشارة.

ـ أتفهَّمُ ذلك. فعلت الكثير ببيع جِمالك لي ـ وجّه نظرة تعاطف إلى الفتى ـ ومعك الحق: لا أحتاج مساعدة، فقط الصمت.

أحنى الفتى رأسه انحناءة خفيفة وكأنه يشكر له مراعاته، ثم انتصب واقفاً.

ـ سأختار لك أفضل الجِمال والعدد الذي تحتاجه وسأملأ لك القِرَب أيضاً.

ابتعد بخطوات سريعة تتبعه نظرات الآخرين، ومن دون شكٍ شعر الرئيس بالفخر والاعتزاز به.

ـ إنه شجاع وهَمَّام ويكنُّ الإعجاب لبطولتك ـ علّق ـ إنك تسلك طريقاً تتحول فيه إلى الرجل الأكثر شهرة في الصحراء.

ـ ليس هذا ما أبحث عنه ـ أجاب مقتنعاً ـ لا أبغي أكثر من العيش بسلام مع عائلتي ـ توقف قليلاً ـ وأن تُحترم قوانيننا.

ـ لن تستطيع العيش بعد الآن بسلام مع عائلتك ـ حذّره الحرفي ـ عليك أن ترحل من البلاد.

ـ ثمة حدود في جنوب «أرض الخواء» في تيك دابرا ـ أشار الرئيس ـ وأخرى من الشرق على مسافة ثلاثة أيام من جبال الهوايلا

ـ هزّ رأسه بسلبية ـ التي من الغرب بعيدة، بعيدة جداً. لم أصل إليها قط. من الشمال المدن والبحر. لم أذهب إليها أيضاً قط.

ـ كيف أعرف أنني تجاوزت الحدود وأنا في مأمن؟ ـ سأل باهتمام.

نظر الآخرون إلى بعضهم غير قادرين على معرفة الجواب. والذي لم يتكلم حتى تلك اللحظة، دهمائي «عكلي»، ابن العبيد، هزَّ كتفيه.

ـ لا أحد يعرف بدقة. لا أحد ـ كرر واثقاً مما يقول ـ نزلت في العام الماضي مع إحدى القوافل حتى النيجر، ولم نكن نعرف، لا في الذهاب ولا في الإياب في أي بلد كنا.

ـ كم استغرقتم من الوقت حتى وصلتم إلى النهر؟

تأمل الدهمائي الجواب محاولاً التذكر. أخيراً وغير مقتنع تماماً، غامر:

ـ شهر...؟ ـ نقر بلسانه وكأنه يحاول طرح بعض الأفكار الكريهة ـ ضعف العودة تقريباً. داهمنا الجفاف، جفّت الآبار وكانٍ علينا أن نقوم بدورة كبيرة كي نتجنب تيك دابرا. حينما كنت طفلاً، كانت توجد آبار جيدة ومروج على مسافة أيام كثيرة قبل الوصول إلى النهر، والآن تهدد الرمال ضفافه، والآبار جفت، واختفت الآثار الأخيرة للأعشاب. سهول كانت تقتات فيها قطعان «آل بويلس» لم تعد صالحة حتى للجمال الأكثر جوعاً، والواحات العامرة التي كانت تشكل ملجأً للراحة، لم يبق منها شيء حتى للذكرى ـ نقر بلسانه من جديد ـ وأنا لست عجوزاً... ـ أوضح ـ كلا، لست عجوزاً، الصحراء هي التي تتقدم بسرعة فائقة...

ـ بالنسبة لي لا يهمني أن تتقدم الصحراء وتبلغ أراضٍ أخرى ـ لفت غزال انتباهه ـ أنا في حالة جيدة هنا. ما يقلقني هو أنه حتى الصحراء لم تعد كبيرة كفاية كي يدعوننا نعيش بسلام. كلما اتسعت، كلما كان ذلك أفضل. ربما هكذا ينسوننا في يوم ما.

ـ لن ينسوا... ـ أكد الحرفي ـ وجدوا بترولاً، والبترول هو أكثر ما يهم «الرومي» أعرف ذلك لأنني عملت سنتين في العاصمة، وجميع الأحاديث هناك تدور دائماً، بشكل أو بآخر، حول البترول.

راقب غزال العجوز مجدداً باهتمام. «الماهرِرو» مثلهم مثل جميع حرفيي الأعمال اليدوية سواء عملوا بالفضة أو بالذهب، أو بالجلد والحجارة، يعتبرون بالنسبة للطوارق كطائفة أدنى تتموضع في الوسط بين «إموهاغ» وبين «إنقاد» أو تابع، حتى أحياناً بين تابع وعبد «عكلي». لكن حتى بهذا التصنيف يعتبر الطوارق أن الحرفيين يشكلون على الأرجح الطائفة الأكثر رقيّاً في كل نظامهم الاجتماعي حيث كثير منهم يعرف القراءة والكتابة، وبعضهم سافر إلى ما بعد حدود الصحراء.

ـ كنت مرة في إحدى المدن... ـ علق أخيراً ـ لكنها كانت صغيرة جداً وكان مايزال يحكمها الفرنسيون. هل تغيرت كثيراً الأشياء منذ ذلك الحين...؟

ـ كثيراً ـ اعترف ـ في ذلك الوقت كان الفرنسيون في طرف وفي الطرف الآخر كنا نحن. الآن صراع بين الأخوة، البعض يريد شيئاً والبعض الآخر يريد شيئاً آخر ـ هزّ رأسه بإشارة تنم عن الألم ـ عندما ذهب الفرنسيون قسّموا الأراضي بحدود، راسمين خطاً على الخريطة بحيث أن نفس القبيلة وحتى ذات العائلة يمكنها أن تنتمي إلى بلدين مختلفين. إذا كانت الحكومة شيوعية، تبقى شيوعية. إذا كانت الحكومة فاشية، تبقى فاشية؛ إذا كان الملك يحكم فهي ملكية....

قطع حديثه وتفحّص بدقة محدِّثه كي يسأل:

ـ تعلم ماذا يعني شيوعي؟

نفى غزال متيقناً:

ـ لم أسمع الكلام عنهم قط. هل هم طائفة؟

ـ أكثر أو أقل... لكن ليست دينية. سياسية فقط.

ـ سياسية؟ ردَّ دون أن يفهم.

ـ يطمحون إلى أن يكون الجميع متساوين، لهم الحقوق والواجبات نفسها، وأن توزع الثروة بين الجميع...

ـ يريدون المساواة بين الذكي والغبي، الإموهاغ والعبد، الشغيل والمتقاعس، المحارب والجبان...؟ ـ أطلق صيحة الدهشة ـ هم مجانين! إذا كان الله قد جعلنا مختلفين، لماذا يريدون أن يجعلونا متساوين؟ ـ أطلق تنهيدة ـ ما قيمة أن أكون قد ولدت طارقياً إذاً؟

ـ المسألة أكثر تعقيداً من ذلك ـ أدلى العجوز برأيه.

ـ أتخيل ذلك... ـ اعترف ـ يجب أن تكون أكثر، أكثر تعقيداً بكثير، لأن سخافة من هذا النوع لا تستحق حتى المناقشة ـ توقف وكأنه يعلن انتهاء الموضوع، وسأل ـ: هل سمعت مرة بالحديث عن عبد الكبير؟

ـ جميعنا سمعنا بالحديث عنه ـ تدخل شيخ البدو متقدماً على الحرفي ـ كان هو الذي طرد الفرنسيين وحكم السنوات الأولى بعدهم.

ـ أي نوع من البشر هو؟

ـ رجل عادل ـ اعترف الآخر ـ أخطأ، لكنه عادل.

ـ لماذا أخطأ؟

ـ كل من يثق بالآخرين إلى درجة تركهم يسلبون السلطة منه ويعتقلونه، هو رجل مخطئ.

التفت غزال إلى العجوز:

ـ هل هو من الذين يريدون أن يكون الجميع متساوين؟ ما اسمهم...؟

ـ شيوعيون...؟ ـ سأل الحرفي ـ كلا. لا أعتقد أنه كان شيوعياً تماماً، يقولون أنه كان اشتراكياً.

ـ وهذا ما هو؟

ـ شيء آخر.

ـ مشابه؟

ـ لا أعرف تماماً.

بحث عن إيضاح في وجوه الآخرين الذين اقتصروا على هزّ أكتافهم، مبينين ذات الجهل بالأمر، ثم هزّ كتفه بدوره طائعاً، مقتنعاً بأنه لن يصل إلى أي مكان وهو يطرح أسئلة من هذا النوع.

ـ عليَّ الذهاب... كان هذا كل ما قاله وهو ينهض منتصباً.

ـ السلام عليكم.

ـ السلام عليكم.

توجه صوب المكان الذي كانوا يشرفون فيه على إتمام حمولة الجمال، وتأكد بنظرة خبير أن كل شيء على ما يرام. امتطى الأسرع من بينها وقبل أن يجبره على النهوض أخرج الأوراق النقدية وقدّمها للفتى.

ـ ستجد الأنصاف الناقصة في مغارة «حناجر تاتاليت» على مسيرة نصف يوم. هل تعرفها؟

ـ أعرفها ـ أكّد ـ هناك خبأت المحافظ؟

ـ إلى جانب الأوراق النقدية ـ أجاب ـ خلال أسبوع عندما تمر من هناك في طريق العودة من «العقب» اعتقه...

ـ ثق بي.

ـ شكراً. وتذكّر خلال أسبوع، ليس قبل ذلك.

ـ كن حذراً. رافقك الله!

لكز الطارقي بكعب خفه رقبة المهري، الذي انتصب على قوائمه، تابعه الآخرون وهو يبتعد على مهل إلى أن اختفى تماماً خلف مجموعة من الصخور.

عاد الفتى آنذاك ليأخذ له مكاناً على باب الخيمة. ابتسم والده ابتسامة خفيفة.

ـ لا تقلق بشأنه ـ أشار ـ إنه طارقي، ولا يوجد أحد في العالم قادر على الإمساك بطارقي أوحد في الصحراء.

19

أيقظه الضوء والصمت.

نفذت أشعة الشمس بكثافة من النافذة ذات العوارض الحديدية، مضيئة الصفوف الطويلة للكتب، مرسلة بريقاً لجينياً من المرمدة النحاسية الممتلئة بأعقاب السجائر. لكن مع ذلك، ورغم الساعة المتقدمة من النهار، لم يسمع أي حركة في الفناء، وكان متأكداً بأنه لم يصدح نفير الصباح، ككل صباح.

أقلقه ذاك الصمت. عوّدته السنين على الروتين العسكري والصارم، كل عمل من أعماله يتبع فيه توقيتاً إسبارطياً صارماً، ولاحظ بغتة أن هذا التوقيت تبدل ولم يجعلوه يقفز من السرير في السادسة تماماً، مع نصف ساعة من الوقت لتنظيف نفسه قبل أن يقدموا له طعام الإفطار، مما سبب له كرباً لا يمكن تفسيره.

والصمت.

الصمت الخانق، في الفناء الصاخب أبداً، في مثل تلك الساعة بثرثرة الجنود قبل أن يجيء حمّ القيظ، والذي يجبره على القفز من السرير وارتداء سراويله والاقتراب من النافذة. لم يتبين أحداً. لا إلى جانب البئر ولا في شرفات الرماية في الزاوية الغربية للحصن، وهو الجزء الوحيد المرئي من الحائط هناك.

ـ هيه! ـ هتف شاعراً بالضيق قليلاً ـ ماذا يحدث؟ أين أنتم جميعاً؟

لم يلق جواباً. ألحَّ، لكن النتيجة ذاتها، وانتابه الذعر حقيقة.

ـ «لقد تركوني...» ـ كان أول ما فكر به ـ «ذهبوا وتركوني هنا محبوساً كي أموت من الجوع والظمأ...».

هرع صوب الباب وتفاجأ إذ وجده نصف مفتوح. خرج إلى الفناء فلفحته شمس عنيفة آلمت عينيه، بسبب انعكاسها على الجدران البيضاء المدهونة بالكِلس الأبيض ألوف المرات، من قِبَل بعض الجنود الذين ليس لديهم أي واجب آخر خلال أيام وسنين سوى إعادة دهن الجدران الناصعة مرة عقب أخرى.

لكن لم يقع نظره على أي منهم. وما من أحد منهم يقف خفيراً في محرسه في الزوايا أو إلى جانب الباب الذي يستطيع من خلاله تبيان صحراء فسيحة بلا حدود.

ـ هيه! ـ كرر مرة أخرى ـ ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟

الصمت. الصمت الملعون، ما من نسمة تحمل حركة تنمُّ عن حياة أو تثير السكون في مكان يبدو كأنه متحجر، مسحوق ومحطم بشمس بدأت تحتدم بقوة.

هبط الدرجات الأربع بقفزتين، وتقدم صوب البئر منادياً باتجاه المكاتب، المطعم، ومبيت الجنود.

ـ كابتن...! كابتن...! أي مزحة هذه؟ أين أنتم؟

انبثق ظل حالك من بين ظلال المطبخ. طارقي طويل وشديد النحول بلثام كالح يغطي وجهه، بندقية في اليد وفي الأخرى سيف طويل.

توقف تحت إفريز الباب.

ـ إنهم أموات ـ قال.

نظر إليه غير مصدق.

ـ أموات...؟ ـ كرر بحماقة ـ جميعهم...؟

ـ جميعهم.

ـ من قتلهم؟

ـ أنا.

اقترب دون أن يصدق ما كان يسمعه.

ـ أنت...؟ سأل هازاً رأسه كأنه يريد استبعاد الفكرة ـ تريد أن تقول لي بأنك قتلت اثني عشر جندياً، سرجنت وضابط دون مساعدة من أحد...؟

أشار بالإيجاب بطبيعية:

ـ كانوا نائمين.

عبد الكبير الذي رأى ألوف الأشخاص تموت، وهو الذي أمر بإعدام الكثير، والذي كان يكره جميع سجانيه وكل واحد منهم، انتابه مع ذلك إحساس لا يُحتمل من الغمِّ وفراغ في فوهة معدته. استند قليلاً على العمود الخشبي الذي يسند الإفريز كي لا يفقد التوازن.

ـ قتلتهم بينما هم نيام؟ ـ سأل ـ لماذا؟

ـ لأنهم قتلوا ضيفي ـ توقف قليلاً ـ ولأنهم كانوا كُثُراً. إذا أطلق أحدهم صوته منذراً الآخرين، ستموت هنا من القِدَمْ بين هذه الجدران الأربعة....

حدجه عبد الكبير بصمت محركاً رأسه بالإيجاب، كأنه أدرك شيئاً تخيله بشكل قاتم منذ البداية.

ـ الآن أتذكرك... ـ اعترف ـ أنت الطارقي الذي استضافنا... رأيتك عندما أخذوني.

ـ نعم. ـ وافق ـ أنا غزال صياح، كنت ضيفي وأنا ملزم بأخذك إلى الجهة الأخرى من الحدود.

ـ لماذا؟

نظر إليه دون أن يفهم، أخيراً أشار:

ـ التقاليد... طلبت مني حمايتك، وعليَّ أن أحميك.

ـ قتلت أربعة عشر رجلاً كي تحميني، إن لفي ذلك مغالاة، ألا تعتقد ذلك....؟

لم يتكرم الطارقي بالجواب، وشرع بالمسير صوب الباب المفتوح.

ـ سأحضر الجِمال... ـ قال ـ هيّئ نفسك لرحلة طويلة.

راقبه بينما يبتعد وقد توارى عن ناظره خلف الباب المفتوح على مصراعيه، وأثقل عليه الشعور بالوحدة في الحصن المهجور. أثقل عليه وأرعبه أكثر من المرة الأولى الذي رآه فيها وقد اعتراه اليقين آنذاك بأنه لن يخرج حياً منه أبداً، وتلك الجدران ستتحول من سجنه إلى قبره معاً.

مكث بضع لحظات ساكناً، يستمع وهو على يقين من أنه لا يوجد شيء يُسمع، حيث الريح والرجال كانوا الوحيدين القادرين على إثارة صخب ما، وكان يوماً بلا ريح، والرجال كانوا قد ماتوا.

أربعة عشر!

تذكر وجوههم واحداً تلو الآخر، من الوجه الهزيل والشاحب بشدة للكابتن الذي يكره الشمس ويحب ظلال مكتبه الخفيفة، إلى الخدود الممتلئة والمتعرقة للطباخ، مروراً بالشارب الطويل والمتغطرس للعريف الوسخ الذي كان يعتني بنظافة الزنزانة ويحضِّر الطعام.

كان يعرف أيضاً كل خفير، وكل مساعد طباخ، لعب معهم بالنرد أو كتب لهم رسائل إلى ذويهم، قارئاً لهم أحياناً روايات في الليالي اللانهائية للصحراء، ومراراً يستحيل تحديد من منهم جميعاً كان سجيناً أكثر في ذلك الحصن على تخوم الصحراء.

كان يعرفهم جميعاً، والآن جميعهم أموات.

تساءل، أي صنف من البشر ذاك الذي اعترف بأنه قتل أربعة عشر كائناً إنسانياً بينما هم نيام، دون أي أثر خفيف في نبرة الصوت، دون أي اعتذار، دون أي إشارة تنمُ عن أقل بادرة من الندم.

كان طارقياً بالطبع، وفي الجامعة علموهم أن تلك السلالة لا مثيل لها بين كل سلالات العالم، وما من نقطة التقاء بين أخلاقها وعاداتها مع أخلاق وعادات ما تبقى من الأحياء.

كان شعباً أنوفاً لا يقهر، متمرداً أو محكوماً بسننه الخاصة به، لكن ما من أحد شرح له وقتئذٍ أن مثل هذه القوانين تفكر ملياً في إمكانية القتل بأعصاب باردة لأناس نيام.

«الأخلاق هي مسألة عادات ويجب ألا نحكم أبداً، حسب معاييرنا، على أفعال أولئك الذين لديهم، حسب عادات أسلافهم، رؤى ومعايير عن الحياة مختلفة...».

تذكر كلمات «العجوز العظيم» وكأن السنين لم تمضِ، متكاسلاً خلف طاولته الهائلة، بيدين وأكمام السترة الداكنة الملطخة بالأبيض من الطباشير، محاولاً تلقين قناعته بأن بقية الأجناس التي ستتألف منها ما سيكون في يوم ما بلاداً مستقلة، يجب ألا تبدو كأنها في مستوى أدنى لمجرد أنهم كانوا على تماس أقل منهم مع الفرنسيين!

«إحدى المشاكل الكبيرة لقارتنا - أكد مرة بعد أخرى - هي الواقع الذي لا يدحض، إن القسم الأعظم من الشعب الأفريقي هو، في حد ذاته، أكثر عنصرية من الكولونياليين أنفسهم. قبائل جيران، أخوة تقريباً، يكنون لبعضهم الضغينة والاحتقار، والآن بقدوم الاستقلال يظهرون بوضوح أن الدهمائي ليس لديه عدو أسوأ من الدهمائي نفسه الذي يتكلم لهجة أخرى. لن نرتكب الخطأ ذاته. أنتم الذين ستحكمون هذه الأمة ليكن واضحاً أمامكم، أن البدو والطوارق وقبائل الجبال ليسوا في مستوى أدنى، إنما مختلفون فحسب...».

مختلفون.

لم يرتَبْ قط وهو يعطي أمراً للقيام بعملية ضد إحدى تلك المقاهي التي كان يجتمع فيها الفرنسيون دون أن توقفه حقيقة أن مثل هذا الأمر يعني تدمير الكثير من الأبرياء. لم يرتَبْ كذلك وهو يشهر الرشاش ضد المظليين والمرتزقة الأجانب، والموت كان منذ مراهقته يعترض طريقه، وتبعه في السنوات الأولى من حكمه حينما كان عليه أن يرسل عشرات المتعاونين مع الفرنسيين إلى المشنقة. لذا ليس من حقه أن يرتعب لموت أربعة عشر سجّاناً، بيد أنه كان يعرف أولئك السجانين واحداً واحداً، يعرف أسماءهم وأذواقهم، ويعرف أيضاً بأنهم نُحروا في أسرّتهم ذاتها.

اجتاز الرواق على مهلٍ، وصل إلى أسفل النافذة العريضة للمهجع، غطى الزجاج بيديه كي يتجنب الانعكاس ونظر إلى الداخل.

لم يكونوا سوى أكياس مصفوفة، متران من الفِراش الواحد تلو الآخر، ملتحفين بملاءات وسخة لا يتبين فيها بقعة دم حتى، فقد امتصتها فُرش القش الثخينة.

ما من نَفَسٍ، ما من غطيط خفيف، ما من صوتٍ شبه نائمٍ ولا صوت حكةِ الأظافر للجلد الجاف من الشمس والرمال.

صمت فحسب، وصوت بعض الذباب الذي يضرب على الزجاج، وكأن الدم أترعه، ساعياً للهروب صوب الضوء والهواء الطلق.

دفع بعد عشرة أمتار باب مقر الكابتن، وتوغلت الشمس للمرة الأولى بكثافة إلى المكان المثقل بالأشياء والغبار، وتوقف نظره على السرير الكبير في العمق، حيث جسد ضئيل وناحلٍ مغطى أيضاً بملاءة ناصعة البياض.

أغلق الباب من جديد وطاف ببطء كل زاوية من الحصن دون أن يكتشف أية جثة، لا في مرقب الخفير ولا أمام الباب، وكأن الطارقي وبطقس غريب، فضّل جرهم حتى أسرتهم ومن ثم تغطيتهم.

عاد إلى زنزانته، جمع الرسائل، صور أبنائه، والنسخة المهلهلة للقرآن لكثرة الاستعمال، والتي رافقته منذ تعلمه القراءة،

ووضع كل ذلك مع ثيابه القليلة في كيس من الكتان، ثم جلس ينتظر في ظل طُنُف الباب قريباً من البئر، حيث الشمس تسقط عمودياً مريعة، ماسحة عن الأرض كل الظلال.

القيظ الخانق غمره بسبات قلق، أيقظه ما يشبه الحلم مذعوراً، لكنه مذعوراً من ذلك الصمت ذاته: تلك السكينة، وغمّ الإحساس بالفراغ، متصبباً عرقاً، مكابداً ألماً في السمع تقريباً. كأنه سقط فجأة في كونٍ أجوف، إلى درجة أنه همس بصوت خفيض ببعض الكلمات لغرضٍ وحيد هو أن يسمع نفسه معززاً اليقين بوجود أصوات مازالت تُسمع على الأرض.

أي مكان يمكن أن يكون أكثر صمتاً من ذاك الصرح الذي تحول إلى حصن عتيق في أطراف الصحراء في يوم لا ريح فيه؟

لماذا قذفوا به إلى هناك، في مركز السهوب بعيداً عن الآبار المعروفة وطرق القوافل؛ بعيداً عن الواحات والحدود في قلب العدم المطلق ذاته، لا يبدو أن أحداً يعرف ذلك. «حصن الغيريفيبيس» ضئيل وبلا فائدة، صالح فقط حسب نظريةِ أنه من المناسب أن يكون ثمة نقطة مساعدة «لوجستيك»، مكان للاستراحة للدوريات الرحّل. ولكانت النتيجة ذاتها في أي نقطة أخرى ضمن مسافة خمسمئة كيلومتر مربع، حيث حُفر بئر وأقاموا جدراناً واطئة مع فتحات للرماية، كما أحضروا متاعاً مهترئاً بلا شك من بقايا ثُكنات قديمة مهدمة، وحكموا على بعض الرجال في خفر قطعة من الصحراء، صحراء إلى درجة أن ما ترويه التقاليد، أنه لم يقترب أبداً مسافر واحد من «الغيريفيبيس». وروت التقاليد نفسها أيضاً، أن قيادة الفرقة الفرنسية تأخرت ثلاثة أشهر في معرفة أنه لم يكن هناك قوى كولونيالية، إنما أجانب مغلوبون.

ستة أجداث مجهولة قائمة خارج الجدار الخلفي. في زمن سابق كان لكل منهم صليب واسم حتى، لكن منذ سنوات خلت كان على الطاهي أن يحرق الصلبان حينما نفد منه الحطب. وكثيراً من

المرات سأل عبد الكبير نفسه عمن يكون هؤلاء المسيحيون الذين جاؤوا ليقضوا هنا، بعيداً عن أوطانهم، وأي قصة غريبة أجبرتهم على الانخراط في الفرقة وقضاء أيامهم في وحشة صحراء بلا آفاق.

«سيحفرون قبري في يوم ما إلى جانبهم ـ كان يقول دائماً ـ إذاً ستكون سبعة أجداث مجهولة، واعتباراً من تلك اللحظة يستطيع خفرائي ترك «الغيريفييس»... بطل الاستقلال يرقد إلى الأبد إلى جانب ستة مجهولين من المرتزقة...».

لكن لم يكن الأمر كذلك، أربعة عشر جدثاً الآن؛ أجداث لا يريد أحد أن يكتب أسماءهم فوقها أبداً، لأنه لا يأبه أحد لمعرفة أين ترقد حفنة من السجانين البلهاء.

أدار وجهه من جديد غريزياً صوب نافذة المهجع، وكلفه جهداً القبول بأنهم بدؤوا هناك بالتعفن تحت الهجير الجاف الذي لا يُطاق، الأجساد التي طالما ملأت المكان بأصواتها وبمجرد وجودها حتى الليلة الفائتة.

كم من المرات شعر بإغراء خنق بعضهم بيديه هاتين! خلال سني سجنه عاملته الأكثرية باحترام، لكن آخرين جعلوه ضحية كل أنواع الإهانات، لا سيما في الفترة الأخيرة بدءاً من عودته. معاقبته على هروبه نالت جميع الفرقة بالتساوي. الحرمان من منحهم إذناً بالمغادرة لمدة عام، وكثيرين منهم كانوا منحازين لافتعال «حادث» للقضاء عليه مرة وإلى الأبد، وتحريرهم نهائياً مما صار سجناً مشتركاً.

ترعبه الآن فكرة استئناف هروب طويل؛ مسيرة لا نهائية عبر الرمال والأرض الحصيّة، دائماً تحت شمس لا تتعب، دون معرفة إلى أين يتجه وإذا ما كان لتلك البيداء الموحشة حقيقة نهايةٌ في مكان ما. تذكر بذعر عذاب الظمأ والألم الذي لا يُطاق لكل عضلة فيه وقد اعتراها التشنج، وتساءل لماذا مازال جالساً هنا، في الظل وصرّته

في يده منتظراً عودة رجل، قاتل، يريد قيادته من جديد فوق الرمال والدروب الحصباء. وبرز فجأة إلى جانبه، منبثقاً من العدم صامتاً رغم أربعة من الجمال المحمّلة التي تتبعه بخفة دون أدنى ضجة حتى، كأنما أصابتها عدوى سيدها أو أنها أدركت بغريزتها أنها دخلت حرم ضريح فأصابها الذعر.

أشار برأسه صوب المهجع:

ـ لماذا أخذت الحرس إلى أسرّتهم؟ تعتقد أنهم هناك أفضل من المكان الذي قتلتهم فيه؟ أي أهمية لذلك؟

نظر إليه غزال للحظة كأنه لم يفهم مرماه. أخيراً هزّ كتفيه:

ـ يمكن لطير جارح أن يكتشف الجثة في الهواء الطلق بعد ساعتين من الموت ـ أجاب ـ لكنه في الداخل يحتاج إلى ثلاثة أيام كي تخترق الرائحة هذه الجدران، خلال ذلك نكون قد اقتربنا من الحدود.

ـ أي حدود؟

ـ أليست كل الحدود جيدة؟

ـ الحدود الجنوبية والحدود الشرقية، نعم. لكن إذا عبرت الحدود الغربية يقضون علي في لحظتها.

لم يجب غزال، كان منهمكاً في مهمة إخراج الماء من البئر كي يسقي الدواب النهمة، لكن عندما انتهى انتبه إلى كيس الكتان.

ـ لا تحمل معك سوى هذا؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ هذا كل ما أملك...

ـ ليس كثيراً لمن كان رئيساً للبلاد... ـ أشار إلى الداخل ـ اذهب إلى المطبخ واحضر مؤونة وكل ما تجده من أوعية لتعبئتها بالماء ـ هزّ رأسه ـ سيكون الماء مشكلتنا في هذه الرحلة.

ـ في الصحراء، الماء دائماً مشكلة... أم لا؟

ـ نعم، بالطبع، لكن إلى حيث نذهب، أكثر من أي مكان آخر.

ـ وإلى أين نذهب، إذا أمكن أن أعرف...؟

ـ إلى حيث لا أحد يستطيع تقفي أثرنا: إلى «أرض الخواء الكبيرة» في تيك دابرا.

20

إلى أين يمكن أن يتجها؟

لم يحصل على جواب. وزير الداخلية علي ماداني، رجل طويل، قوي ذو شعر مكوي وعينان صغيرتان يحاول إخفاءهما مع نواياه، خلف نظارة داكنة جداً، جال بنظره وجوه الحاضرين واحداً واحداً، وحينما لم يجد صدىً لسؤاله، ألحّ:

ـ هيّا، أيها السادة...! لم أُقدم على سفر لمسافة ألف وخمسمئة كيلو متر كي أجلس هنا وأنظر إليكم. يُفترض أنكم خبراء في القضايا الصحراوية وفي عادات الطوارق. أكرر: إلى أين يمكن أن يتجها؟

ـ إلى أي جهة... ـ أجاب الكولونيل مقتنعاً بسيماء متجهمة ـ: ذهب صوب الشمال، لكنه ذهب للبحث عن منطقة صخرية حيث يختفي فيها أثره. من هناك وما بعد كل الصحراء ملكه.

ـ تريد أن تفهمني ـ غمغم الوزير بصوت خفيض جداً محاولاً أن يهدئ من حنقه ـ أنَّ بدوياً واحداً يستطيع التسلل إلى أحد حصوننا ليذبح أربعة عشر رجلاً، ويحرّر العدو الأخطر على الدولة ثم يختفي معه في صحراء هي كما أرى «ملكه»...؟ ـ هزّ رأسه غير مصدق ـ يُفترض أن تكون الصحراء «ملكنا» ياكولونيل. وأن البلاد بكاملها تحت سلطة الجيش وقوى النظام.

ـ تتكون البلاد من تسعين في المئة من الصحراء ياصاحب

المعالي ـ تدخل الجنرال، القائد العام في المنطقة في نبرة إزعاج واضحة ـ لكن مع ذلك فإن العشرة في المئة المتبقية، الساحل، تستهلك كل الثروة وكل الجهد. عليَّ أن أشرف على منطقة كبيرة إلى درجة أنها تعادل نصف أوروبا مع حثالة الجيش والحد الأدنى من الصيانة، مما يعادل أقل من رجل لكل ألف وخمسمئة كيلو متر مربع، مُعسكِرِين في واحاتٍ وحصونٍ مشتتة هنا وهناك دون أي منطق. هل تعتقد حقيقة، يا صاحب المعالي، أنه يمكن بهذه الطريقة اعتبار الصحراء ملكنا...؟ توغلنا وتأثيرنا معدوم حتى أن هذا الطارقي لا يعرف إلى الآن، بعد أكثر من عشرين عاماً، أننا نشكل أمة مستقلة... هو «مالك» الصحراء ـ شدّد على اللفظة عن قصد ـ المالك الوحيد الموجود.

يبدو أن الوزير ماداني قَبِل بأنَّ الحق معه، أو على الأقل فضل بألا يجيب مباشرة، والتفت إلى الملازم أول رازمان الذي مكث واقفاً باحترام، في إحدى الزوايا إلى جانب السرجنت ماجور مالك الحيدري.

ـ حضرتك، أيها الملازم أول، أنت كما أرى أكثر من عاشر هذا الطارقي، ما رأيك فيه؟

ـ إنه ماكر جداً، سيدي. يقوم بطريقة ما دائماً بالأفعال التي لا نتوقع أن يقوم بها.

ـ صفه لي.

ـ طويل ونحيف.

مكث الوزير مترقباً، وبما أنه لم يتابع، ألحَّ:

ـ وماذا بعد؟

ـ لا شيء آخر ياصاحب المعالي. يمضي ملثماً دائماً، تظهر منه فقط عينان داكنتان، ويدان قويتان...

أطلق الوزير شتيمة:

ـ بحق كل الشياطين...! ـ صرخ مُفرغاً غضبه ضارباً بقلمه على الطاولة ـ هل نواجه شبحاً؟ طويل، نحيف، عينان داكنتان، يدان قويتان... هذا كل ما نعرفه عن رجل وضع الجيش في خانة «الياك» ويُقلق الرئيس، اختطف المحافظ وأخذ عبد الكبير؟ شيء جنوني!

ـ كلا ياصاحب المعالي... ـ أوضح الجنرال من جديد ـ ليس شيئاً جنونياً. تسمح القوانين هنا للطوارق بتغطية وجوههم حسب تقاليدهم. الوصف إذاً ينطبق على أحد الطوارق... آخذين بالحسبان أنه يوجد ثلاثمئة ألف، وأكثر من الثلث منهم بقليل يقطنون في هذه الجهة من حدودنا، وعلينا أن نوافق على أن هذا الوصف ينطبق على خمسين ألفاً من الرجال البالغين على الأقل.

لم يقل الوزير شيئاً. نزع النظارة، تركها جانباً، وفرك عينيه بحركة تنمّ عن القلق العميق. لم ينم خلال الثمانية والأربعين ساعة الأخيرة، فالسفر الطويل وقيظ «العقب»، كل ذلك أنهكه. لكنه شعر بأنه غير قادر على الذهاب كي يرتاح، لأنه على يقين إذا لم يستطع أن يعيد عبد الكبير مباشرة ستكون أيامه في الوزارة معدودة، ويتحول إلى موظف غامض بلا مستقبل.

عبد الكبير ساعة موقوتة يمكنه في أقل من شهر أن يقذف بالحكومة والنظام في الهواء إذا استطاع أن يجتاز الحدود ويصل إلى باريس، فالفرنسيون سيضعون وسائل الإعلام نفسها التي منعوها عنه في زمن سابق، تحت تصرفه. بين النقود الفرنسية والزحف الجماهيري لا توجد قوة قادرة على أن تقف ضده، وأولئك الذين خانوه سيكون لديهم الوقت كي يحضروا حقائبهم ويشرعون بالهجرة الطويلة، منتظرين دائماً أن يصلهم الانتقام في أي مكان يختبئون فيه.

يجب العثور على عبد الكبير، ويجب القضاء عليه مرة وإلىالأبد. لقد شعر بأنه لا يستطيع أن يتحمل من جديد مثل هذا الغمّ. لو أن الرئيس أخذ بنصيحته وأعدمه رمياً بالرصاص عندما

هرب في المرة الأولى لما حدث ما حدث، وبهذا يكون قد قام بتصفية المشكلة نهائياً، ولتقع اللائمة على من تقع.

ـ يجب العثور عليهما ـ قال أخيراً ـ اطلبوا ما تحتاجونه؛ رجال، طائرات، دبابات، أي شيء! لكن اعثروا عليهما... هذا أمر!

ـ سيدي...!

رفع وجهه صوب الذي تكلم:

ـ نعم، سرجنت...؟

ـ سيدي ـ كرر بخيط أرفع من صوت السرجنت مالك المعهود ـ أنا على قناعة من أنهما توغلا في «أرض الخواء» في تيك دابرا.

ـ «أرض الخواء»؟ يجب أن يكونا مجنونين... ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

ـ رأيت آثار خروجهما من حصن «الغيريفييس». أربعة جمال مثقلة الحمولة. وفي الحصن لم يبق أي وعاء قادر على احتواء ماء. إذا كان هذا الطارقي يرغب في الهرب السريع، لا يأخذ معه أربعة جمال، ولا يأخذهم بمثل هذه الحمولة...

ـ لكن أثرهم يتجه صوب الشمال... و«أرض الخواء» تقع صوب الجنوب إذا لم أخطئ.

ـ لم تخطئ سيدي. لكن هذا الطارقي كان قد خدعنا مرات عديدة. قد لا يبالي بضياع يوم متجهاً صوب الشمال كي يخفي أثره ثم يعود بعد ذلك إلى تيك دابرا. في الجهة الأخرى يكون في مأمن.

ـ ما من كائن بشري اجتاز قط تلك المنطقة... ـ لفت الكولونيل انتباهه ـ هو اختارها كحدود لهذا السبب ذاته. لا يحتاج حماية.

ـ ما من كائن بشري يبقى على قيد الحياة من دون ماء في مركز السبخة خلال خمسة أيام، لكن أنا رأيت كيف هذا الطارقي بقي على قيد الحياة، سيدي الكولونيل ـ أجاب مالك ـ مع كل الاحترام،

أريد أن ألفت انتباهكم إلى أنه ليس رجلاً عادياً. قدرته على المقاومة تتخطى ما يمكن تصوره.

ـ لكنه ليس وحيداً، وعبد الكبير عجوز تقريباً، ضعيف بسبب مغامرة هروبه الأخيرة وهذه السنين من السجن. أتتخيل حقيقة بأنه يتحمل ثلاثين يوماً من الظمأ ودرجة حرارة تفوق الستين؟ إذا كانا من الحماقة وحاولا ذلك أؤكد لكم أنه لا يجب علينا أن نعود ونقلق بشأنهما.

لم يتجرأ السرجنت ماجور مالك الحيدري أن يعارض مرة أخرى شخصاً أعلى مرتبة منه بكثير، حيث كان الوزير هو الذي استلم الكلام عنه.

ـ ربما هو مجنون ـ وافق ـ لكن السرجنت والملازم أول هما هنا لأنهما الوحيدان اللذان احتكا مع هذا المتوحش، ورأيهما يهمنا بشكل خاص... ماذا تفكر بهذا الشأن أيها الملازم أول؟

ـ غزال قادر على أي شيء، سيدي... حتى المحافظة على حياة عجوز على حساب دمه ذاته... حماية ضيفه بالنسبة له تحولت إلى شيء أكثر أهمية من وجوده ذاته، أو وجود عائلته، إذا اعتبر أن تيك دابرا تمنحه ضماناً أكثر سيذهب إلى «أرض الخواء».

ـ موافق. فلنبحث عنه هناك أيضاً إذاً... الآن جيد ـ قام بتوقفٍ وجيز ـ أنت ذكرت عائلته. ماذا تعرف عنها؟ إذا وجدناها، ربما تصلح لنا كي نقترح عليه مقايضة...

ـ هجروا منطقة مراعيهم... ـ صوت الجنرال كان ينمّ عن الكدر والضيق ـ ولا يبدو لي مشرِّفاً زجّ نساء وأطفال في هذا. أي رأي يستحق جيشنا إذا كان علينا اللجوء إلى أساليب كهذه لحل مشاكله؟

ـ الجيش يمكن أن يبقى على الهامش، جنرال. رجالي سيهتمون بالمسألة. مع أنني ـ أضاف عن قصد ـ لا أعتقد أن الجيش سيكون في حالة أسوأ مما كان عليه حتى هذه اللحظة.

همَّ الجنرال بالجواب العنيف، لكنه جهد نفسه وانكفأ متيقناً من أن علي ماداني حالياً هو اليد اليمنى للرئيس والرجل الثاني الأكثر نفوذاً في البلاد، بينما هو مازال عسكرياً بسيطاً ترفّع حديثاً إلى أول عمل له كجنرال. حينما حدث ذلك كان عليه أن يعزوه إلى عدم جدارة السياسيين مثله، وليس لفقدان الكفاءة الحقيقية عند القوى العسكرية، لكن لم تكن اللحظة ولا المكان المناسبان كي يشتبك بنقاش لا يثير سوى السخط. لذا عضّ على شفته ومكث مترقباً. من المحتمل، أولاً وأخيراً، أن يختفي الوزير من الساحة السياسية عندما يترفع إلى جنرال بريغادير.

ـ كم مروحية لدينا؟ سمعه يسأل، متوجهاً إلى الكولونيل.

ـ واحدة.

ـ سأطلب إحضار ثلاث أخريات. طائرات؟

ـ ستة. لكن لا تستطيع استخدامها. فإمكانية تموين أغلبية المواقع تتم من الجو فقط.

ـ سأحضر سرباً لتمشيط كل منطقة «الغيريفييس» ـ توقف قليلاً ـ وأريد أن توضع فرقتان في الجانب الآخر من «أرض الخواء» في تيك دابرا.

ـ لكن هذه تقع خارج منطقة حدودنا! ـ احتج الكولونيل ـ سيعتبرونه اجتياحاً لبلد جار لنا...

ـ اترك هذه المشاكل لوزير الشؤون الخارجية واهتم بتنفيذ أوامري.

توقف ممتعضاً لأنهم طرقوا الباب. فُتح الباب، أحد الخدم همس شيئاً في أذن السكرتير أنور الموجكري الذي التزم الصمت طوال الاجتماع، وبدا التأثر مرئياً على محياه. وافق بإشارة، ثم أغلق الباب من جديد، وعقب:

ـ عفواً ياصاحب المعالي، بُلغت الآن أن المحافظ وصل للتو.

ـ بن كوفرا...؟ ـ تفاجأ ماداني ـ حيّاً؟

ـ هكذا سيدي. في حالة سيئة، لكنه حي... ينتظر في مكتبه.

نهض الوزير بقفزة ودون أن يحيي الحاضرين حتى، وغادر القاعة، اجتاز «الغاليري» المرتفع، يتبعه أنور الموجكري والنظرات الوجلة للموظفين المحليين، ثم دخل المكتب الفسيح والظليل للمحافظ، تاركاً في الخارج السكرتير الذي اصطدم عملياً بالباب الثقيل. بلحية العشرة أيام الماضية، قذراً، هزيلاً وزرقة تحيط بعينيه بدا المحافظ حسّان بن كوفرا ظلّ لذاك الرجل المتعجرف الذي كانه، الأنوف والواثق من نفسه، الذي غادر في أحد الأماسي هذا المكتب ذاته في طريقه إلى الجامع. منهاراً في أحد مقاعده الوثيرة، متأملاً دون أن يرى غابة النخيل عبر الستائر الباهظة، كأن عقله يسرح في البعيد، ربما في المغارة التي عانى فيها التجربة الأكثر مأساوية في حياته. حتى أنه لم يرفع بصره عندما دخل ماداني، وكان عليه أن ينتصب أمامه كي يلاحظ أخيراً وجوده.

ـ لم أنتظر رؤيتك ثانية.

العينان حمراوان من شدة الإعياء وكأنهما اتسعتا من الرعب، رفعهما ببطء وقد كلفه بعض الجهد للتعرف على محدثه، أخيراً غمغم بصوت أجش لا يكاد يُسمع:

ـ ولا أنا كذلك... ـ أظهر معصميه المتقرحتين ـ: انظر!

ـ أفضل من أن تكون ميتاً... أربعة عشر رجلاً قتلوا بسببك والبلاد في خطر.

ـ لم أتخيل من أنه سينال مراده قط... كنت متأكداً بأنني أرسلته إلى شرك وأنهم سيقضون عليه في «الغيريفييس». لدينا هناك أفضل رجالنا.

ـ أفضل...؟ ـ صاح ـ ذبحهم كدجاجات، الواحد تلو الآخر... وعبد الكبير الآن طليق. أمدركٌ أنت ماذا يعني ذلك؟

أجاب بإيماءة:

ـ سنقبض عليه.

ـ كيف؟ الآن لا يرافقه فتى متعصب وبلا جدارة، إنما طارقي يعرف هذه الأرض مثلما لم ولن يعرفها أي منا أبداً ـ اتخذ مكاناً أمامه على الأريكة، ومسَّدَ شعره بحركة ميكانيكية ـ وأنت تدرك بأنني أنا من اقترحك لهذا المنصب والإلحاح باسمك...

ـ متأسف.

ـ تتأسف...؟ ـ أطلق قهقهة قصيرة، مُرّة وتنمّ عن الاحتقار ـ لو كنت على الأقل ميتاً لكان بإمكاني القول إنهم نكلوا بك إلى حدود لا إنسانية... لكنك هنا، حي ومعتد ببعض الجروح التي تلتئم في خمسة عشر يوماً. أي طالب متمرد يتحمل على يد رجالي أكثر مما تحملت أنت مع هذا الطارقي. سابقاً كنت أكثر صلابة.

ـ حينما كنت شاباً وكان المظليون الفرنسيون من يُعذِبون... آنذاك كنت أعتقد بشيء. القضية كانت خيّرة. ربما لم أكن على قناعة بأنه من العدل الاحتفاظ بعبد الكبير مسجوناً مدى الحياة.

ـ بدا لك عادلاً طالما كان يناسبك هذا المكتب ومنصب المحافظ ـ ذكّره ـ وبدا لك عادلاً حينما قررنا ما سنفعل به. آنذاك لم يكن «عبد الكبير» كان آنذاك العدو، الشيطان؛ الذي قاد البلاد إلى الفوضى لأنه كان يبعدنا، نحن أصدقاءه، عن الحكم. كلا ياحسّان ـ نفى بثبات ـ لاتحاول خداعي، لأني أعرفك منذ زمن طويل. الحقيقة هي أن السلطة، والسنين والاسترخاء جعلوك ليِّناً وجباناً... يمكنك أن تكون بطلاً وتتحمل عندما لا يكون لديك ما تفقده سوى الأمل بمستقبل أفضل. لكن ليس عندما تعيش في قصر وتكون تملك في سويسرا مثل هذا الحساب الذي لديك... لا تنفي ذلك ـ قاطعه ـ تنكر أنَّ من واجبي أن أبقى على إطلاع، وأعرف كم تدفع لك شركات البترول لتعاونك معها.

ـ ربما أقل مما يدفعون لك.

ـ بالطبع... لا أنفي ذلك ـ اعترف علي ماداني دون أن يفضح نفسه ـ لكن في هذه اللحظة أنت المرَاقب الآن وليس أنا... ـ اتجه إلى النافذة لمراقبة المؤذن الذي كان يؤذن في منارة المسجد، وعلّق

دون الالتفات إليه ـ: صلي كي تستطيع إصلاح ما أفسدته أو ستفقد أكثر من منصب المحافظ.

ـ يعني هذا بأنك تقيلني من منصبي...؟

ـ بالطبع! ـ أجاب ـ وأؤكد لك إذا لم أجد عبد الكبير سأعمل على جعلهم يحاكمونك بتهمة الخيانة.

لم يجب المحافظ حسّان بن كوفرا، وهو غارق مثلما كان في مراقبة القروح التي تركها القيد في معصميه، ومفكراً أنه، في أيام مضت ومن المكتب ذاته، هو الذي كان في موقع ماداني، يحاكم بقسوة رجلاً بسبب الطارقي، ذاك الذي تحول إلى هاجس للجميع.

استدعى الساعات وأيام الجزع والقلق التي قضاها في الكهف، متسائلاً في كل لحظة فيما إذا كان الطارقي حقيقة سيرسل أحداً إليه، أم سيتركه يقضي هناك ككلب من الجوع والرعب والظمأ.

واستدعى كذلك الطريقة التي أثبت فيها الآخر بأنه أكثر فطنة منه، مكتشفاً دون جهد يُذكر أين تكمن نقطة ضعفه، وبأي وسيلة حصل على سهولة التعامل معه دون حاجة للمسه.

أدرك أنه يحقد على الطارقي لكل ذلك، لكنه يحقد عليه أكثر حتى، وقبل كل شيء لأنه كان قادراً على الوفاء بوعده، مرسلاً أحداً لإنقاذه.

ـ لماذا؟ ـ سأل علي ماداني، وهو ينظر إليه من جديد وكأنه كان يقرأ أفكاره ـ لماذا رجل يقتل بالبرودة التي قام بها يتركك طليقاً...؟

ـ وعد بذلك.

ـ والطارقي يفي دائماً بوعده. أعرف... مع ذلك، يكلفني جهداً القبول بوجود عقل يجيز ذبح غرباء وهم نيام، لكنه لا يبيح عدم الوفاء بوعد قام به مع عدوه ـ هزّ رأسه سلبياً وذهب ليتخذ له مكاناً خلف طاولة ثقيلة، في كرسي وثير كان يعود لمحدثه ـ أحياناً أتساءل كيف يمكن أن نعيش في نفس البلاد ولا يجمعنا إلا القليل من

الأمور العادية... ـ تابع وكأنه يتكلم مع نفسه ـ إنه جزء من التركة التي علينا أن نشكر الفرنسيين عليها: مزجونا كـ «بودينغ» هائل ثم قسمونا إلى قطع صغيرة وجزؤونا كما يحلو لهم. الآن بعد عشرين عاماً نجلس هنا، محاولين بلا جدوى، أن يفهم الواحد منا شيئاً عن الآخر.

ـ هذا عرفناه... ـ أشار حسّان بن كوفرا وقد بلغ به الإعياء مداه ـ كلنا توصلنا إلى الاستنتاج نفسه، لكن لم يخطر على بال أحد التخلي عن الجزء الذي لا يخصنا، مكتفين ببلد أصغر لكن متجانس... ـ فتح وأغلق يديه وكأن ذلك يكلفه جهداً، مع حركة تنمُّ عن الألم ـ أعمانا الجشع، كنا نطمع أكثر فأكثر في مساحات من الأراضي، رغم معرفتنا بأننا لا نعرف كيف نحكمها. ومن هنا سياستنا: إذا لم نستطع إخضاع البدو وإقناعهم بطريقة حياتنا، فعلينا أن نقضي عليهم. ماذا كنا سنفعل لو أن الفرنسيين حاولوا القضاء علينا منذ سنوات مضت، لأننا لا نستطيع التلاؤم مع طريقة حياتهم..؟

ـ ما فعلناه في النهاية: استقلالنا... ربما هذا هو مستقبل الطوارق: الاستقلال عنا.

ـ هل تتصورهم مستقلين؟

ـ هل تخيلنا مرة ذلك مع الفرنسيين، إلى أن بدأنا بإلقاء القنابل عليهم، وبرهنا بأننا نستطيع فعله؟ غزال هذا، وليكن اسمه ما يكن، برهن بأنه يستطيع التغلب علينا. إذا اجتمع معه كل الطوارق، أؤكد لك بأنهم يطردوننا من الصحراء، ونصف العالم مستعد لمساعدتهم مقابل بترول أراضيهم... كلا. ـ أشار متيقناً ـ علينا ألا نعطيهم الفرصة لمعرفة أنهم يستطيعون تحويل جمالهم إلى «كاديلاك» من ذهب.

ـ لذلك قدمت إلى هنا؟

ـ لذلك، وللقضاء على عبد الكبير، مرة وإلى الأبد.

21

بحرٌ من أجساد النساء العاريات، راقدة تحت الشمس بَبَشرةٍ ذهبية، أحياناً نحاسية وحمراء حتى في ذراها الأكثر قِدَماً، أجساد هائلة بصدور يفوق ارتفاعها المئتي متر أحياناً، أعْجَاز قطرها كيلومتر، وأفخاذ طويلة، أفخاذ لا نهاية لها، أفخاذ منيعة، تصعد عليها الجمال بتثاقل، منزلقة، ترغي وتعض مهددة في كل لحظة بالانهيار والسقوط متدحرجة إلى أسفل الكَثيب فلا تنهض بعد ذلك لتنتهي وقد التهمتها الرمال.

«الغَزِّي»، خطوات بين كثيب وآخر تحولت إلى متاهة من المنعطفات، لا وجود لها في كثير من الأحيان، أو أنها تعود إلى نقطة الانطلاق أحياناً أخرى، وحسّ الاتجاه الذي لا يُصدق لغزال فقط، ثقته بوجهة نظره تسمح له بالتقدم صوب الجنوب يوماً بعد يوم دون العودة فوق خطاه ذاتها.

عبد الكبير الذي كان يتباهى بالمعرفة العميقة للبلاد التي حكمها خلال سنين، والذي عاش في قلب الصحراء ذاتها، لم يستطع أن يتخيل قط، حتى في أسوأ أحلامه، بأنه يوجد فوق الأرض بحر من الكثبان مثل هذا؛ امتداد شاسع من الرمال؛ «عِرق» لا يُرى له نهاية حتى ولو تسلق على الـ «غوردِس» الأكثر ارتفاعاً.

كم من الرمل والريح قائمة هناك على تخوم «أرض الخواء الهائلة»! وتساءل كيف أن الطارقي أكد وجود شيء «أكثر سوءاً» من ذلك المحيط المتصحّر.

تركا ساعات النهار تمضي في منأى عن الريح، تحت ظل خيمة عريضة ملونة بالأصفر، تقاسماها مع الجِمال كي يشرعا بالمسير حينما تميل الشمس للغروب، ومتابعته طوال الليل على ضوء القمر والنجوم، تباغتهما دائماً الأصباح البهيّة، التي تبدو الظلال فيها راكضة من قمة إلى قمة للسيوف الرملية، على شكل حسام، وتبعث على التفكير بأن ذرات الرمل فوق أطرافها تحافظ على تماسكها بالعناق، وكأن كل ذرة رمل فيها تعانق الأخرى.

ـ متى نصل؟ ـ أراد أن يعرف في الفجر الخامس من تلك الأصباح، حيث الأضواء الأولى تسمح له بالتأكد من أنه غير قادر كذلك على تبيان بداية السهل الفسيح في نهاية الأفق.

ـ لا أعرف. ما من أحد عاد قط من هذا المكان. ما من أحد قام بتعداد أيام الرمال، ولا أيام «أرض الخواء».

ـ نذهب صوب الموت إذن...؟

ـ لم يفلح أحد، وهذا لا يعني أنني لا أستطيع أن أفلح في ذلك.

هزّ رأسه غير مصدق:

ـ يذهلني هذا الإيمان لديك في نفسك ـ قال ـ بدأت أشعر بالخوف.

ـ الخوف هو العدو الأول في الصحراء ـ كان الجواب ـ الخوف يقود إلى اليأس والجنون، والجنون يقود إلى الحماقة والموت.

ـ أنت لا تخاف أبداً؟

ـ من الصحراء؟ كلا. هنا ولدت وهنا قضيت حياتي... لدينا أربعة جمال، الإناث مازالت تدرّ بالحليب اليوم وغداً، وما من إشارة لـ «هارماتان». لدينا أمل إذا احترمتنا الريح.

ـ كم يوم من الأمل؟ ـ أراد أن يعرف عبد الكبير.

نام محاولاً تقدير كم من أيام الأمل تبقى لهما، وكم مايزال

عليهما معاناة ذلك العذاب المرير، وأيقظه هدير بعيد في منتصف النهار. فتح عينيه وأول ما رأى كان غزال، طيفه مرتسم في مدخل الخيمة جاثياً على الرمل ويراقب السماء.

ـ طائرات... ـ أشار الطارقي دون أن يلتفت.

جرّ نفسه إلى جانبه واستطاع أن يتبين طائرة استطلاعية صغيرة ترسم دوائر على بُعد خمسة كيلومترات وهي تقترب ببطء.

ـ هل تستطيع رؤيتنا...؟

نفى غزال، لكن مع ذلك اقترب من الجمال وأوثقَ قوائمها جامعاً القوائم الخلفية مع القوائم الأمامية كي يمنع أي محاولة للنهوض.

ـ يخيفها الضجيج... ـ قال ـ وسيدلّون علينا إذا ما شرعت بالركض.

عندما انتهى من وثق البهائم انتظر بصبر إلى أن تصبح قمة الكثيب الأقرب إليهما بين الطائرة في إحدى دوراتها وبينهما، حينئذ فقط خرج ليغمر بطبقة من الرمل الجزء المرئي أكثر من الخيمة.

خمس عشرة دقيقة بعد ذلك، ودون إزعاج أكثر سوى من الرغاء العصبي المستمر للبهائم، وإحدى الإناث حاولت عضه ثلاث مرات، ابتعد الهدير ومضت الطائرة لتتحول إلى نقطة في البعيد بعد أن حلقت فوق رأسهما لمرة واحدة فقط.

جالساً في الظليل، مسنداً السيف على إحدى المطايا، أخرج غزال من كيس جلدي حفنة من التمر وبدأ يأكل، وكأن شيئاً لم يحدث، ولم يتعرضا لأي خطر، كأنه يجلس مطمئناً في خيمته المريحة.

ـ هل تستطيع حقاً أن تنتزع السلطة منهم إذا اجتزت الحدود...؟ ـ سأل، مع أنه من الواضح عدم اهتمامه كثيراً بالجواب.

ـ هم يعتقدون أن الأمر هكذا، مع أنني لست متأكداً جداً منه. أغلبية جماعتي ماتوا أو أنهم في السجون... آخرون خانوني ـ تقبّل

التمر الذي قدمه له الطارقي ـ ليس سهلاً... ـ أضاف ـ لكن إذا نجحت يمكنك أن تطلب مني ما تريد... أدين لك بكل شيء.

نفى غزال ببطء:

ـ لا تدين لي بشيء، ومازلت أنا من يدين لك لموت صديقك... مهما أعمل وفي كل السنين التي ستمضي لن أستطيع أن أعيد له الحياة التي اؤْتمنت عليها.

نظر إليه طويلاً محاولاً سبر عمق تلك العينين الداكنتين والعميقتين، الجزء الوحيد من وجهه الذي توصل لرؤيته حتى اللحظة.

ـ أتساءل لماذا تعني لك حياة البعض الكثير بينما البعض الآخر النذر القليل. لَمْ تستطع أن تفعل شيئاً ذاك اليوم، لكن كأن ذكراه تلاحقك وتعذبك، بينما ذبحك للجنود لم يترك عندك سوى اللامبالاة التامة.

لم يجب. اقتصر الطارقي على رفع منكبيه وتابع مهمته في تلقيم فمه بالتمر من تحت اللثام.

ـ هل أنت صديقي؟ سأل عبد الكبير بغتة.

نظر إليه متفاجئاً.

ـ بلى، أعتقد ذلك.

ـ الطوارق يكشفون اللثام أمام عائلاتهم وأصدقائهم لكنك حتى الآن لم تكشفه أمامي. فكّر غزال بضع لحظات ثم، وببطء شديد، رفع يده وترك اللثام يسقط سامحاً له أن يتمحص وجهه النحيل والحازم وقد خططته غضون عميقة. ابتسم:

ـ إنه وجه كأي وجه آخر.

ـ تخيلته مختلفاً.

ـ مختلفاً؟

ـ عجوزاً أكثر ربما... كم عمرك؟

ـ لست أدري. لم أعدّهم قط. ماتت والدتي وكنت طفلاً، وهذه الأشياء لا تهم سوى النساء. لست قوياً كالسابق، لكنني أيضاً لست تعباً بعد.

ـ لا أتخيلك واهناً. لديك عائلة؟

ـ امرأة وأربعة أبناء. زوجتي الأولى توفّت.

ـ أنا لدي ابنان. وزوجتي توفت أيضاً حتى إنهم لم يقولوا لي متى توفّت.

ـ كم من الوقت قضيت في السجن؟

ـ أربعة عشر عاماً.

التزم غزال الصمت محاولاً أن يكوّن فكرة عما تمثله أربعة عشر عاماً في حياة شخص، لكن من غير الممكن حتى تخيل معنى المكوث كل هذا الوقت سجيناً.

ـ كنت دائماً في حصن «الغيريفييس»...؟

ـ هذه السنين، نعم. لكن قضيت قبل ذلك ثمانية في السجون الفرنسية...ـ ابتسم بمرارة ـ كنت شاباً وكنت أناضل من أجل الحرية.

ـ ورغم كل شيء، تريد معاودة النضال مع احتمال خيانتك من جديد، ومن جديد يضعونك في السجن؟

ـ أنتمي إلى فئة من الرجال يستطيعون أن يكونوا في القمة فقط أو في الحضيض.

ـ كم من الوقت كنت في القمة؟

ـ في السلطة؟ ثلاث سنوات ونصف.

ـ ما من تكافؤ ـ أجاب الطارقي مقتنعاً، رافضاً بهزّة مكررة من رأسه ـ ما من تكافؤ مهما كانت السلطة خيّرة، اثنان وعشرون عاماً من السجن مقابل ثلاث سنوات ونصف من الحكم. كلا. حتى ولو كان

العكس. بالنسبة لنا نحن الطوارق، الحرية دائماً هي الأكثر أهمية. على قدر من الأهمية حتى أننا لا نبني بيوتاً من حجارة، يخنقنا الشعور بأننا محاطون بالجدران. تسرني معرفة أنني أستطيع رفع أي جهة من خيمتي وأرى امتداد الصحراء الفسيح من الجهة الأخرى. وتسرني مراقبة الريح كيف تخترق قصب الزرائب... ـ توقف قليلاً ـ الله لا يستطيع رؤيتنا عندما نختبئ تحت سقف من الحجارة.

ـ الله يرانا في كل مكان. حتى في أعمق السجون الحالكة. يقدر عذاباتنا ويكافئنا على تحملنا من أجل قضية عادلةـ نظر في عينيه ـ وقضيتي عادلة ـ ختم.

ـ لماذا؟

نظر إليه حائراً.

ـ كيف لماذا؟

ـ لماذا قضيتك عادلة أكثر من قضيتهم؟ جميعكم تبحثون عن السلطة. أم لا؟

ـ يوجد الكثير من الطرق لممارسة السلطة. بعضهم يستخدمها لمصلحته الشخصية، والبعض الآخر كي تعود بالفائدة على الآخرين وتأمين مستقبل أفضل لشعبهم، وهذا ما كنت أبتغيه. ولهذا السبب لم يجدوا تهمة للحكم عليّ عندما قاموا بخيانتي ولم يتجرؤوا على قتلي.

ـ يجب أن يكون ثمة دافع لخيانتك.

ـ لم أسمح لهم بالسرقة ـ ابتسم ـ أردت أن أشكل حكومة من رجال أنقياء، دون أن أدرك أن ما من بلد يعتمد على ما يكفي من الرجال الأنقياء لتشكيل حكومة. الجميع الآن لديهم «يخوت»، قصور في «الريفييرا»، وأرصدة في سويسرا، مع أننا أقسمنا عندما كنا شباباً ونناضل معاً، أن نكافح ضد الفساد بذات الروح التي نكافح

بها الفرنسيين ـ نقر بلسانه وكأنه يسخر من نفسه ـ كان القَسَم أحمق. استطعنا أن نناضل ضد الفرنسيين لأننا مهما حاولنا لن نصبح فرنسيين أبداً. لكن لم يكن سهلاً النضال ضد الفساد، لأنه بجهد قليل نستطيع أن نتحول أيضاً إلى فاسدين. ـ نظر إليه بإمعان ـ هل تفهم ما أقوله لك؟

ـ أنا طارقي. لست أحمق. الفرق بيننا يرتكز على أن الطوارق يطلون على عالمكم، يراقبونه، يفهمونه ثم يبتعدون. أنتم لا تقتربون من عالمنا وأكثر من ذلك أنتم عاجزون عن فهمه، ولذا نحن دائماً أكثر تفوقاً.

ابتسم عبد الكبير للمرة الأولى منذ أمد بعيد، متسلياً بصدق ما يسمع وهو يسأل:

ـ حقيقة مازال الطوارق يعتبرون أنفسهم السلالة المختارة من الآلهة؟

أشار غزال إلى المدى:

ـ أي سلالة أخرى استطاعت أن تبقى على قيد الحياة ألفي عام في مثل هذه البيداء؟ إذا ما نفد الماء أنا أتابع العيش، بينما أنت تلتهمك الديدان. أليس هذا دليلاً على أن الآلهة اختارتنا؟

ـ هذا ممكن... وإذا كان الأمر كذلك، فقد حان الوقت كي تلتمسوا كل مساعدتها، لأن ما لم تحصل عليه الصحراء في ألفي عام سيحصل عليه الرجال بعشرين. يريدون تدميركم؛ القضاء عليكم، وإزالتكم عن وجه الأرض، مع أنهم لا يشعرون بأنهم قادرون على بناء شيء فوق أجداثكم.

أغمض غزال مقلتيه دون أن يشغل باله كثيراً بالتهديد أو التحذير:

ـ لا أحد يستطيع تدمير الطوارق أبداً ـ حكم ـ لا أحد سوى الطوارق أنفسهم، ومنذ سنين وهم في سلام ولا يتحاربون فيما

بينهم ـ توقف قليلاً ودون أن يفتح مقلتيه، أضاف ـ: الآن من الأفضل أن ترقد للنوم. سيكون الليل طويلاً.

وكان حقاً ليلاً طويلاً ومضنياً. منذ أن بدأت شمس حمراء ومرتجفة تغرق في السديم الذي يطفو فوق قمم الكثبان، إلى أن بزغت هذه الشمس ذاتها، متألقة عن يساره، مضيئة المشهد ذاته لنساء هائلات وعاريات.

تليا صلاتيهما، وجهاهما صوب مكة، وراقبا الأفق من جديد:

ـ إلى متى؟

ـ غداً نصل السهوب... حينئذٍ سيبدأ ما هو أسوأ.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ليس لدى الطارقي جواب، مثل التنبؤ بمجيء عاصفة الرمال أو عندما يرتفع القيظ إلى حدود لا تُحتمل. مثل الإحساس بوجود قطيع الغزلان خلف كثيب أو أن يسلك طريقاً مجهولاً دون أن يضل.

ـ أعرف... ـ كان كل ما قاله أخيراً ـ عند الفجر نبلغ السهوب.

ـ سيسعدني ذلك. ضقت ذرعاً من صعود وهبوط الكثبان والغرق في الرمال.

ـ لا، لا تفرح ـ حكم ـ هنا تسري نسمة. قليلاً أو كثيراً لكنها تنعش وتساعد على التنفس. في طريق الريح تتشكل أنهار الرمال. لكن «أرض الخواء» مثل منخفضات ميتة كل شيء فيها ساكن، والهواء يغدو ثخيناً لشدة حرارته. الدم يغلي، الرئتان والرأس ينفجران. لذا ما من حيوان أو نبات يعيش هناك. وهذه السهوب... شدد على اللفظة مشيراً إلى الأمام بإصبعه ـ... لم يفلح أحد باجتيازها قط.

لم يجب عبد الكبير، مأخوذاً أكثر بنبرة صوت الطارقي مما من الكلمات. تعلم معرفته، ورآه يتدبر أمره في كل لحظة قضياها سوية، وكأن ما من شيء أو أحد يبعث فيه على الذعر، متأكداً بشكل مطلق

من الأرض التي يطؤها ومن العالم العدائي الذي يتدبر أمره فيه. رجل صارم، كتوم وقصيّ، يبدو كأنه يقف فوق المشاكل والمخاطر التي يمكن أن تعترضه، لكن الآن، وهو يتحدث باحترام عن «أرض الخواء» لم يستطع إلَّا أن ينذره بالخطر.

بالنسبة إلى أي كائن بشري آخر، «العِرق» الذي يجتازاه يعني نهاية كل الدروب، وبداية كل أنواع الجنون والموت دون أي أملٍ ممكن. بالنسبة للطارقي لم تشكل حتى الآن سوى المرحلة «المريحة» من رحلة ستبدأ قريباً كي تكون حقيقة «عسيرة». وبالنسبة لعبد الكبير يرعبه تخيّل ما يمكن أن يعتبره ذلك الرجل «عسيراً».

من جهته غزال، يتصارع مع نفسه، متسائلاً فيما إذا لم يكن يبالغ في تقدير قواه لازدرائه نصيحةً، أو ربما قانوناً؟ والذي تناقله حرفياً عبر أجيال أبناء شعبه: «اهرب من تيك دابرا».

«الربع الخالي» في جنوب شبه الجزيرة العربية، وتيك دابرا في قلب الصحراء الكبرى، يشكلان المنطقتين الأقفر من هذا الكوكب؛ تلك التي احتفظت بهما السماء كي ترسل إليهما أرواح القتلة الأكثر شراً، قتلة الأطفال وهاتكي الأعراض، ومثوى الأرواح المعذبة للذين أداروا ظهورهم للأعداء خلال الحروب المقدسة.

تعلّم غزال صياح منذ الطفولة ألا يهتم للأرواح، للأشباح أو الرؤى، لكنه يعرف «أراضي خواء» أخرى أقل شهرة وفظاعة من تيك دابرا، ويستطيع أن يكوّن فكرة واضحة بذلك عمّا ينتظره في الأيام القادمة.

راقب مرافقه. في الحقيقة كان يراقبه منذ اللحظة الأولى؛ منذ أن اكتشف بريق رعب في مقلتيه عندما اعترف له بأنه قتل حراسه. تحمّل كل سني السجن دون أن يستسلم، مقرراً البدء بالنضال من جديد، كان دون أدنى شك رجلاً شجاعاً ذا طبيعة خارج المألوف. لكن الشجاعة في النضال ـ غزال يعرف ذلك جيداً ـ لا علاقة لها بالشجاعة الضرورية في مواجهته للصحراء. عليه ألا يصارع

الصحراء، لأنه لن يغلبها أبداً. يجب تحمّلها، بالحيلة والكذب كي يصل إلى اقتناص حياتها ذاتها عندما يعتقد أنها أصبحت بين يديه. في «أرض الخواء» عليه ألا يكون بطلاً من لحم، إنما حجر بلا دم، لأن الحجارة وحدها استطاعت أن تشكل جزءاً من المشهد.

اعترى غزال الخوف من أنَّ عبد الكبير، مثله مثل جميع الكائنات البشرية الذين لم يخلقوا «إموهاغ»، ولم يترعرعوا بين الرمال والصخور، يفتقرون إلى الحد الأدنى من القدرة على أن يتحولوا إلى حجر.

راقبه من جديد. كان بلا شك رجلاً لا يخاف من الرجال، لكن تسحقه الوحشة وصمت تلك الطبيعة الساكتة للصحراء وعدائيتها العذبة، حيث كل شيء عبارة عن التواءات خفيفة وألوان هادئة، حيث لا تتربص الوحوش الضارية، لا يختبئ العقرب أو الأفعى؛ حتى بعوضة عطشى لا تجيء متوعدة عند الغروب، لكنها تنتن برائحة الموت، رغم عدم وجود أي رائحة، لأن بحر الكثبان المعقّم جعل الروائح فيه تتلاشى منذ ألف عام.

بدأ بالكشف عن بوادر الخلل والجزع الأولى أمام الامتدادات الشاسعة لبحر الرمال حيث المصاعب لم تتجلَ بعد. خفق نبضه بقوة عندما ارتقى أعلى الكثبان، الـ «غوردس» القديمة الضاربة إلى الحمرة والقاسية كالبازلت. ولم يتبينّ في الجهة الأخرى سوى المشهد ذاته مكرراً بدقة ماتركاه خلفهما ألف مرة ومرة، وشاتماً حينما ترمي الجمال حمولتها على الأرض من جديد أو تقع مهددة بعدم النهوض أبداً.

ولم تكن سوى البداية.

نصبا الخيمة. طائرتان عادتا بعد مضي الصباح.

امتنَّ غزال حضورهما وتحليقهما فوق رؤوسهما بعناد دون أن تصلا إلى اكتشافهما، لأنه أدرك أن هذه الطائرات تشكل الحافز الذي يحتاجه عبد الكبير؛ وضوح الخطر الداهم بإعادته إلى السجن،

إلى الموت الآخر، الأكثر قذارة وإهانة، والذي كان ينتظره بلا شك، فيما إذا وقع بين أيادي مطارديه.

وهما يعرفان أن اختفاءهما إلى الأبد في «أرض الخواء» في تيك دابرا، يدخلهما مباشرة في عالم الأساطير؛ بنفس الطريقة التي دخلت فيه آنذاك «القافلة العظمى»، وكذلك مثلما دخل فيه الأبطال الذين لم يستسلموا أبداً. ستمضي مئة عام قبل أن يفقد الشعب الذي أحبه، الأملَ في أن يعود يوماً ما عبد الكبير الأسطوري من الصحراء. وأعداؤه سيواجهون هذا الشبح لأنهم لن يحصلوا أبداً على إثبات مادي وملموس عن موته.

قطعت الطائرات حبل الصمت الرهيب، حتى أنها تركت في الهواء رائحة البنزين التي أيقظت الذكريات.

خرجا لمراقبتها بعد أن ابتعدت محلقة كطيور جارحة تبحث عن قنيصة.

ـ يرتابون بوجهتنا. أليس من الأفضل العودة ومحاولة الهرب من الجهة الأخرى...؟

نفى الطارقي ببطء.

ـ إذا كانوا يرتابون لا يعني أنهم سيعثرون علينا. وحتى لو وجدونا، عليهم أن يأتوا لأخذنا، وهذا لن يفعله أحد. الصحراء الآن هي عدوتنا الوحيدة، لكنها أيضاً حليفتنا. فكّر بها وانسَ ما تبقى.

لكن حتى لو حاول عبد الكبير لا يستطيع أن ينسى ما تبقى. في الحقيقة لا يريد نسيانها، لأنه أيضاً انتبه إلى أنه للمرة الأولى في حياته ثمة شيء ما يرعبه فعلاً.

22

أضواء مختلفة لكن الظلال لا تختلف، إذ أنه لا يوجد أي شيء قادر على إسقاط ظل صغير فوق هذا الامتداد الأبيض اللامتناهي.

الكثبان الأخيرة تهلك بوداعة كألسنٍ ظمأى أو كموج طويل لبحر واهن فوق شاطئ بلا عمق، حدود عنيدة وضعتها الطبيعة بلا دافع مرئي، دون أن تشرح لأحد لماذا تنتهي هنا الرمال، أو لماذا تبدأ السهوب.

وازداد الصمت، حتى أن عبد الكبير كان يسمع دقات قلبه المتسارعة ووجيب الدم في صدغيه.

أغلق عينيه في محاولة لا جدوى منها كي يقصي عن عقله مثل هذا المشهد الكابوسي. بيد أنه تسمّر في شبكية العينين إلى درجة أنه كان متيقناً بأن ذلك ستكون رؤاه الأخيرة أثناء احتضاره.

ما من جبال أو صخور أو وعرٍ؛ لا شيء سوى انخفاض أملس، صفحة من ورق يمكن كتابة كل كتب هذا العالم فوقها.

إن شاء الله!

لماذا شاء الله، وهو القادر على تصوّر كل شيء، أن يجسّم بهذا الشكل الجلّي واقع هذا العدم المطلق؟

إن شاء الله! هذه كانت مشيئته ولا يبقى سوى الرضوخ لما

أحرزه في حبك الدورة حول عمله ذاته، خالقاً صحراء داخل الصحراء.

معه الحق غزال، اختفى الهواء على الحدود ذاتها للكثبان كي يفتح الطريق إلى بيئة فيها خلل، ترتفع درجة الحرارة فيها على بُعد أقل من مئة متر خمس عشرة درجة أكثر، كصفعة من الهواء الساخن، حاثاً على العودة من جديد للبحث عن الحماية العذبة لبحر الرمال الذي كان يتصوره حتى هذه اللحظة بأنه لا يُحتمل.

شرعا بالمسير بعد أن توارت الشمس خلف الأفق، لكن لم ينتعشا بهذا الجو وكأن هذا المكان الملعون يجثم على هامش قوانين الطبيعة الأكثر بساطة، وكتلة الهواء المخلخلة تملك فضيلة كونها لا تُخرق، ناقوس من الكريستال يعزل «أرض الخواء» عن بقية الكوكب.

رغت العيس وصراخها كان صراخ رعب، لأن غريزتها أنذرتها بأن تلك الأرض الصلبة، الساخنة والثابتة تقود إلى نهاية كل الدروب.

مع حلول الظلام ظهرت النجوم، اختار غزال واحدة منها وتبعها باستمرار، وبعد فترة وجيزة انبثق قمر شاحب أسقط، ربما للمرة الأولى منذ بداية الأزمنة، ظلالاً فوق هذه السهوب الشبحية.

غذّ الطارقي السير بخطئ ثابتة ورتيبة كآلةٍ لا حسَّ فيها، بينما امتطى عبد الكبير الناقة الفتية الأكثر مقاومة بين البهائم، والتي لا يبدو أن التعب وندرة الماء قد أثَّرا عليها بعد. وعندما بدأ السناء الحليبي يُكنِّسُ النجوم من السماء، توقف الطارقي، أجبر البهائم على الاستناخة ورفع فوقها قماشاً عريضاً منسوجاً من وبر الجمال.

ساعة بعد ذلك بدأ عبد الكبير يشعر بأنه سيختنق وأن الهواء لا ينزل إلى رئتيه.

ـ ماء... ـ طلب.

اقتصر غزال على فتح عينيه ورفض بحركة خفيفة من رأسه.

ـ سأموت...!

ـ كلا.

ـ سوف أموت...!

ـ دع الحركة. عليك أن تمكث ساكناً. مثل الجمال. مثلي. اجعل قلبك هادئاً وأن يعمل ببطء، ورئتيك تأخذان الحد الأدنى من الهواء الذي تحتاجه. لا تفكر بأي شيء.

ـ جرعة فحسب... ـ تضرع من جديد ـ جرعة...!

ـ سيكون أسوأ. ستشرب عند الحدور.

ـ عند الحدور...! ـ ارتعب عبد الكبير ـ مازال على الأقل ثماني ساعات!

لكنه أدرك ألا جدوى من إلحاحه، أغمض عينيه، أفرغ عقله وحاول أن يجعل كل عضلة فيه تسترخي دون التفكير بالماء أو الصحراء التي تحيطه، أو في الذعر الذي سكن فم معدته، ككل كائن حي.

حاول أن يجعل عقله يبرح جسده تماماً، ويتركه هناك وحيداً متكئاً على جمل، وأدرك كيف يقوم الطارقي بذلك وقد أحرز مبتغاه متحولاً إلى حجر. وتأمل في ذاته، منقسماً إلى جزئين، في الجزء الأول وكأنه الشاهد البسيط، بعيداً تماماً عن واقع الظمأ، القيظ أو الصحراء، بينما الجزء الآخر وكأنه قد تحول إلى قوقعة فارغة؛ غلاف بشري غير قادر على الإحساس أو الوجع.

ومن دون أن يكتنفه النوم تماماً، فرَّ صوب أمكنة بعيدة؛ صوب أزمنة مضت، أكثر حبوراً؛ صوب ذكرى أبنائه الذين رآهم آخر مرة وكانوا مايزالون أطفالاً، وأنهم قد تحولوا الآن إلى رجال وآباء لأطفال آخرين.

اختلطت في عقله أفكار ما بين الواقع والخيال، وتزاحمت مشاهد مُعاشة بكثافة مع أخرى تبدو أكثر حقيقية، ولم تكن مع ذلك سوى ثمرة تخيلاته التي أفلتت من عقالها.

استيقظ لمرتين متكدراً من فكرة أنه مازال سجيناً، وتكدر أكثر من واقع أنه طليق، لأنَّ سجنه تحول إلى السجن الأكبر الذي لا مثيل له فوق الأرض أبداً.

والطارقي مازال هناك أمامه كتمثال، دون أن يقوم بحركة واحدة حتى دون أن يتنفس تقريباً، وراقبه محاولاً أن يكتشف أي نمط من الرجال هو، وأي نوع من الأحاسيس تعتمل في داخله.

يخافه، يخافه ويقدره في الوقت ذاته؛ يشعر بالامتنان له لتحريره، وهو على الأرجح، واحد من الكائنات الأكثر ثقة بنفسها التي عرفها في حياته قط، مستقيمة وتبعث على الإعجاب، لكن ثمة شيئاً ـ ربما الأربع عشرة جثة ـ كان يقف بينهما.

أو ربما كانت الفروقات العرقية والثقافية؛ حقيقة كما أكد غزال، أن رجلاً من الساحل لا يتعلم أبداً معرفة طارقي أو القبول بعاداته.

الطوارق هم الوحيدون بين كل الشعوب الإسلامية الذين مازالوا يتبعون بوفاء تعليمات محمد، معلنين المساواة بين الجنسين، ونساؤهم، ليس فقط أنهن لا يحجبن وجوههن أبداً بحجاب ـ بخلاف الرجال ـ إنما يتمتعن أيضاً بحرية مطلقة حتى لحظة الزواج، دون تقديم حساب عن أفعالهن، لا لآبائهن ولا لزوجهن المستقبلي، والذي بشكل عام يخترنه هنَّ بأنفسهن وحسب عواطفهن.

شهيرة هي «حفلات العُزّاب» في الصحراء عند الطوارق؛ «الأهل»، فتيات وفتيان يجتمعون للعشاء على ضوء الصِلاء، يتسامرون بالحكايات، ويعزفون على الـ «أمزاد». بوتر واحد، يرقصون في مجموعات حتى ساعات الفجر الأولى؛ الوقت الذي تأخذ النساء فيه سعف النخيل من أيدي الرجال مخططين بها على

أنفسهن رسوماً لا يعرف معناها إلا سلالتهم، مشيرة إلى أي نوع من حالات الحب يرغبونه لهذه الليلة.

ثم يختفي كل زوجين في العتمة للبحث في الكثبان فوق الرمال الطرية و«الغندورة» البيضاء الممددة فوقها، عن إرضاء رغباتهما التي عبّرا عنها بسعف اليدين.

العربي التقليدي غيور على عذرية من ستكون زوجته أو شرف ابنته، مثل هذه العادات تتخطى حدود الفضيحة العادية، وعبد الكبير يعرف بلداناً، مثل العربية السعودية وليبيا، وحتى بعض المناطق في وطنه ذاته، يتم فيها رجم أو قطع رأس الآثمين لأقل من ذلك بكثير.

لكن «الأماهِغ» دافعوا عن حق نسائهم الجنسي، حقهن في لبس ما يحلو لهنَّ، ولديهن حقٌّ وصوت في القضايا العائلية، منذ التوسعات الإسلامية في الأزمنة القديمة، حيث كان التعصب الديني أكثر صرامة وتشدداً.

شعب عرف، منذ أن وعي وجوده على وجه الأرض، كيف يتقبل الأفضل الذي يُقدم له، رافضاً له عندما يقيِّد حريته وطبيعته، ورغم معرفته من أنه شعب لا يمكن حكمه، سيشعر عبد الكبير بالسعادة والفخر في أن يكون قائدهم.

لو تسنى لعرف الطوارق كيف يتقبلون ويدركون ما حاول أن يقدمه عبد الكبير، وما كانوا ليخونوه أبداً أو السماح لأحد بخيانته، لأنه عندما يقسم أبناء سلالته بالطاعة «للأمينوكال»، هذه الطاعة تتخطى حدود الموت.

لكن رجال الساحل الذين هتفوا له حتى الجنون عندما تمكن من طرد الفرنسيين، مقدماً لهم للمرة الأولى وطناً ودافعاً كي يشعروا بالكرامة أمام أنفسهم، لم يعرفوا الحفاظ على قسمهم بالوفاء، واختبؤوا في عمق أكواخهم البائسة عند أول نذير بالخطر.

ـ ماذا يعني أن يكون المرء اشتراكياً...؟ سأل غزال في الليلة

لأولى، وكان مازال لديهما رغبة بالكلام وهما يمتطيان الجمال المتأرجحة الواحد إلى جانب الآخر.

ـ يعني أن العدالة تنطبق على الجميع.

ـ هل أنت اشتراكي...؟

ـ بينَ بينْ.

ـ تعتقد أن الجميع، أماهغ وخدم، متساوون...؟

ـ أمام القانون، نعم.

ـ لا أقصد القانون، أقصد خدم وسادة متساوون تماماً.

ـ بشكل ما... ـ حاول أن يكتشف إلى أين يريد الوصول دون الالتزام بشيء ـ أنتم الطوارق آخر الكائنات على الأرض الذين مازالوا يملكون عبيداً دون خجل منهم. هذا ليس عدلاً.

ـ أنا لا أملك عبيداً، لديَّ خدم.

ـ حقاً...؟ وماذا تفعل إذا ما هرب أحدهم، وهو لا يريد أن يعمل لأجلك أكثر؟

ـ أبحث عنه، أجلده، وأعيده ثانية. ولِدَ في بيتي، قدمت له الماء، الطعام والحماية، عندما لم يستطع أن يقوم بذلك بنفسه. أي حق لديه كي ينسى ويذهب عندما لم يعد بحاجتي؟

ـ الحق في نيل حريته الشخصية. أَتقبَل أنت بأن تكون خادماً لآخر لمجرد أنه أطعمك حينما كنت طفلاً؟ إلى متى يجب أن تدفع هذا الدَيْن؟

ـ ليس الشيء نفسه. أنا ولدت «إموهاغ» هم ولدوا «عكلي».

ـ ومن وضع «إموهاغ» في مرتبة أعلى من «عكلي»؟

ـ الله. لو لم يكن كذلك لما جعلهم جبناء، لصوصاً وخدماً. ولما جعل منا شجعاناً، نزهاء وأُباة.

ـ يا للشيطان! ـ صرخ ـ يمكنك أن تكون الفاشي الأكثر تعصباً...

ـ ماذا يعني فاشي؟

ـ الذي يزعم أن سلالته فوق الجميع.

ـ في هذه الحالة أنا فاشي.

ـ حقيقة أنك كذلك ـ اعترف بقناعة ـ مع إنني متأكد من أنك إذا عرفت ماذا هم الفاشيون حقاً، لتخليت عنهم.

ـ لماذا؟

ـ لا شيء يمكن شرحه ونحن نرتجُ فوق جمل كأنه ثمل... من الأفضل أن نترك ذلك لمناسبة أخرى.

لكن هذه المناسبة الأخرى لم تأتِ، واكتنفت عبد الكبير القناعة أن كل يوم يمضي تقلُ فيه إمكانية الوصول. لقد أضناه القيظ، الظمأ والإنهاك، حيث العمل البسيط في لفظ كلمة يقتضي بذل جهد فوق طاقة الإنسان.

حين استيقظ تماماً أخيراً، كان غزال قد رفع المضرب وأوثق الحمولة مرة أخرى فوق ثلاثة من الحيوانات.

وبإيماءة من رأسه أشار إلى الرابع:

ـ علينا أن نقتله هذه الليلة.

ـ سيجلب الطيور الجارحة، والطيور الجارحة تجلب الطائرات. سيجدون أثرنا.

ـ الطيور الجارحة لا تغامر في «أرض الخواء»... ـ تناول وعاءً صغيراً من القصدير، ملأه بالماء وقدمه له ـ الهواء شديد السخونة.

شرب بلوعة وقدم له الوعاء من جديد، لكن الطارقي أغلق القربة بإحكام.

ـ لا يوجد أكثر.

ـ هذا كل شيء....؟ ـ اندهش عبد الكبير ـ لم أبلل حنجرتي حتى.

أشار غزال مرة أخرى صوب الجمل.

ـ هذه الليلة ستشرب دمه. وستأكل لحمه. غداً يبدأ رمضان.

ـ رمضان؟ ـ كرر مندهشاً ـ تعتقد أننا في شروط نحترم فيها سنن الصوم في ظروف كهذه؟

يستطيع أن يقسم أن الطارقي كان يبتسم.

ـ من هو أفضل منا لاحترامها في هذه اللحظة؟ ـ أراد أن يعرف ـ وأي قدر أفضل لعذاباتنا.

نهضت الحيوانات، ومدّ له يده لمساعدته على النهوض.

ـ هيّا ـ رجاه ـ الطريق طويلة.

ـ كم من الأيام سيدوم هذا العذاب؟

نفى بقناعة:

ـ لا أعرف. كلام شرف، لا أعرف. فلنصلِ كي يجعل الله الطريق أقصر بالقدر الممكن، لكن ليس في يده حتى تصغير الصحراء. هكذا خلقها، وهكذا ستكون.

23

رفض السرجنت مالك الحيدري بثبات مرة أخرى.

ـ لا أحد سيأخذ ماء من هذه البئر ولا أي بئر آخر في محيط خمسمئة كيلومتر حتى أعرف أين تختبئ عائلة غزال صياح.

رفع العجوز كتفيه بعجز:

ـ لقد رحلوا. رفعوا مضربهم ورحلوا. كيف نستطيع أن نعرف إلى أين؟

ـ الطوارق يعرفون ما يحدث في الصحراء. لا يموت جمل. لا تمرض ماعز إلا وينتقل الخبر من فم إلى فم. أجهل كيف تفعلون، لكن الأمر هكذا. هل تعتبرني أحمق، تريد أن تجعلني أعتقد بأن عائلة بكاملها مع خيمها، حيواناتها، أطفالها وخدمها تتنقل من طرف إلى آخر في المنطقة دون أن يلاحظها أحد؟

ـ لقد رحلوا.

ـ إلى أين؟

ـ لا أدري.

ـ عليك أن تعرف إن كنت تريد الماء.

ـ حيواناتي ستموت. وكذلك عائلتي.

ـ لا تلمني أنا ـ أشار إليه بإصبعه متهماً، ضارباً إياه على صدره بشكل متكرر، مما جعل العجوز على أهبة أن يمد يده إلى

خنجره ـ واحد منكم ـ أضاف ـ قاتل قذر، قتل عدداً كبيراً منا. جنودٌ من الذين يحمونكم من اللصوص؛ يبحثون لكم عن الماء، يحفرون الآبار ويحافظون عليها من الرمال. الذين يذهبون إثر القوافل عندما تضل، مخاطرين بحياتهم في الصحراء ـ هزّ رأسه مرة تلو الأخرى ـ كلا. ليس لكم الحق في الماء، ولا في الحياة حتى تجدوا غزال صياح.

ـ غزال ليس مع عائلته.

ـ كيف تعرف؟

ـ لأنهم يبحثون عنه في «أرض الخواء» في تيك دابرا.

ـ يمكن أن نكون مخطئين. وإذا لم نجده فسيعود إلى جانب عائلته في يوم ما ـ تغيرت نبرة صوته وأصبحت أكثر عزاء وإقناعاً ـ لا نريد أن نسبب الأذى لعائلته. ليس لدينا شيء ضد امرأته أو أبنائه. نريده هو فحسب، وسوف نقتصر على انتظاره... عاجلاً أم آجلاً عليه أن يظهر.

هزّ العجوز رأسه سلباً.

ـ لن يظهر ـ أجاب ـ إذا كنتم قريبين لن يظهر أبداً، لأنه يعرف الصحراء أكثر من الجميع ـ توقف قليلاً ـ وليس جدير بمحاربين أو جنود إقحام نساء وأطفال في حرب بين الرجال. إنه تقليد وقانون قديم قِدَم العالم.

ـ اسمع أيها العجوز...! ـ عاد الصوت ليصبح قاسياً، قاطعاً ومتوعداً ـ لمْ آتِ إلى هنا كي أستمع إلى دروس في الأخلاق. هذا الخنزير الذي خزاه الله، قتل كابتن أمام عيوننا، اختطف المحافظ، وذبح فتية مساكين وهم نيام، وهو مقتنع بأنه يستطيع أن يسخر من بلد بكامله. ولكن ليس كذلك! أقسم لك بأنه ليس كذلك. وهكذا اختار.

نهض العجوز وابتعد ببطء عن حافة البئر دون أن يجيب بكلمة. لم يخطُ أكثر من خمس خطوات حتى صرخ به مالك:

ـ وتذكر أن رجالي يحتاجون إلى الطعام! سنضحّي بأحد جمالك

في كل يوم، ويمكنك إرسال الحساب إلى المحافظ الجديد في العَقَب!

توقف العجوز للحظة، لكنه لم يلتفت وتابع طريقه بتثاقل إلى حيث ينتظر أبناؤه وحيواناته.

قام مالك بإشارة صوب جندي دهمائي.

ـ علي!

اقترب المنادى عليه بسرعة:

ـ نعم سيدي السرجنت...؟

ـ أنت دهمائي مثل عبيد هذا الأحمق. هو لن يقول شيئاً، لأنه طارقي وأعتقد أن كرامته تلطخت إلى الأبد، لكن آل «عكلي» ينزعون إلى الكلام: يعجبهم قول ما يعرفون، وبعضهم سيكون مستعداً لكسب بعض النقود وإخراج سيده من المشكلة. ـ توقف لفترة وجيزة ـ خذ لهم هذه الليلة قليلاً من الماء والطعام وكأنه أمر يخصك، تضامن بين أخوة من السلالة نفسها، أنت تعرف... اسعَ كي تعود بالمعلومات التي أحتاج.

ـ هؤلاء الطوارق قادرون على ذبحي إذا ارتابوا بوجودي كجاسوس.

ـ لكن إذا لم يفعلوا فستترفع إلى رتبة عريف ـ دسَّ في يده قبضة من الأوراق النقدية المجعدة ـ أقنعهم بهذا.

يعرف السرجنت مالك الحيدري الطوارق جيداً، ويعرف جيداً خدمهم. ما كاد يغلبه النعاس حتى سمع خطوات خارج خيمته في المضرب.

ـ سرجنت!

أطل برأسه ولم يتفاجأ بوجود الدهمائي مبتسم الوجه:

ـ «الغويلتا» في جبال «الهوايلا». إلى جانب ضريح أحمد العنِّين، «المرابطي».

ـ هل تعرفها؟

ـ ليس شخصياً، لكنهم شرحوا لي كيف أصل.

ـ هل هو بعيد؟

ـ مسافة يوم ونصف.

ـ اخبرْ العريف، سنرحل عند الفجر.

اتسعت ابتسامة الدهمائي وأشار برغبة:

ـ الآن أنا عريف... ـ ذكّره ـ عريف أول.

ابتسم بدوره.

ـ معك الحق. الآن أنت عريف أول. اهتم بأن يكون كل شيء جاهزاً عندما تبزغ الشمس... وأحضر لي الشاي قبل ذلك بخمس عشرة دقيقة.

الطيار نفى من جديد.

ـ اسمع أيها الملازم أول... ـ كرر ـ كنا حلّقنا فوق هذه الكثبان على ارتفاع أقل من مئة متر. كان باستطاعتنا أن نتبينّ آخر جرذ، إذا كان في ذلك المكان الملعون ثمة جرذان، لم يكن هناك شيء: لا شيء! ـ ألحَّ مقتنعاً ـ هل لديك فكرة عما تتركه أربعة جمال من أثر في الرمال؟ لو أنهم مروا لرأينا شيئاً.

ـ كلا. إذا كان من يقود هذه الجمال طارقي ـ أجاب رازمان واثقاً مما يقول ـ وأكثر من ذلك إذا كان الطارقي الذي نبحث عنه، لن يسمح للجمال بالمسير في صف واحد كي لا يتركوا درباً مرئياً، إنما الأربعة في العمق، إذ أن قوائمها لا تغوص عميقاً في الرمال القاسية لتلك الكثبان. وإذا كانت الرمال طرية فإن الريح تمحي أثرها في أقل من ساعة ـ توقف قليلاً، وكانوا ينظرون إليه خلال ذلك مترقبين ـ يرحل الطوارق في الليل ويتوقفون عند الفجر. أنتم لا تقلعون قبل الثامنة صباحاً قط، وهذا يعني أنكم تصلون «العرق» عند منتصف النهار... في الأربع ساعات تلك لا يبقى أي أثر لخطى جمل في الرمل.

ـ وهم...؟ أربعة جمال ورجلان... أين يختبئون...؟

ـ هيّا، كابتن...! ـ صاح فاتحاً ذراعيه ـ أنت حلّقت كل يوم فوق هذه الكثبان. مئات، ألوف، ربما ملايين من الكثبان! تحاول أن تجعلني أعتقد بأن جيشاً بكامله لا يكون قادراً على تمويه نفسه هناك...؟ منخفض، قطعة قماش بلون فاتح وقليل من الرمال فوقها، ثم رندح بأغنية...

ـ موافق... ـ وافق الطيار الذي تكلم في البداية ـ موافق تماماً... ماذا تريد إذاً؟ أن نعود لهدر الوقت واستهلاك البنزين؟ لن نجدهم. لن نجدهم أبداً!

رفض الملازم أول رازمان بإيماءة مهدئاً إياهما، ثم اقترب إلى الخارطة الكبيرة للمنطقة المسمّرة على حائط «هنكار» الطائرات.

ـ كلا... ـ أشار ـ لا أريدكما أن تعودا إلى «العِرق»، إنما أن تأخذاني إلى «أرض الخواء» ذاتها. إذا لم تخطئ حساباتي يجب أن يكونا قد وصلا إلى السهوب. يمكن الهبوط هناك...؟

نظر الرجلان إلى بعضهما وكان من الواضح أن هذا الاقتراح ليس فيه أية ظرافة.

ـ لديك فكرة عمّا تكون عليه درجة الحرارة في هذه السهوب...؟

ـ بالطبع... ـ اعترف ـ يمكن أن تصل الرمال فيها إلى ثمانين درجة مئوية عند الهاجرة.

ـ وتعلم ماذا يعني هذا بالنسبة إلى بعض الطائرات العتيقة ذات الصيانة الرديئة مثل طائراتنا...؟ مشاكل التبريد في المحرك، اضطرابات عند المطبات الهوائية المفاجئة والتي لا يمكن التحكم بها، وقبل كل شيء عملية الاحتراق... نستطيع الهبوط بالطبع، لكننا نخاطر بألا نستطيع الإقلاع بعد ذلك أبداً، أو الانفجار عند إدارة المحرك من جديد... ـ قام بحركة من يده أراد بها أن يكون حاسماً ـ أنا أرفض ـ كان واضحاً أن رفيقه يشاركه وجهة نظره. رغم ذلك أصرَّ رازمان:

ـ حتى إذا جاء الأمر من الأعلى؟ ـ خفّض صوته غريزياً ـ تعلمون عمّا نبحث...؟

ـ أجل ـ اعترف الذي كان يصدح بصوته ـ سمعنا إشاعات، لكن هذه مشاكل السياسيين والتي يجب عدم زجّنا بها نحن العسكريين ـ توقف قليلاً وأشار إلى الخارطة بإيماءة رحبة ـ إذا تلقيت أمراً بأن أهبط في أي نقطة من هذه الصحراء، لأننا في حرب، وقد اجتاحتنا جيوش الأعداء، أهبط دون تردد وفي أي لحظة، لكنني لا أفعل ذلك لاصطياد عبد الكبير، فأنا متأكد من أن عبد الكبير لا يطلب مني شيئاً مشابهاً أبداً.

تخدّر الملازم أول رازمان، وألقى دون أن يستطيع تجنب ذلك، نظرة حذرة صوب الميكانيكيين في الطرف الآخر من «الهنكار» الواسع، وهم يجدّون في وضع الطائرات في أمكنتها المحددة. خفّض صوته من جديد، محذراً:

ـ خطِر هذا الذي تفوهت به للتو.

ـ أعلم ـ أجاب الطيار ـ لكنني أعتقد، بعد كل هذه السنين، أن الساعة حانت كي نبدأ بالكشف عن مشاعرنا. إذا لم تستطيعوا القبض عليه في تيك دابرا، وكما أرى إن ذلك صعب، فإن عبد الكبير سيعود قريباً، وجاءت اللحظة كي يوضح كل شخص موقفه.

ـ يمكن القول إنك فرحت لعدم العثور عليه.

ـ مهمتي البحث عنه، وبحثت عنه بأفضل ما أستطيع. ليس ذنبي أننا لم نجده. في أعماقي يخيفني التفكير عمّا يمكن أن يحدث. عبد الكبير طليقاً يعني انقسام البلاد، مواجهات، وربما حرب أهلية، لا أحد يجب أن يتمنى ذلك لشعبه.

عندما غادر «الهنكار» متوجهاً إلى مهجعه، كان الملازم أول رازمان مازال يفكر بتلك الكلمات، حيث للمرة الأولى تُذكَر إمكانيةٍ ترعب الجميع: الحرب الأهلية؛ المواجهة بين فئتين من الشعب نفسه، الفاصل بينهما رجل واحد هو: عبد الكبير.

بعد أكثر من قرن من الكولونيالية، لم يكن شعبه قد انقسم إلى طبقات اجتماعية محددة بوضوح، فاحشي الغنى، مدقعي الفقر، ولم تصنف ضمن النُهج الكلاسيكية للبلدان النامية: رأسمالية من جهة وبروليتاريا من جهة أخرى، ينتهون إلى مواجهات مميتة في كفاح لا يرحم من أجل سيادة مُثُلهم. بالنسبة لهم مع سبعين في المئة من الأمية وتقاليد واسعة في التسلط والقهر، من المهم استمرار هالته بين الرجال، مقدرته على الإقناع، وصدى كلماته التي توقظ ما في أعماق القلوب. وفي هذا ـ رازمان يعرف ـ عبد الكبير هو المنتصر، لأنه بفضل وجهه النبيل والصادق، الذي يبعث على الثقة، واللفظة البسيطة، ما لبث الشعب أن تبعه إلى حيثما يبتغي، وأولاً وأخيراً، وفى بوعده في قيادتهم من الكولونيالية إلى الحرية.

كان راقداً في سريره، متأملاً دون أن يرى، أجنحة المروحة القديمة التي لم تستطع، رغم الجهد المبذول، أن ترطب الجو، متسائلاً عمّا سيكون موقفه عندما تجيء لحظة الاختيار.

تذكر عبد الكبير أيام صباه، عندما حوّله إلى بطلٍ له، مغطياً بصوره جدران غرفته، ثم تذكر بعد ذلك المحافظ حسّان بن كوفرا وكل الذين على شاكلته، فأدرك أن موقفه الشخصي قد حُدد منذ زمن طويل.

ثم فكر بالطارقي؛ ذلك الرجل الغريب الذي تحدى الظمأ والموت وسخر منه بنظافة، وحاول أن يتخيل أين يمكن أن يكون وما الذي يفعله في تلك اللحظات، وعما يتكلم به مع عبد الكبير حينما يرقدان للراحة وقد أضناهما السير الطويل.

«لست أدري لماذا أطاردهما ـ قال لنفسه ـ إذا كنت في أعماقي أرغب بالهروب معهما...».

24

شربا دم الجمل، وأكلا لحمه. شعر بالقوة والهمّة، كان مُمتلِئاً بالطاقة وقادراً على مواجهة «أرض الخواء»، دون أن يشعر بالخوف، لكن يقلقه رعب رفيقه، القنوط الذي يعتريه، اليأس الذي كان يقرؤه في عينيه كل مرة يجيء فيها ضوء نهار جديد صارخاً بهما أن المشهد مايزال ذاته.

ـ ليس ممكناً! ـ كان آخر ما سمعه يقول ـ ليس ممكناً!

كان عليه أن يساعده في الترجل عن الناقة، وجرّه إلى الظل مقدماً له الماء للشرب سانداً رأسه كما يسند طفلٍ مذعور، متسائلاً إلى أين ذهبت قواه وأي سحر شرير تمارسه عليه السهوب اللانهائية.

«إنه عجوز ـ كرر مرة تلو الأخرى ـ رجل ترهل قبل الأوان، قضى السنوات الأخيرة من حياته سجيناً بين أربعة جدران، بالنسبة له كل شيء عدا التفكير يعني جهداً فوق طاقة البشر».

كيف يعترف له أن المصاعب الحقيقية لم تظهر بعد؟ مازال هناك ماء. وثلاثة جمال لسلب دماؤها. ومازالت أمامهما أيام كي تبدأ الأضواء الغريبة اللامعة كألف شمس بالانفجار في أعماق عيونهما، علامة لا تخطئ لبدء التجفاف الحقيقي، بيد أن الدرب طويل، طويل جداً، ويقتضي قوة إرادة هائلة وروحاً لا تغلب للبقاء

على قيد الحياة، دون تقديم حتى الأمل بالنجاح الذي يتوج جهودهما بالمقابل.

«اهرب من تيك دابرا».

لم يستطع التذكر متى سمع للمرة الأولى التحذير الذي تعلّمه ربما في بطن أمه ذاته، لكنه الآن موجود في نقطة ما من تيك دابرا، جارّاً معه رجلاً بدأ يتحول إلى ظل، واعتراه اليقين بأنه هو، *غزال صياح، الصياد، إموهاغ من كيل ـ تالغيموس*، يستطيع التغلب على تيك دابرا بمساعدة أربعة جِمال.

ربما كان أول من أفلح في ذلك، وشهرته ستنتشر في الصحراء من طرف إلى طرف وينتقل اسمه من فم إلى فم كأسطورة، لكنه يجرُّ حملاً لا يُحتمل، مثل تلك السلاسل التي يضعها بعض السادة في أرساغ عبيدهم المتمردين، ومعه هذا العبء: رجل محطم أعلن هزيمته في أقل من أسبوع؛ لا هو، ولا أي طارقي آخر في الصحراء يمكن أن يصل إلى أي مكان. كان متيقناً أنه ستجيء لحظة عليه أن يختار فيها بين إطلاق رصاصة عليه كي يزيل عنه ما يكابده محاولاً إنقاذ نفسه، أو أن يستمر حتى النهاية ويكابدان معاً أكثر أنواع الموت رعباً.

«سيطلب هو نفسه مني أن أقتله ـ قال في دخيلته ـ عندما لا يستطيع التحمّل أكثر، سيتضرع إليّ، وسيكون عليّ أن أفعل ذلك...».

بوسعنا الانتظار فقط، حتى ذلك الحين الذي لن يتأخر جداً.

إذا طلب ضيفه منه الموت بملء إرادته سيكون من حقه منحه له، ومنذ تلك اللحظة يصبح حراً من كل المسؤولية، وكذلك حراً في محاولته إنقاذ حياته نفسها.

«خمسة أيام ـ قدّر ـ خلال خمسة أيام سأكون ما أزال في شروط ممكنة كي أحاول ذلك بنفسي. إذا صمد أكثر سيكون قد فات الأوان لكلينا معاً».

أدرك بأنه أمام معضلة عصيّة: من جهة عليه أن يبذل جهداً كي يحافظ على سلامة رفيقه وتغذية آماله، ومحاولة إنقاذه بكل ما هو ممكن إنسانياً. ومن جهة أخرى هو متيقن أن كل يوم أو ساعة يعمل فيها على إطالة حياته، هو يوم أو ساعة أقل لإنقاذ حياته نفسها. عبد الكبير ببنيته وفقدان التعود يستهلك ثلاث مرات ماء أكثر مما يحتاجه غزال. هذا يعني، في اللحظة الحاسمة، أن الطارقي وحده سيكون له أربعة أضعاف أكثر من الأمل في البقاء على قيد الحياة.

راقبه أثناء نومه، قلقاً، مغمغماً كل وهلة بفم مفتوح جداً كأنه يبحث دائماً عن هواء يرفض الهبوط إلى رئتيه. سيجزيه معروفاً إذا ما أطال حلمه إلى الأبد مجنباً إياه رعب وعناء الأيام القادمة، طالما أنه يغرق في حلم أكثر سكينة ومازال يحتفظ في قلبه بوهم صغير أنه طليق ويداعبه أمل خفيف بأنه سيجتاز الحدود.

أية حدود؟

يجب أن تكون هناك في مكان ما أمامهما، أو لعلها خلف ظهريهما، ما من أحد في هذا العالم يعرف الإشارة إليها، لأن «أرض الخواء» في تيك دابرا لم تكن قادرة على مجرد القبول البسيط لوجود الإنسان، فكيف ستقبل بفرض حدود عليها.

«هي» الحدود ذاتها. حدود بين البلدان بين الأقاليم، وحتى بين الحياة والموت. «هي» تفرض نفسها كحدود على الرجال، وغزال أدرك بطريقة ما أنه كان يحب «أرض الخواء» وأحب محض وجوده هناك بملء إرادته، وأن يكون ربما الكائن الإنساني الأول منذ بداية الأزمنة الذي اختبر بوعي تام ما الذي يعنيه تحدي «صحراء الصحارى».

«أشعر بأنني قادر على التغلب عليك ـ كان آخر ما همس به قبل أن يرقد نائماً بعمق ـ أحسُّ بأنني قادر على التغلب عليكِ والقضاء مرة واحدة على أسطورتك...».

لكنه وقد غفى، كرر لمرة في تلافيف دماغه بملل «اهرب من

تيك دابرا»، إلى أن انبثق من بين الظلال طيف ليلى، فداعب جبهتها وقدم لها ماءً طرياً من البئر الأكثر عمقاً، وأنشد على مسمعها، كما أنشد في تلك الليلة في «الأهل»، حفلة العزّاب، عندما رسم على يدها رموزاً غريبة والتي لا يعرف تفسيرها سوى أبناء شعبه.

ليلى!

ليلى!

توقفت عن عملها في طحن الدُخْن ورفعت عينيها الواسعتين الداكنتين صوب الوجه المتغضن لسويلم، الذي أشار إلى قمة الصخرة الناتئة والطاغية على «الغويلتا».

ـ جنود. ـ كان ذلك كل ما قاله.

كانوا جنوداً فعلاً، هبطوا من كل الجهات بأسلحة جاهزة وكأنهم تهيؤوا لمهاجمة أرض خطرة للعدو، بينما هو مضرب بائس لُرحَّلٍ مأهولٍ بنساء وشيوخ وأطفال فحسب.

ألقت نظرة كي تدرك ما يجري، وعندما التفتت إلى الدهمائي كان صوتها لا يحتمل الرد:

ـ اختبئ. ـ أمرت ـ سيدتك تحتاج إلى معرفة ما يجري.

تردد العجوز للحظة، لكنه انصاع فوراً وانسلَّ بين الخيم والزرائب وقد ابتلعته غابة القصب في المستنقع الصغير.

نادت ليلى بعد ذلك أبناء زوجها وعلى النساء والخدم، تناولت صغيرها بين ذراعيها وانتظرت، شامخة وثابتة، الرجل الذي بدا كأنه يقود مجموعة الجنود إلى أن انتصب أمامها.

ـ ماذا تفعل في مضربي؟ ـ سألت، رغم معرفتها الزائدة.

ـ أبحث عن غزال صياح. هل تعرفينه؟

ـ إنه زوجي. لكنه ليس موجوداً هنا.

تأمل السرجنت مالك ملياً الطارقية البديعة، الأنوفة والمتحدية، دون خمار يحجب وجهها أو ترفل بثياب ثقيلة تخفي ذراعيها، منبت ثدييها أو ساقيها القويتين. سنين مضت منذ أن جاء الصحراء لم يقف أمام امرأة كهذه عن هذا القرب، وكان عليه أن يبذل جهداً عظيماً كي ينسى أفكاره ويجيب بابتسامة خفيفة.

ـ أعرف أنه ليس موجوداً هنا. إنه بعيد جداً. في تيك دابرا.

شعرت بارتعاشة عند سماع ذاك الاسم المخيف. لكنها تمكنت من إخفاء مشاعرها. لا يجب على أحد أبداً أن يقول إنه في مناسبة معينة رأى طارقية تشعر بالخوف.

ـ إذا كنت تعرف أين هو، لماذا جئت إلى هنا؟

ـ لحمايتكم... عليكم المجيء معنا، لأن زوجك تحول إلى مجرم خطير والسلطات تخشى أن تهاجمكم الجموع الحانقة.

كانت ليلى على أهبة أن تطلق قهقهة أمام صفاقة هذا الشخص، وأشارت بحركة رحبة حول محيطها.

ـ جموع؟ ـ كررت ـ أي جموع؟ ما من روح على مسافة يومين من السفر في كل الاتجاهات.

ترك مالك الحيدري ابتسامة أرنب تهرب، سعيداً ومتسلياً للمرة الأولى منذ أمد بعيد:

ـ الأنباء تطير في الصحراء ـ قال ـ أنت تعرفين ذلك. سرعان ما يجيئون وعلينا تجنب حوادث يمكنها أن تسبب حرباً بين القبائل... ستأتون معنا.

ـ وإذا ما رفضنا؟

ـ ستأتون بالقوة. ـ جال ببصره على الحاضرين ـ الجميع موجودون هنا...؟ ـ قام، أمام الموافقة الصماء، بحركة من ذراعه ـ جيد! اشرعوا بالمسير إذاً.

أشارت ليلى إلى ما حولها:

ـ علينا رفع المضرب.

ـ المضرب يبقى هنا... رجالي سيبقون في انتظار زوجك.

بدت ليلى للمرة الأولى تفقد هدوءها، واضطرب صوتها قليلاً في نبرة من التضرع:

ـ لكن هذا كل ما نملك!

ضحك مالك باحتقار:

ـ ليس بالشيء الكثير بالطبع... لكن إلى حيث تذهبين حتى هذا لن تحتاجينه ـ توقف قليلاً ـ تتفهمين أنني لا أستطيع التجوال في الصحراء حاملاً اللُحُف والسجاد والفخار مثل «الماهاريرو» ـ أشار إلى أحد رجاله ـ فليشرعوا بالمسير. علي! ابقَ هنا مع أربعة رجال، تعرف ما عليك فعله إذا ما ظهر الطارقي!

التفتت ليلى بعد خمس عشرة دقيقة لتتأمل للمرة الأخيرة، هناك في الأسفل في عمق المنخفض الصغير، ماء «الغويلتا»، خيمها وزرائبها، حظيرة المعز، والركن إلى جانب دغل القصب حيث ترتع الإبل. تلك الأشياء ورجل هي كل ما تملكه في هذه الحياة، بالإضافة إلى ابنها الذي تحمله بين ذراعيها، واعتراها الخوف من ألا تعود لترى مكانها ولا زوجها. التفتت إلى مالك الذي توقف إلى جانبها:

ـ ما الذي تبتغيه حقيقة منا؟ ـ أرادت أن تعرف ـ لم أرَ أبداً استخدام النساء، والشيوخ والأطفال في مجابهات بين الرجال... هل لجيشك هذا القدر الضئيل من القوة كي يحتاجنا في قتاله مع غزال؟

ـ في حوزته شخص نريده ـ كان الجواب ـ والآن في حوزتنا من يريده هو... نستخدم طرقه، ويمكنك أن تقدمي الشكر لنا لأننا لم نذبح أحداً وهو نائم. نعرض عليه مقايضة: رجل مقابل عائلة بكاملها.

ـ لا يستطيع القبول إذا كان هذا الرجل هو ضيفه. قوانيننا تمنعه.

- قوانينكم لم تعد موجودة! - اتخذ مالك الحيدري مكاناً فوق صخرة مشعلاً سيجارة، بينما رتل الجنود والأسرى بدؤوا بالهبوط من الهضبة الصخرية ساعين إلى السهل حيث تنتظر العربات - قوانينكم سنّها الطوارق للمعايشة والاستخدام الخاص بالطوارق، ليس لها صلاحية أمام قوانيننا الوطنية - أطلق عموداً من الدخان في وجه المرأة - زوجك لم يشأ إدراك ذلك بالتي هي أحسن، والآن علينا أن نشرحها له بالتي هي أسوأ. لا يستطيع أن يقوم بما قام به محتمياً بتقاليده التي تسمح له بذلك، وبأن الصحراء شاسعة جداً. سيعود في يوم ما وعليه في ذلك اليوم أن يتحمل مسؤولياته. إذا رغب في أن يرى زوجته وأولاده طلقاء فعليه أن يسلّم نفسه كي يُحاكم.

- لن يسلّم نفسه أبداً. - حكمت ليلى متيقنة.

- وطّني نفسك، في هذه الحالة، على فكرة أنك لن تعودي وتصبحي طليقة.

لم تجب، توجهت بنظرة طويلة صوب دغل القصب مدركة أن الدهمائي سويلم مختبئ هناك، ثم وكأنها تدير ظهرها نهائياً لكل ماضيها، دارت حول نفسها وبدأت بالهبوط إثر عائلتها.

أنهى مالك الحيدري سيجارته بينما يتأمل، مأخوذاً، اهتزاز المؤخرة الغضة للمرأة، وأخيراً رمى عقب سيجارته بحركة سأم وتبعها بلا عجلٍ.

25

رآها في السناء الأول للصباح، اعتقد أن بصره يخدعه، لكنه كلما اقترب تيقن أكثر من أن ثمة «شيئاً» لا يعرف كنهه، والذي لا يكاد يتضح فوق منبسط بلا عارض واحد.

بدأت حرارة الشمس، وأدرك أن لحظة التوقف وإقامة المضرب قد حانت، قبل أن تنهار الناقة نهائياً والتي كانت تعرج منذ منتصف الليل، لكن الفضول كان أقوى منه، وطلب من البهائم بذل جهد جديد، ثم تركها في النهاية تتوقف على بعد كيلومتر منها.

مدَّ خيمة الكتان فوق البهائم والرجل الذي لم يعد أكثر من ثقل ميت، تأكد من أن كل شيء على مايرام، وتابع على قدميه، بلا عجلٍ، جاهداً كي يكون هادئاً ولا يهدر قواه اليسيرة، مع أن رغبته هي في أن يشرع بالركض والوصول بأسرع ما يمكن.

على بعد مئتي متر لم يعد هناك مجال للشك: بقعة بيضاء مرتسمة على السهب الأبيض، هيكل عظمي لجمل ضخم ومسرج، محنط وسليم بشكل كامل تقريباً بفضل تجفاف البيئة.

تأمله عن قرب، أسنانه الهائلة بيّنت ابتسامة الموت الحزينة، وعيناه اختفتا من محجريهما، وبعض الانكسارات في جلده أظهرت الفراغ التام في داخله.

وجده راكعاً وعنقه ممدود بكامل طوله على الرمل، وهو ينظر صوب الجهة التي جاء منها غزال، أي صوب الشمال الشرقي، مما

يعني أنه جاء من الجنوب الشرقي لأن الجمال عندما تموت من العطش تبحث دائماً، كأملٍ أخير، عن نقطة اتجاهها.

لم يكن يعرف إن كان عليه أن يفرح أم عليه أن يحزن. كان الهيكل العظمي للمهري شيئاً يكسر رتابة المشهد الذي يواكبهما منذ أيام خلت، ولكن المهري إذ جاء ليموت هنا فهذا يعني ألّا أثر للماء وراءه أيضاً.

الناقة العرجاء ستموت قريباً هناك، على بُعد أقل من كيلومتر قادمة من الاتجاه المعاكس، وستبقى محنطة أيضاً، تنظر دون أن ترى، وكل واحدة من الجثث تعلّم منتصف الطريق. أموات جمعت الشمال مع الجنوب من «أرض الخواء» في تيك دابرا حيث الحدود القصوى لقوى بهائم الصحراء المسكينة.

أي أمل تبقى له إذاً هو الذي عليه أن يتابع مسيره إلى الأمام مع ظلين من المطايا المنهكة، ورجل قد استسلم، وهو وحده الذي تمكن بعناء أن يبقيه على قيد الحياة؟

لم يرغب بالرد على نفسه لأنه يعرف الجواب، وفضّل أن يتساءل عمن يكون صاحب ذاك المهري الأبيض ولماذا جاء لينفَق هنا.

تمحص الجلد وقطعاً من الجمجمة التي بقيت مكشوفة. كان قادراً في أي مكان من الصحراء أن يخمّن الوقت الذي مضى على موت الحيوان، لكن هناك وبمثل هذا القيظ والجفاف، في أرض لم تسقط فيها نقطة ماء قط، ولم يبق فيها على قيد الحياة أي كائن حي، قد تكون ثلاث سنوات مثل مئة سنة. كانت مومياء، وغزال لم يكن يفهم كثيراً بالمومياءات.

لاحظ أن القيظ بدأ يثقل عليه، فعاد أدراجه. شكر الظل، وتمحص بدقة سيماء عبد الكبير الذي كان يلهث دون المقدرة على التنفس بشكل منتظم تقريباً. ذبح الناقة وأعطاه دمها وبقايا السائل في معدتها، النتن تقريباً، حوالى ستة أصابع في الإناء النحاسي، كي

يشربها. ممتناً للإغماء الذي يعانيه، لأنه من غير ذلك لم يكن باستطاعته ابتلاع مثل هذا الرِجْس، ثم تساءل بجديّة، إذا ما كان من الممكن أن يقتله هذا السائل آخذاً بالحسبان بأنه لم يكن رجلاً معتاداً، مثل الطوارق، على شرب ماء غالباً ما يكون نتناً.

«النتيجة ذاتها إذا ما مات من هذا أو من الظمأ ـ فكّر ـ إذا ما تحمله سيساعده على المتابعة إلى الأمام».

ثم رقد مستعداً للنوم، لكن في هذه المرة لم تغلب عليه سنة النوم فوراً كعادته عندما يتملكه الإعياء من المسير الطويل. كان يهجس بالهيكل العظمي للجمل الميت هناك، وحيداً بشكل مريع، في قلب البيداء، وحاول أن يتخيل الطارقي المجنون الذي تحدَّى تيك دابرا منطلقاً من «غاو» أو «تُمبُكتو» بحثاً عن واحات الشمال.

المهري كان مايزال مسرجاً لكنه أضاع فارسه وحمولته في الطريق، مما يعني أن سيده قضى نحبه قبله، وتابع وحده باحثاً عن الخلاص الذي لم يجده أبداً. البدو كما الطوارق يحررون البهائم التي ستموت من سروجها دائماً. لأن في ذلك تعبيراً عن الامتنان والتقدير للخدمات التي قدمتها، إذا كان صاحب هذا المهري لم يقم بذلك فلأنه لم يستطع القيام به بلا شك.

من المحتمل أنه سيجد جثته في البيداء في هذه الليلة أو في اليوم القادم، ومن المحتمل أيضاً أنَّ محجري عينيه ينظران إلى الشمال الشرقي بحثاً عن نهاية لذلك المنبسط الذي لا ينتهي.

لكن لم تكن جثة فحسب، بل مئات. اصطدم بها في العتمة؛ تبيّن شكلهم في الظليل تحت الضوء الشبحي لقمرٍ آخذٍ في النمو، وفاجأه اليوم الجديد محاطاً بها، عدد لا نهائي من الرجال والبهائم مبعثرة حوله على مدِّ البصر في المسافات البعيدة. في هذه اللحظة، *غزال صياح، إنموشار من كيل تالغيموس* معروف بين سلالته بلقب «الصياد»، أدرك أنه أول كائن بشري عثر على آثار «القافلة العظمى».

مِزَق من القماش يغطي أجساد الأدلاء والقادة حتى وسطها، وأيدي الكثيرين منهم متشبثة بسلاحها أو قِرَبها الفارغة، والجمال تعرض فوق أسنمتها سروج الطوارق فاقدة اللون بفعل الشمس، مزينة بالفضة والنحاس، وحمل كبير من البضاعة ممزقة بفعل الزمن، وقد تبعثر محتواها النفيس فوق الرمال الصلبة.

أنياب الفيلة، تماثيل من الأبنوس، حرير يتفتت بمجرد لمسه، نقود من ذهب وفضة، ومن المحتمل ألماس بحجم حبة الحمص في جيوب التجار الأكثر غنى. ها هي ذي «القافلة العظمى» الأسطورية؛ الحلم القديم لكل الحالمين في الصحراء؛ ألف ثروة وثروة، والتي حتى شهرزاد لم تتجاسر على تخيلها قط.

ها هي ذي. لكنه لم يشعر بفرح البتة عند رؤيتها إنما بقلق عميق فحسب؛ وبمرارة لا تقهر عندما تأمل مومياءات تلك الكائنات المسكينة وملاحظة تعابير الرعب والألم في وجوههم، وكأنه يتأمل نفسه بعد عشر أو عشرين سنة؛ ربما خلال مئة، ألف أو مليون من السنين، وقد تحوّل جلده إلى رق، العينان فارغتان تنظران صوب العدم، والفم مفتوح في التأوه الأخير سعياً وراء الماء.

وبكى لأجلهم. للمرة الأولى منذ أن كان له ذاكرة، غزال صياح يبكي لأجل أحد، ومع أنه أدرك حماقة وعبث البكاء على أحد مات منذ سنوات عديدة خلت، لكن رؤيتهم هناك أمامه، وإدراك جسامة يأس لحظتهم الأخيرة، صدّع جلادته.

أقام مضربه وسط الأموات وجلس ينظر إليهم، متسائلاً أيٌّ منهم هو غزال عمّه، المحارب الأسطوري الباحث عن المغامرات والذي تعاقدوا معه لحماية القافلة من هجمات اللصوص وقطاع الطرق، ولم يستطع حمايتها من عدوها الحقيقي: الصحراء.

قضى اليوم متيقظاً برفقة الأموات؛ الرفقة الأولى لهم منذ أن أدركهم الموت في الطريق، وطلب من أرواحهم التي تطوف، ربما خالدة في تلك الأطراف، كي تساعده في الهروب من هذا القدر

التراجيدي، مبينة له الطريق الذي لم يعرفوا كيف يعثرون عليه في حياتهم.

وتكلم الأموات معه بأفواههم التي بلا لسان، محاجرهم الفارغة، وعظام أياديهم المسمّرة في الرمال. لم يعرفوا أن يقولوا له عن الطريق القويم، لكن صفّ المومياءات الطويل الذي لا نهاية له على مدّ البصر صوب الجنوب الشرقي يصرخ به بأن الاتجاه الذي يتبعه والذين جاؤوا منه، غير صحيح، ولا يقود إلا إلى أيام وأيام أكثر من الوحشة والظمأ بلا عودة ممكنة.

لذا بقي له أمل وحيد، أن ينحرف صوب الشرق ثم يحيد صوب الجنوب مطمئناً أنه على الأقل في ذلك الاتجاه حدود «أرض الخواء» ستكون أكثر قرباً.

عرف غزال الأدلاء الطوارق جيداً، وهو متيقن بأنه عندما يخطئ أحدهم في الاتجاه يصرُّ على خطئه مهما كانت عواقبه، لأن هذا الخطأ يعني أنه أضاع تماماً المعرفة بالمكان، الأبعاد والنقطة التي وصل إليها، ولا يبقى له حل سوى البحث عن الخلاص في المتابعة وغذّ السير إلى الأمام مطمئناً إلى أن غريزته ستقوده إلى الماء. يكره الأدلاء الطوارق تبديل الاتجاه إذا لم يكونوا مقتنعين تماماً ومدركين إلى أين سيتجهون، حيث يعرفون من التقاليد، منذ قرون خلت، من أن لا شيء في الصحراء، ينهك ويثبط من عزم الرجال سوى التيه والتشرد من طرف إلى آخر دون هدف محدد. لذلك بلا شك، فإن دليل «القافلة العظمى» عندما ولظروف معينة لن يعرفها أحد، اكتشف فجأة بأنه غارق في عالم «أرض الخواء» المجهول، توجب عليه اختيار متابعة اتجاهه، واثقاً من أن الله سيجعل الطريق أقصر مما هو عليه في الحقيقة.

وهو الآن هناك يتمدد جافاً تحت الشمس مُعطياً لغزال درساً، وقد قَبِل غزال الدرس.

جاء الغروب، وعندما كَفّت هذه الشمس عن حرق السهوب بحنق

غادر ظل ملجئه وملأ كيسه بالنقود الثقيلة من الذهب والماس الثخين.

ما انتابه للحظة الإحساس بأنه يجرد الأموات من ممتلكاتهم. فحسب قانون غير مكتوب في الصحراء، كل ما هو موجود من ممتلكات هي لمن يجدها، حيث الأرواح التي دخلت الجنة ستجد هناك كل الثروات المشتهاة، والذين بسبب إثمهم مكثوا خارج الجنة ليس لدى أرواحهم الملعونة الحق في أن تطوف الأبدية بالأكياس الطافحة.

ثم قسّم الماء المتبقى بين عبد الكبير الذي لم يفتح عينيه كي يشكره، وبين الناقة الأصغر من بين النوق؛ الوحيدة التي مازالت تتحمل بضعة أيام على قوائمها. شرب دم الحيوان الأخير ووثق العجوز على المطيّة، وشرع بالمسير تاركاً حتى القماش الذي يناسبه من أجل الظل، فهو ثِقل لا جدوى منه، حيث أدرك بوضوح بأنهما لن يعودا ليتوقفا لا في الليل ولا في النهار وأن إمكانيته الوحيدة في الخلاص تتركز في أن البهيمة وكذلك هو نفسه يكونان قادرين على المسير من دون راحة إلى أن يخرجا من ذاك الجحيم.

تلا صلواته ضارعاً لأجله ولأجل عبد الكبير وللأموات. ألقى نظرة أخيرة على جيش المومياءات، صحح اتجاهه، وشرع بالمسير قائداً الناقة من إباضها والتي تبعته دون أن ترغو بالاحتجاج، متيقنة من أن الثقة العمياء بالرجل الذي يتقدمها تستطيع فقط إنقاذها.

لم يعرف غزال أن الليلة تلك هي الأقصر أم الأطول في حياته، لأن ساقيه كانتا تتحركان كساقي آلة، وقوة إرادته فوق الإنسانية حولته مرة أخرى إلى حجر؛ لكن هذه المرة كانت من تلك «الحجارة المسافرة» في الصحراء؛ صخور ثقيلة تتنقل بغرابة في البيداء تاركة خلفها أخدوداً عريضاً دون أن يكون أحد قادر على أن يحدد بدقة أن من يجرها هي القوى المغناطيسية، الأرواح المحكومة بالأبدية، أم نزوة الله البسيطة.

26

فتح العريف عبد العثمان عينيه ولعن مباشرة حظه العاثر. ارتفعت الشمس شبراً في الأفق مسخّنة الأرض، أو من الأفضل القول، الرمال البيضاء والصلبة، المتحجرة تقريباً في السهوب؛ تلك السهوب المُعَذِّبة والتي خيموا في أطرافها منذ ستة أيام تحت وطأة القيظ الذي لا يُطاق أكثر من أي وقت مضى يتذكره في الثلاثة عشر عاماً من خدمته في الصحراء.

التفت نصف التفاتة محنياً وجهه قليلاً، مراقباً قادر البدين الذي مازال نائماً وهو يشخر مضطرباً، وكأنه في لا وعيه يصارع كي يستمر في عالم الأحلام، رافضاً العودة إلى قذارة الواقع الذي يحيطهما.

كانت الأوامر صارمة: «البقاء في تلك النقطة ومراقبة «أرض الخواء» إلى أن يأتوا لأخذهما. يمكن أن يكون ذلك غداً، خلال شهر أو خلال عام، لكن إذا ما تحركا فالإعدام مصيرهما».

ثمة بئر قريب: ماء قذر ذو رائحة كريهة ويسبب الإسهال، وثمة صيد حيث تنتهي «أرض الخواء» وتنبثق هضبة الحمادة بحجارتها وكلئها ومجاري أنهارها القديمة، التي كانت تجري مندفعة صوب النيجر البعيد أو تشاد الأبعد، منذ آلاف من السنين خلت. جنديان جيدان يُفترض بهما أن يكونا كذلك، ملزمان بالبقاء على قيد الحياة في ظروف كهذه، صامدان الوقت الضروري كله.

أن ينتهيا ليصبحا مجنونين في مثل هذه الوحشة وتحت ذاك القيظ الذي لا يُحتمل، شيء لم يدخل في حسبان الذين أملوا عليهما الأمر، والشيء المؤكد أنهم لا يعرفون لا من قريب ولا من بعيد، الصحارى.

قطرة من العَرَق، الأولى في هذا اليوم، انسابت إلى شاربه الثخين منزلقة حتى أسفل عنقه، صوب صدره المشعر. نهض بلا رغبة، مكث جالساً فوق الملاءة القذرة وبنصف إغماضة من عينيه جال ببصره، بشكل ميكانيكي السهب الأبيض. فجأة انتفض قلبه، تناول المنظار وحدّق في نقطة أمامه مباشرة تقريباً. ثم نادى فاقد الصبر.

ـ قادر...! قادر...! استيقظ أيها الملعون ابن الكلبة!

فتح البدين محمد قادر عينيه على مضض دون الشعور بالإهانة، إذ أن سنوات المعايشة عودته على حقيقة أن العريف لا يستطيع التلفظ باسمه دون إضافة شتيمة رقيقة.

ـ ماذا يحدث بحق الشيطان...؟

ـ انظر وقل لي ماذا يمكن أن يكون ذاك...

مدَّ له المنظار، ومتكئاً على مرفقه كما كان، حدّق قادر بالمكان الذي أشار إليه الآخر. دون أن يُثار أجاب بنعومة:

ـ رجل وجمل.

ـ أنت متأكد؟

ـ متأكد.

ـ أموات؟

ـ هذا ما يبدو....

انتصب العريف عبد العثمان على قدميه، وتسلق الجزء الخلفي من «الجيب»، استلقى خلف الرشاش وحدّق مرة أخرى عبر المنظار ساعياً ألا يهتز نبضه.

ـ معك حق... ـ وافق أخيراً ـ رجل وجمل... ـ توقف قليلاً، بحث خلالها حوله ـ الآخر ليس موجوداً.

ـ لا أستغرب... ـ أوضح السمين الذي بدأ يجمع الملاءات التي كان نائماً عليها، والمطهاة الصغيرة لتسخين الشاي وتحضير الطعام ـ الغريب هو أن «هذا» استطاع الوصول إلى هنا.

نظر إليه عثمان محدقاً مع نفحة محددة من الشك:

ـ والآن ماذا نفعل؟

ـ الذهاب لإحضاره، أقول...

ـ هذا الطارقي خطر. خطر بشكل خبيث.

قادر، الذي انتهى من جمع كل شيء ووضعه في العربة، أشار بإيماءة إلى الرشاش الذي يستند الآخر عليه.

ـ أنت تسدد وأنا أقود العربة. أقل حركة اسحقه.

ارتاب لحظة لكنه انتهى موافقاً بقناعة.

ـ دائماً أفضل من بقائنا ننتظر... إذا كان حقيقة ميت، نستطيع هذا اليوم ذاته أن نرحل، هيّا!

رفع زناد السلاح بينما البدين والمتعرق محمد قادر سار بالعربة ببطء مديراً عجلة القيادة صوب المكان مباشرة الذي تبيّنا فيه الجسدين.

توقف على بعد ثلاثمئة متر، راقب حذراً وتناول المنظار، بينما العريف لم يترك الراقد يحيد عن نقطة النظر.

ـ إنه الطارقي لا مجال للشك.

ـ هل هو ميت؟

ـ مع كل هذه الثياب لا أستطيع أن أعرف إذا كان يتنفس أم لا. الجمل نعم ميت. لقد بدأ بالانتفاخ...

ـ هل أُطلقُ النار على هذا الخنزير...؟

نفى محمد قادر. العريف أعلى مرتبة منه، لكن من الواضح أنه هو الأكثر ذكاءً، بالإضافة إلى أن هدوءه، دمه البارد، أو رباطة جأشه كانت شهيرة في الموقع.

ـ من الأفضل إحضاره حياً. يمكنه أن يقول لنا شيئاً عن عبد الكبير... القائد يعجبه ذلك...

ـ ربما ننال ترقية.

ـ ربما... ـ وافق البدين على مضض، فهو ليس لديه أي اهتمام بترقية وفي زيادة التزاماته ـ أو ربما يمنحوننا إذناً لمدة شهر في العقب.

يبدو أن العريف اتخذ قراراً.

ـ حسناً... اقترب أكثر!

استطاعا على بعد خمسين متراً ملاحظة عدم وجود أي سلاح إلى جانب جسد الطارقي، وأن يديه تبدوان مفتوحتين ومرئيتين بشكل دقيق؛ وقد سقط على بعد عشرة أمتار من الجمل، وكأنه أراد محاولة متابعة طريقه عندما خانته قواه بشكل كامل.

توقفا أخيراً على بعد أقل من سبعة أمتار بينما الرشاش مصوبٌ على الصدر مباشرة، وعند أقل حركة يخرمونه بالرصاص. قفز محمد قادر من المقعد، تناول رشاشه، ودار خلف الجمل كي لا يكون في خط نار العريف عثمان. اقترب من الطارقي الذي بدت عمامته مائلة قليلاً، ومرمية تقريباً فوق اللثام الوسخ. غرز البدين ماسورة السلاح في معدة الراقد، الذي لم يتحرك ولم يصدر عنه أي صوت، ثم ضربه بعقب السلاح، وأخيراً انحنى فوق ليستمع إلى نبضات قلبه.

فَقَدَ العريف صبره من موقعه خلف الرشاش:

ـ ماذا يحدث...؟ أميت هو أم حي؟

ـ ميت أكثر مما هو حي... لايكاد يتنفس وقد أصابه التجفاف تماماً. إذا لم نعطه ماء لا يتحمل حتى ست ساعات.

ـ فتِّشه...!

قام بتفتيشه بدقة.

ـ لا يحمل سلاحاً ـ أكدَّ، ثم توقف بينما يفتح كيساً من الجلد، حيث تبعثر على الرمل القاسي شلال من النقود الذهبية والماس ـ ياللشيطان...! ـ صاح.

قفز العريف عبد العثمان من العربة وبخطوتين واسعتين انتصب إلى جانب رفيقه، ومدَّ يده إلى النقود وإلى حفنة من الحجارة الكريمة الثخينة التي تدحرجت على الأرض.

ـ ما هذا...؟ إنه غني ابن القحبة هذا... محاط بالثروة...!

وضع البدين محمد قادر سلاحه جانباً، ثم جمع الجواهر واضعاً إياها من جديد في الكيس. أشار دون أن يرفع وجهه:

ـ نعم. لكن هو وحده من يعرف ذلك... ـ صمت قليلاً ـ والآن نحن.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

نظر إليه مواجهة:

ـ لا تكن أحمق! إذا أَعدناه حيّاً يمنحوننا إذناً لمدة شهر، لكن عندما يشفى سيطالب بنقوده، والقائد لا يتأخر دقيقة في معرفة مع من تكون ـ توقف قليلاً ـ لكن ماذا سيحدث لو تأخرنا بضع ساعات فقط في إيجاد الجثة...؟

ـ أنت قادرٌ على ترك شخص يموت هكذا؟

ـ نكون قدّمنا له معروفاً ـ لفت انتباهه ـ ماذا تعتقد أنه سيحدث إذا ما أمسكوا به بعد كل ما فعله؟ يوسعونه ضرباً، يجعلون منه عاهرة، وينتهون إلى شنقه. أم لا؟

ـ هذا ليس شأني. أنا أقوم بواجبي ـ مدَّ يده ورفع اللثام الذي غطى وجه الرجل المغمى عليه ـ انظر في وجهه! ستقتله...؟

نظر البدين محمد قادر من دون رغبة حتى إلى الوجه المغطى بالقشور، الشاحب والمتغضن. ذقن مشعثة وبيضاء توحي بالشيخوخة بوضوح. أراد أن يشيح ببصره مباشرة، إلا أن شيئاً لفت انتباهه، وصاح على حين غرّة:

ـ هذا الشخص لا يمكن أن يكون الطارقي...! إنه عبد الكبير...!

وكأن هذا الاكتشاف حذّره من خطر داهم، فوضع يده على سلاحه، وفي تلك اللحظة دوّت طلقتان، اثنتان فحسب. العريف عبد العثمان والجندي محمد قادر قفزا في الهواء وكأنهما دُفعا بعنف من يدٍ لا مرئية، وسقطا على وجهيهما، الأول فوق جسد عبد الكبير والثاني وجهه على الرمل.

مضت بضع ثوانٍ كان كل شيء فيها ساكناً. أحنى العريف رأسه بتثاقل، اكتشف وجه رفيقه مع ثقب في جبهته، وانتابه ألم عميق في صدره وفي معدته. لكن رغم ذلك قام بجهد واستطاع أن يدور ويجعل وجهه صوب السماء، كي ينتصب جاهداً وليبحث فيما حوله عن صاحب هاتين الطلقتين.

لم يتبيّن أحداً. السهوب ظلت لا نهائية كما هي دائماً، موحشة وراسخة دون أن تقدم مكاناً يختبئ فيه قناص. لكن الأشياء أمام عينيه ورؤاه بدأت تغشى ببطء، ظهر نصف عار ومغطى بالدماء كأنه كائن من عالم آخر، يمسك السلاح بيده بثبات، الشكل الطويل لرجل نحيل وقوي، كأنه ولد من البطن المنتفخ للناقة الميتة.

عبر إلى جانبه بعد توجيه نظرة وجيزة إليه كي يتحقق من أنه لا يشكل خطراً، دفعه بقدمه مبعداً رشاش البدين، واتجه مسرعاً إلى العربة. بحث فيها بلهفة إلى أن وجد قربة ماء وشرب منها طويلاً دون أن يحيد بصره عن الجريح.

شرب وشرب تاركاً السائل ينسكب في حنجرته وعلى صدره،

غصّ وسعل، لكنه عاد للشرب من جديد وكأنه لم يشرب منذ سنين. وأخيراً عندما استهلك حتى النقطة الأخيرة، أطلق جشأة مدوية واستند لحظة على إطار العربة الاحتياطي كي يستعيد نَفَسه بعد هذا الجهد الهائل.

تناول قربة أخرى، اقترب من جسد عبد الكبير، رفع رأسه وجعله يبتلع الماء بأحسن ما يستطيع، مع أن الماء المراق كان أكثر من الذي سال في حنجرته. أخيراً بلل وجهه والتفت إلى الجريح:

ـ أتريد ماء...؟

وافق العريف عثمان بإيماءة. اقترب الطارقي، أخذه من منكبيه، وجرّه إلى أن أسنده في ظل العربة، وقدم له القربة مساعداً إياه على الشرب. نظر إلى الجرح في الصدر حيث يتدفق الدم فقاعات، فهزّ رأسه.

ـ أعتقد بأنك ستموت... ـ قال ـ تحتاج إلى طبيب ولا يوجد أحد من الأطباء قريب.

وافق عثمان بإيماءة وسأل بتثاقل:

ـ أنت غزال، أليس كذلك؟ كان عليَّ أن أتذكرك وأتذكر الخِدَع القديمة للصياد. لكن الثياب والعمامة واللثام ضللتني.

ـ هذا كان قصدي.

ـ كيف عرفت بأننا سنجيء؟

ـ اكتشفتكما في السَّنا الأول للصباح وكان لدي الوقت لتحضير كل ذلك.

ـ قتلت الناقة.

ـ كانت ستموت في كل الحالات.

سعل العريف تاركاً خيطاً من الدم يسيل من بين شفتيه وأغلق للحظة مقلتيه بشكل ينمُّ عن الألم العميق والخمود. عندما فتحهما من

جديد أشار صوب الكيس الذي كان مايزال قائماً إلى جانب جثة البدين.

- وجدت «القافلة العظمى»؟

أومأ بالإيجاب وأشار إلى خلف ظهورهم.

- إنها هناك؛ على بعد ثلاثة أيام.

هزّ الآخر رأسه وكأنه يكلفه جهداً الموافقة على روعة وجودها المؤكد. أخيراً أغلق عينيه متنفساً بمشقة. لم يقل شيئاً آخر، وبعد عشر دقائق كان ميتاً.

مكث غزال ساكناً، مقرفصاً أمامه، محترماً احتضاره، وفقط عندما لاحظ أنه أحنى رأسه نهائياً فوق صدره انتصب واقفاً، وجرَّ عبد الكبير مستخدماً قواه الأخيرة حتى القسم الخلفي من العربة.

استراح قليلاً، لأن الجهد كان مفرطاً، ثم نزع عن عبد الكبير الذي مايزال في غيبوبة، ثيابه، لثامه وعمامته وارتداها. عندما انتهى من ذلك جلس منهكاً. شرب من جديد واستلقى في ظل العربة إلى جانب جسد العريف عثمان. وغفا في اللحظة.

أيقظه بعد ثلاث ساعات خفق أجنحة الطيور الجارحة الأولى. بعضها كان قد أوغل في أحشاء البهيمة الميتة، وأخرى بدأت بالاقتراب بوجلٍ من جثة الجندي. نظر إلى السماء. الطيور الجارحة بالعشرات. لقد كانت على أطراف «أرض الخواء» ذاتها ويمكن التفكير أنها سرعان ما ظهرت بفعل فن من السحر، انبثقت من بين الأثل وجُنُب(*) الحمادة القريب.

أقلقته. دوائر من الطيور تحوم في الهواء، ستبدو مرئية من بُعد كيلومترات كثيرة من كل الاتجاهات، وكان يجهل على أي بُعد تتواجد فيه الدورية الأخرى.

تمحص الرمل. كان قاسياً، حتى لو توافر في العربة فأس

(*) جُنُب: ما بين الشجر والبقل. م.

ورفش فهو لا يشعر بأنه قادر على حفر حفرة تستطيع إخفاء الرجلين والناقة. تفحص بعد ذلك سيماء عبد الكبير الذي أصبح يتنفس بشكل أفضل، لكنه مازال بعيداً عن استعادة وعيه. أعطاه ماءً من جديد وتأكد من وجود وعائين طافحين بالماء وآخر بالبنزين وما يكفي من الطعام. فكّر مطولاً؛ يعرف أنَّ عليه أن يغادر المكان بأسرع وقت ممكن، لكن ليس لديه فكرة عن كيفية جعل العربة تدور، وهي بين يديه ليست أكثر من كومة خردة لا فائدة منها.

حاول أن يتذكر. الملازم أول رازمان كان يقود عربة مشابهة، ولفت انتباهه كيف كان يدير المقود من جهة إلى أخرى، وكيف يضغط تحت قدمه ويحرك بشكل دائم الذراع الطويل والمتوج بكرة سوداء متموضعة عن يمينه.

جلس في مقعد السائق وقلّد كل حركة قام بها الملازم أول محركاً المقود، ضاغطاً بقوة على كل واحدة من الدعسات، الكابح، «الدبرياج» ودعسة البنزين محاولاً أخذ الكرة السوداء من جهة إلى أخرى، لكن المحرك مازال أخرس. ما من صوت وصل إليه، وأدرك أن كل هذه الحركات تصلح للقيادة، لكن قبل ذلك يجب أن يعمل على إدارة المحرك.

انحنى وتفحص بدقة ذراع علبة السرعة، المفاتيح، أزرار ومؤشرات لوحة القيادة. أطلق نفير السيارة، مما أخاف الطيور، توصل إلى تبليل مسّاحات الزجاج بالماء ومباشرة تناثر الماء من جهة إلى أخرى بوساطة ذراعين مائلين وهما يتحركان برتابة، لكنه مازال لا يسمع الزمجرة المرجوة من المحرك.

أخيراً شاهد مفتاحاً داخل قفله. نزعه، لم يحدث شيء، عاد وأدخله، النتيجة ذاتها. جرّب أن يجعله يدور في القفل. الوحش الميكانيكي أبدى همّة وسعل ثلاث مرات، مرتعشاً من طرف إلى طرف. لكنه احتفظ بصمته مرة أخرى.

تحمست عيناه لإدراكه بأنه توصل إلى الطريق السليم. أدار

المفتاح بيد بينما يحرك باليد الأخرى المقود كمن مسّه الجنون، والنتيجة ذاتها: سعال، ارتجاف وصمت. جرّب بالمفتاح وذراع السرعة في الوقت ذاته. لا شيء.

المفتاح والدعسة. لا شيء.

المفتاح والدعسة على اليمين، وزعق المحرك بصخب، لكنه بقي هكذا، وعندما ببطء شديد، أرخى الضغط عن الدعسة، تحقق برضا أن المحرك لم ينطفئ، وهو يصخب بوداعة.

تابع تجاربه مع الكابح، «الدبرياج»، دعسة السرعة، ذراع الكابح اليدوي، المفاتيح الكهربائية للضوء، تبديل السرعات، وعندما نفد صبره توصل إلى أن العربة قامت بقفزة إلى الأمام، العجلات الخلفية عبرت فوق العريف عثمان وتوقفت بعد ثلاثة أمتار.

خفقت الطيور الجارحة بأجنحتها تعبيراً عن انزعاجها.

أعاد العملية فتقدم مترين آخرين. حاول حتى الغروب وعندما قرر ترك العربة لم يكن يفصله عن الطيور والأموات أكثر من مئة متر.

أكل وشرب، صنع حساء من البسكويت والماء والعسل، استطاع أن يجعل عبد الكبير يبتلعها، وما كاد الليل يخيّم حتى تكوّر فوق إحدى الملاءات على الأرض ورقد نائماً بعمق. هذه المرة لم تكن الطيور الجارحة ما أيقظه عند الفجر، إنما أصوات الضباع والثعالب التي راحت تتشاجر حول الجيفة، واستمع خلال دقائق طويلة إلى الشجار، تحطيم العظام تحت الأسنان القوية وانتزاع مِزَق اللحم.

كان غزال يمقت الضباع. يكره الطيور الجارحة والثعالب، لكنه يشعر نحو الضباع بشكل خاص باشمئزاز لا يستطيع السيطرة عليه منذ أن كان صبيًا صغيراً، طفلاً تقريباً، عندما اكتشف ذات صباح أنها التهمت جَدْياً حديث الولادة مع أمه: بهائم منفّرة ونتنة؛ عرجاء، جبانة، غادرة، قذرة وجلفة والتي إذا ما اجتمعت بأعداد كافية قادرة

على مهاجمة رجل غير مسلح. لماذا وضعها الله فوق الأرض؟ كان هذا أحد الأسئلة التي يسألها مراراً والتي لم يجد لها جواباً قط.

اقترب من عبد الكبير الذي ينام بعمق ويتنفس الآن بطبيعية. سقاه ماء مرة أخرى، ثم جلس منتظراً النهار مفكراً في حقيقة أنه هو غزال صياح، سيدخل التاريخ في الصحراء - وأسطورتها - كأول رجل تغلب على «أرض الخواء» في تيك دابرا.

وربما أيضاً، في يوم ما، سيُعرف بأنه هو الذي وجد أخيراً «القافلة العظمى».

«القافلة العظمى»! كان يكفي لقادتها أن ينحرفوا قليلاً صوب الجنوب كي ينقذوا أنفسهم، لكن الله لم يشأ ذلك، ولا أحد سواه يستطيع أن يعرف بسبب أية آثام فظيعة عاقب أفرادها بمثل هذا القدر المرعب. هو موزع الحياة والموت، ولم يكن يسعهم سوى قبول ذلك بوداعة، وشكره في هذه المناسبة حيث أبدى رحمته سامحاً له بإنقاذ نفسه وإنقاذ ضيفه.

إن شاء الله!

الآن يفترض أن يكون في بلد آخر، بعيداً عن الخطر، لكن الجنود مازالوا أعداءه والمطاردة لا تبدو كأنها انتهت.

وما من طريقة للهروب. الجمل الأخير كان يُلتهم من قبل البهائم الجارحة، وعبد الكبير سيتأخر أياماً كي يستطيع أن يقوم بخطوة، وهذه القطعة المعدنية الهامدة وحدها تستطيع إبعاده عن الخطر المحدق، فشعر بإحساس عميق بالحنق أمام عجزه وجهله. جنود بسطاء، الأقذر من بين البدو، وحتى دهمائي «عكلي» مُعتق الذين مكثوا بضعة أشهر إلى جانب الفرنسيين قادرون على جعل عربة أكبر بكثير من تلك، شاحنات ثقيلة محمّلة بالإسمنت تتقدم، لكن هو، غزال صياح، *إنموشار* معروف بذكائه، شجاعته ودهائه لكنه مع ذلك، مثل الأكثر حماقة بين الأطفال أمام هذه الآلة المتعرجة والمعقدة والعصيّة على الفهم.

كانت الأشياء دائماً عدوته، يكرهها، وحياته المتنقلة اقتصرت على ما لايتجاوز الدزينتين من الأشياء التي لا غنى عنها، لكن حتى هكذا، كان يرفضها غريزياً، وبالنسبة له كرجل طليق وصياد متفرد، يكفيه سلاحه، قربة الماء، وسروج مطيته. الأيام الماضية في «العقب» التي قضاها منتظراً اللحظة المناسبة لخطف المحافظ بن كوفرا، واجهه على حين غرّة عالم محيِّر، حيث الطوارق الأصيلون في الزمان الغابر، زاهدون مثله، يبدو كأنهم مولعون «بالأشياء»، أشياء لم يعرفوها قط، ولم يحتاجوها من قبل، لكنها الآن أصبحت ضرورية لا غنى عنها بالنسبة لهم كالماء أو الهواء الذي يتنفسونه.

والعربة، الشعور بأنها تنقلك من جهة إلى أخرى دون سبب ظاهر، تحولت كما استطاع ملاحظته، إلى حاجة ماسّة دون أن يعتري الشباب الرحّل مشاعر الرضا مثلما كان يعتري آباءهم عند المسير الطويل خلال أيام وأسابيع عبر السهوب من دون عجلٍ أو جزعٍ متيقنين أن هدفهم كائن هناك، في نهاية الدرب. وهناك سيظل الهدفُ قائماً عبر القرون والأزمنة مهما كانت خطاهم بطيئة.

الآن، ومن السخرية الغريبة للقدر، هو، غزال الذي كثيراً ما كنَّ الضغينة والاحتقار للأشياء، وكثيراً ما انتابته مشاعر النفور الجمّة أمام كل أنواع العربات الميكانيكية، موجود هناك، راقد إلى جانب واحدة منها والتي تتعلق حياته وحياة ضيفه بها، لعن نفسه لجهله ولشعوره بأنه غير قادر على إجبارها، بالرفس والركل، على الركض عبر السهب صوب حرية في متناول اليد.

طلع الصبح وأَبعد الضباع والثعالب، لكن الطيور الجارحة مازالت تجيء بالعشرات تجتاح السماء بتحويمات الموت، ممسكة بمناقيرها القوية لحم رجلين وبهيمة، الذين كانوا منذ أربعة وعشرين ساعة خلت ممتلئين بالحياة. كانت هذه الطيور تنعق كأنما لتخبر العالم أن ثمة كائناً بشرياً يخلق عملاً تراجيدياً مرة أخرى، هنا على حافة الحمادة في نهاية «أرض الخواء» في تيك دابرا.

27

ـ في هذا الفراش الذي تجلسين عليه، وفي هذا الوقت ذاته تقريباً، عندما كان الجميع نياماً، ذبح زوجك الكابتن، وبدأ بتعقيد حياته أكثر مما كانت عليه.

قامت ليلى بحركة غريزية كي تنهض من الفراش، لكن السرجنت مالك الحيدري وضع يده بقوة على كتفها وأجبرها على البقاء في مكانها.

ـ لم أسمح لك بأن تتحركي ـ أوضح ـ ويجب عليك أن توطّني نفسك على فكرة أنه هنا في «عدوراس» وحتى يرسلوا ضابطاً جديداً، لا شيء يتحرك من دون أمري.

عبر الغرفة واتخذ له مكاناً على الكرسي الهزاز القديمة، حيث المرحوم غالب الفاسي كان يقضي ساعات في القراءة متأرجحاً. هزّ السرجنت نفسه ببطء دون أن يحيد ببصره عن الفتاة.

ـ أنت جميلة جداً... ـ قال أخيراً بصوت رخيم قليلاً ـ الطارقية الأكثر جمالاً التي لم أر مثلها قط... كم هو عمرك؟

ـ لست أدري. ولست طارقية. أنا «عكلي»..

ـ «عكلي»...؟ ابنة العبيد! ـ صاح ـ انظر...! يجب أن يكون هذا الطارقي مجنوناً بك كي يحوّل دهمائية إلى زوجته. لا أستغرب... يبدو عليك أنك جيدة في الفراش. هل أنت جيدة في الفراش؟

لم يلقَ جواباً، ويمكن القول إنه لم ينتظره. تناول سيجارة من

الجيب العلوي لقميصه، أشعلها بولاعة كانت تنتمي إلى الكابتن ودخن ببطء مستمتعاً بالدخان وبرؤية الفتاة التي كانت تتأمله بدورها، شامخة ومتحدية.

ـ هل تعرفين كم من الوقت مضى دون أن أرى امرأة عارية؟ ـ سأل مبتسماً بمرارة ـ لا؛ لا تستطيعين معرفته، لأنه حتى أنا نفسي لا أتذكر ذلك في هذا الوقت ـ قام بإشارة من رأسه صوب تقويم قديم معلق فوق السرير ـ هذه القحبة البدينة التي يجب أن يكون عمرها مئة عام، كل ما لدي طوال هذا الوقت، وأقضي ساعات أنظر إليها ممارساً العادة السرية وحالماً في اليوم الذي ألتقي فيه بامرأة حقيقية ـ تناول منديلاً وسخاً وجفف به العرق الذي انساب طليقاً على رقبته ـ والآن أنتِ هنا، كما في أحلامي؛ بل أفضل وأكثر شباباً حتى مما في أحلامي... ـ صمت قليلاً، وأخيراً بنعومة دون أن يرفع نبرة صوته، لكن بحزم، أضاف ـ: تعرّي.

مكثت ليلى بلا حركة وكأنها لم تسمعه، وبريق طفيف من الخوف التمع في أعماق عينيها السوداوين الواسعتين بينما أصابعها تشنجت قليلاً فوق القماش الوسخ والخشن للفراش.

لبث مالك الحيدري لبضع لحظات منتظراً؛ أنهى سيجارته، وضعها بحذر على الأرض تحت رجل الكرسي الهزاز وتركها تسحقها أثناء تأرجحها. رفع وجهه من جديد ونظر إليها محدقاً.

ـ اسمعي...! ـ أشار ـ هناك شكلان للمضي قدماً بهذه المسألة: بالتي هي أحسن، أو بالتي هي أسوأ. أنا شخصياً أفضل الأولى، لأنها دائماً أكثر متعة للطرفين. تعاوني فنمضي وقتاً ممتعاً، وأنا أتعاون من جهتي جاعلاً السجن أقل وطأة. إذا قاومتِ سأحصل على الشيء نفسه بالقوة، بالإضافة إلى أنه لا يهمني مطلقاً ماذا يمكن أن يحدث لكِ بعد ذلك... أو ما يمكن أن يحدث لذويكِ... ـ ابتسم بمكر ـ اثنان من أبناء زوجك جميلان جداً... مراهقان جميلان...! أنت لاحظتِ كيف ينظر إليهما بعض رجالي؟ لقد أمضوا هنا أيضاً سنوات معزولين، وهناك على الأقل ثمانية سيشعرون بسعادة جمّة إذا ما

غضضت الطرف وسمحت لهم هذه الليلة، عندما يكون الجميع نيام، بوضع أياديهم على هؤلاء الصبيان...

ـ أنت خنزير.

ـ ليس أكثر من أي آخر أمضى زمناً طويلاً مثلي في هذه الصحراء الملعونة ـ توقف عن التأرجح ومالَ إلى الخلف، متأملاً من خلال النافذة الصغيرة الكثبان المرتفعة التي أطبقت على الواحة ـ الأشياء تبدو مختلفة هنا، بالقدر الذي تمضي به السنون وتفقدين الأمل بأنه في يوم ما سيسمحون لك بالعودة... عندما تدركين بأن لا أحد سيشعر بالاهتمام والرأفة بك قط، متغاضية عن مشاعر الاهتمام والرأفة بالآخرين ـ عاد لينظر إليها من جديد ـ لن يمنحوني شيئاً. الذي لا أخذه لا أحد يقدمه لي، وأؤكد لك عندما يراك آخرون سيحاولون أيضاً... تعرّي! ـ كرر، والآن هو أمر.

ترددت ليلى.

مازالت تحاول المقاومة وكل كيانها تمرَّدَ ضد فكرة الطاعة، بيد أنها أدركت، وعرفت منذ اللحظة الي رأته فيها للمرة الأولى، أن السرجنت ماجور مالك الحيدري قادر على فعل كل شيء، حتى السماح لرجاله بالاستمتاع حتى الإنهاك بأبناء زوجها والذي علّمها على حبهم وكأنهم أبناؤها.

أخيراً، وببطء شديد، انتصبت واقفة، صالبت ذراعيها، أمسكت بأطراف فستانها البسيط ورفعته فوق رأسها ورمته في الركن. جسدها متين، فتي وغامق، بثديين صغيرين ومؤخرة صلبة. لبثت عارية تماماً، والسرجنت مالك تأملها لزمن طويل دون أن يترك التأرجح في كرسيه وكأن فكرة إطالة تلك اللحظة بالقدر الممكن تروق له، مستمتعاً في تفكيره بانتظار أن يتعرى هو بدوره.

الشمس مرتفعة جداً، نتن الجثث بدأ يصبح غير محتمل والطيور الجارحة تحولت إلى سحابة وما من فائدة في مكافحتها.

تبيّن في الدرجة الأولى عمود الغبار الذي ارتفع من جهة الغرب مقترباً بسرعة، وعندما تسلق العربة وحاول تمحص ميكانيكية الرشّاش مستعداً للدفاع عن نفسه، لاحظ البقعة الرمادية والجسيمة لعربة جديدة قادمة من الجنوب أكثر بطئاً وثقلاً، وبرجها الصغير متوج بمدفع خفيف ذي طلقات سريعة.

نظره الحاد جعله يدرك أنه بمواجهة سلاح كهذا فإن كل محاولة للمقاومة لا فائدة منها. وحاول أن يعزي نفسه بفكرة أنه تغلب على صحراء الصحارى في تيك دابرا، وأن وفاءه لضيفه فقط هو الذي أوصله إلى هزيمته.

تناول بندقيته وتقدم حتى حافة الحمادة ذاتها دون أن يبحث عن حماية خلف صخرة أو نبات، بينما عبد الكبير بقي خلف ظهورهم خارج مرمى الرصاص.

أعدّ سلاحه وانتظر مقدراً المسافة واللحظة التي تبدأ فيها العربة بالإطلاق، لكن عندما استطاع أن يتبين الجنود تماماً، متردداً بسلاحه المواجه لهم، بين قتل السائق أو الذي خلف الرشاش، في تلك اللحظة دوى في البعيد انفجار، قذيفة أزت في الهواء بينما قفزت العربة كلها متحولة إلى شظايا بعد أن أصيبت بكاملها؛ كُبحت بغتة وكأنها اصطدمت بجدار لا مرئي.

جثة ممزقة طارت على بعد أكثر من أربعين متراً بينما الآخر تشظى وكأنه لم يوجد قط. بعد ثوانٍ قليلة لم يبق من «الجيب» أكثر من كومة من الخردة المدخنة.

غزال صياح، إنموشار من شعب كيل ـ تالغيموس، معروف بلقب «الصياد» مكث متسمراً في الأرض مندهشاً، غير قادر، ربما للمرة الأولى في حياته أن يدرك ما الذي كان يحدث أمام عينيه.

أخيراً، ببطء، التفت صوب العربة الأخرى «الدبابة ـ أوروغا»، التي تابعت مسيرها غير آبهة لتقف على بعد عشرات الأمتار في النقطة المحددة التي تجمع الحمادة مع «أرض الخواء».

رجل طويل بشارب معتنى به، وبزة عسكرية بلون الرمل ونجوم على حاشية الكُم، قفز مباشرة وتقدم بخطى ثابتة ليقف أمام الطارقي.

ـ عبد الكبير...؟ ـ سأل.

أشار غزال إلى ما وراء ظهريهما.

ابتسم الضابط بارتياح وهزّ رأسه وكأنه رمى للتو ثقلاً كبيراً عن ظهره.

ـ باسم حكومتي وباسمي الشخصي أرحب بكما في بلادنا... سيكون شرفاً لي أن تكونا في حمايتي حتى الموقع العسكري، ومرافقة الرئيس عبد الكبير شخصياً حتى العاصمة...

شرعا بالمسير ببطء صوب العربة. غزال لم يستطع تجنب رفع بصره محدّقاً بنظرة طويلة إلى بقايا «الجيب» المحطم والذي مازال الدخان يتصاعد منه. القادم الجديد لاحظه، وهزّ رأسه بسلبية.

ـ نحن بلد صغير، فقير ومسالم، لكن لا يعجبنا أن يغزو حدودنا أحد.

حينما وصلا معاً إلى عبد الكبير الذي مازال في غيبوبة، تفحصه الرجل بدقة، تأكد من أنه يتنفس بصورة طبيعية وبدا أنه تخطى الخطر، رفع الوجه مطلقاً نظرة طويلة إلى السهوب اللانهائية التي انفتحت أمامه.

ـ لم أعتقد أن أحداً قط... أحداً في هذا العالم... قادر على اجتياز هذا المكان الملعون!

ابتسم غزال ابتسامة خفيفة.

ـ هل تقبل بنصيحة؟ ـ قال ـ اهرب من تيك دابرا!

28

بعد ثلاث ساعات من المسير طبطب بخفة على ذراع الضابط.

ـ توقف... ـ طلب.

أطاعه الآخر موقفاً «الجيب» ورفع يده لكي تقف الدبابة أيضاً التي كانت تتبعهم.

ـ ماذا حدث...؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ سأترجل هنا.

ـ هنا...؟ ـ ذُهل موجهاً نظرة حائرة إلى سهب من الحجارة والأشواك ـ ماذا ستفعل هنا؟

ـ سأعود إلى البيت... ـ أشار الطارقي ـ أنت ذاهب إلى الجنوب. عائلتي هناك، بعيداً جداً إلى الشمال الشرقي، في جبال الهوايلا... حانت ساعة العودة.

هزّ العسكري رأسه وكأن القبول بذلك يكلفه جهداً.

ـ مشياً؟ ووحيداً...؟

ـ أحد ما سيبيعني جملاً.

ـ إنها سفرة طويلة جداً حول تخوم «أرض الخواء».

ـ لذا عليّ أن أشرع بالمسير حالاً.

التفت الضابط وأشار بإيماء من رأسه إلى جسد عبد الكبير الراقد.

ـ ألا تريد الانتظار إلى أن يستيقظ...؟ يريد أن يقدم لك الشكر شخصياً...

رفض غزال بعفوية. ترجّل متناولاً أسلحته وقربة الماء.

ـ ليس هنالك من شيء يشكرني عليه... ـ توقف قليلاً ـ أراد اجتياز الحدود، وها هو قد اجتازها، الآن هو ضيفك... ـ نظر إليه نظرة طويلة وودودة ـ بلّغه من طرفي تمنياتي بحظ سعيد.

يبدو أن الآخر قد أدرك أن قراره لا مرد له ولا شيء يستطيع أن يثنيه عنه.

ـ هل تحتاج إلى شيء؟ ـ سأل ـ نقود أو مؤونة؟

رفض بإيماءة من رأسه مشيراً إلى السهب:

ـ أنا الآن إنسان غني، وفي هذه المنطقة رأيت الكثير من الصيد. لا أحتاج شيئاً.

مكث ساكناً بينما العربة تعبر من جانبه مبتعدة صوب الجنوب. نظر حوله بعد أن استقر من جديد عمود الغبار المرتفع، وضجيج المحرك قد تلاشى في البعيد، محدداً الاتجاه، مع أنه لا يوجد في هذا المنبسط الفسيح أية علامة طبيعية تفيده في تحديد اتجاهه، وشرع بالمسير بلا عجلٍ، بنَفَسِ المتنزه الهادئ الذي يجوب مرجاً في هدأة الغروب، مستمتعاً بالمشهد، بكل نبتة، كل صخرة، كل بعوضة، وبكل انسياب أفعى. معه ماء، بندقية جيدة وذخيرة؛ ذاك هو عالمه، قلب الصحراء الذي أحب، وفكر بالاستمتاع برحلة طويلة حيث سيلتقي في نهايتها بزوجته وأبنائه، خدمه، معزه وجماله.

عبرت نسمة خفيفة، وإذ تحلُّ الظلمة تهجر بهائم السهوب أوجارها لترتع بين أجمات السنديان الواطئة، هناك حيث قتل أرنباً جميلاً صلح كعشاء له على ضوء صِلاء من حطب الأثل. تأمل النجوم التي جاءت لرفقته، وبعث وجه وجسد ليلى في ذكرياته الحبور، ضحكات ولعب أبنائه؛ الصوت العميق والكلمات الذكية لصديقه عبد

الكبير، والمغامرة الفاتنة الشغوفة التي لا تنسى، والتي جعلته يعيش على عتبة النضوج ذاتها، ووسمت حياته إلى الأبد. الشيوخ سوف يتكلمون عنها خلال سنين، مذهلة الفتيان بمأثرة الرجل الوحيد الذي تحدّى جيشاً بكامله، وتحدَّى «أرض الخواء» في تيك دابرا في الوقت ذاته.

سيروي لأحفاده كيف كانت مشاعره في اليوم الذي رافق فيه أرواح «القافلة العظمى»، وكيف حدثها عن ذعره من أن يموت هو أيضاً في البيداء، وكيف الأصوات المخنوقة للمومياءات وأصابعهم المجردة من اللحم رسمت له الطريق الصحيح، وكيف تبعته خلال ثلاثة أيام وثلاث ليالي دون أن يتوقف ولو لمرة واحدة خلال ذلك، مدركاً من أنه لو فعل ذلك لا هو ولا البهيمة سيكونان قادرين على الشروع بالمسير ثانية. وقد تحولا معاً بفضل إرادته الوحشية إلى آلة ميكانيكية الحركة لا يتأثران بالقيظ أو الظمأ أو الإعياء. وها هو ذا الآن هناك، متمدد على الرمل الطري مستشعراً بيده الملامسة العذبة للقربة النديّة الناضحة بالماء إلى جانب بقايا الأرنب البري الذي مازال ينبعث الدخان منه ومن الصِلاء، وكيس الذهب المعلق في خصره. وشعر بالسلام مع نفسه ومع الكون الذي يحطيه، فخوراً بكونه رجلاً وطارقياً، وفخوراً قبل كل شيء بأنه بيَّن أنَّ ما من أحد، حتى ولا الحكومة، يستطيع أن يسمح لنفسه باحتقار سنن وعادات شعبه.

فكّر بعد ذلك بما سيكون عليه مستقبله بعيداً عن مراعيه المطروقة، والأماكن التي اعتاد عليها منذ طفولته، لكن لم تقلقه فكرة الهجرة إلى ما بعد الحدود، إذ أن الصحراء هي نفسها، وهي متشابهة في ألوف الكيلومترات أيّاً كان البلد الذي سيقيم فيه. وليس عليه أن يخاف من أن يجيء أحد لينازعه على الرمال والصخور والحجارة، فمن الواضح أن الناس الذين يختارون الصحراء كشكل للحياة أصبحوا في كل يوم أكثر ندرة.

لا يريد حروباً أكثر ولا عراكاً. مشتاقٌ إلى سلام خيمته وأيام

الصيد الطويلة، والسهرات الفاتنة على ضوء الصِلاء مستمعاً مرة بعد أخرى إلى حكايات العجوز سويلم؛ حكايا سمعها عندما كان طفلاً وسيتابع سماعها من دون سأم إلى أن يسكت الخادم الوفي إلى الأبد.

في اليوم الثالث عند الغروب اكتشف مضرباً من خيم وزرائب إلى جانب بئرٍ.

كانوا طوارق من «شعب الرمح»، ناس فقراء لكنهم لطفاء ومضيافون، وافقوا على بيعه أفضل مهري عندهم، ونحروا خروفاً على شرفه صنعوا منه «الكُسْكُس» الأطيب بين الطعام الذي تذوقه منذ زمن طويل، ودعوه إلى سهرة ستقام في الليلة المقبلة.

أدرك بأنه لا يستطيع أن يسيء إليهم رافضاً الدعوة لذا أخرج من كيس صغير من الجلد الأحمر معلق في رقبته قطعة نقود ثقيلة من الذهب ووضعها أمامه.

ـ أحضر الحفلة فقط إذا كنت أنا من يدفع ثمن الحملان ـ قال ـ وهذا هو الثمن.

قبل مالك البيت بصمت، تناول قطعة النقود الذهبية وتمحصها باهتمام:

ـ التداول بهذه أصبح نادراً ـ أشار ـ كلها الآن أوراق قذرة قيمتها تتبدل بين يوم وآخر. من أعطاك هذه.

ـ قائد قوافل عجوز... ـ أجاب دون أن يكذب لكنه أيضاً لم يقل الحقيقة تماماً ـ كان لديه الكثير منها.

ـ بمثل هذه كانوا يدفعون للأدلاد والجمَّالين... ـ اعترف الآخر مقتنعاً ـ بمثل هذه كانوا يشترون البهائم والمؤن... أتعلم؟ ـ ثم أضاف بابتسامة ساخرة ـ أنا سجلت مع «القافلة العظمى» لكن قبل السفر بعشرة أيام بدأت أبصق دماً فرفضوني. «معك سلّ ـ قالوا ـ لن

تصل إلى طرابلس...» ـ هزّ رأسه وكأن القبول بسخرية القدر يكلفه جهداً ـ قريباً سأكمل التسعين عاماً... ـ تابع ـ ومن «القافلة العظمى» لم يبق شيء.

ـ كيف شفيت من السل؟ ـ أراد غزال أن يعرف ـ ابني الأكبر وزوجتي الأولى ماتا بسببه.

ـ عقدت اتفاقاً مع جزار من تُمبُكتو... ـ أجاب العجوز ـ أن أعمل عاماً عنده مجاناً مقابل أن يدعني آكل نيئاً أسنِمة كل الجمال التي يذبحها... ـ ابتسم مستمتعاً ـ سمنت حتى تحولت إلى برميل، لكن أخيراً ما عدت أبصق دماً... مئتا حدبة جمل تقريباً ـ صاح ـ لم أعد أقترب صوب واحدة من تلك البهائم الملعونة في حياتي، وأفضل المسير ثلاثة أشهر على أن أمتطي واحدة منها...

ـ أنت أول «إموهاغ» أسمعه يتكلم بالسوء عن الجِمال... ـ لفت انتباهه.

ـ ربما... كان الجواب المسلي ـ لكني أيضاً أول «إموهاغ» يبقى على قيد الحياة بعد مرض بالسل...

حركت الصبية الفاتنة بضفائر ناعمة، ونهدين شامخين ويدين مزينتين بالحلي وراحتاها مصبوغتان بالحنة، الوتر الوحيد لـ «الإمزاد» فصدح من داخله صوت حاد يشبه العويل أو ضحكة حادة. نظرت إلى الغريب غزال مباشرة وكأنها تقدم له حكايتها شخصياً، فقالت:

«ـ الله أكبر والحمد لله... ـ توقفت قليلاً ـ يحكى، وهذا لم يحدث في بلاد «الأماهِغ» ولا في «التيكنا»، لا في مراكش ولا تونس ولا الجزائر أو موريتانيا، إنما هناك، في العربية السعودية، قريباً من المدينة المقدسة مكة، حيث على كل المؤمنين أن يحجّوا ولو لمرة واحدة في حياتهم، إنه عاش، منذ أمد بعيد، في المدينة المزدهرة والعامرة «مير»، مفخرة الخلفاء، ثلاثة تجار ماكرين

كانوا قد حصلوا بعد سنين عديدة من المتاجرة معاً على كمية محترمة من النقود والذين أرادوا توظيفها في شأن تجاري جديد... ومع ذلك ما كان أحدهم ليثق بالآخر، لذا وضعوا ذهبهم في كيس واتفقوا على تركه في عهدة صاحبة البيت الذي عاشوا فيه، معربين عن رغبتهم بعدم تسليمه لأي منهم إذا لم يكن الآخرون حاضرين.

«بعد بضعة أيام قرروا الكتابة إلى مدينة بالجوار في شؤون تتعلق بتجارتهم، واحتاجوا إلى رق للكتابة، أحدهم قال:

«ـ سأذهب في طلبه من المرأة الطيبة والتي بالتأكيد لديها بعض منه.

«لكن عند دخوله البيت قال لها:

«ـ سلّميني الكيس الذي في حوزتك لأننا نحتاجه...

«ـ لن أفعل إذا لم يكن صديقاك حاضرين ـ أجابت المرأة. ورغم إلحاحه تابعت المرأة رفضها، حتى أشار التاجر الماكر:

«ـ أطلي من النافذة وسترين رفاقي في الشارع كيف سيطلبون منك إعطائي إياه...

«فعلت المرأة ما طُلب منها، بينما خرج التاجر مقترباً من شركائه قائلاً لهم بصوت خفيض:

«ـ لديها الرق الذي نحتاجه، لكنها لا تسلمني إياه إلا إذا طلبتما منها أنتما أيضاً.

«بمنأى عن هذه المكيدة، صاحا على المرأة بأن تلبي طلب الآخر، وهكذا أعطته الكيس الذي هرب به هذا اللص فارّاً من المدينة.

«لكن عندما وقع التاجران في الخديعة ووجدا نفسيهما من دون نقود أدانا المرأة المسكينة وأخذاها إلى القاضي، مطالبين بالعدالة.

«وكان ذلك القاضي متزناً وذكياً، استمع إلى الطرفين، وبعد تفكّر طويل، أصدر حكمه:

«ـ أعتقد أنه معكما الحق في طلبكما، ومن العدل أن تعيد لكما المرأة الكيس أو أن ترد لكما المال من ممتلكاتها... لكن كما هو الحال، فإن الاتفاق يقضي لكي يُسلّم الكيس لا بد من وجود الشركاء الثلاثة مجتمعين. أفترض أنه من العدل أن تعملوا على إيجاده، وأن يمثل أمامي، وأنا في تلك اللحظة ذاتها أعمل على أن يتم الاتفاق...

«وهكذا كان حيث انتصر الحق والعقل بفضل الحكم السديد لذاك القاضي الذكي.

«فلتكن مشيئة الله هكذا دائماً. الحمد لله...».

نقرت الفتاة على «الإمزاد» وكأنها أرادت بذلك أن تضع نقطة الختام على سرد حكايتها، ثم ومن دون أن تحيد النظر عن غزال أضافت:

ـ أنت، الذي على ما يبدو قادم من الأقاصي، لماذا لا تحكي لنا حكاية؟

طاف غزال ببصره على الجماعة: ما يقارب العشرين من الفتية والفتيات تزاحموا حول الصِلاء، وعلى جذوتها يشوون خروفين كبيرين ببطء، تضوعت منهما رائحة عذبة وعميقة، وسأل:

ـ أي نوع من الحكايا تريدين سماعها....؟

ـ حكايتك... ـ أجابت الفتاة بسرعة ـ لماذا أنت وحيد، بعيد عن بيتك؟ لماذا تدفع ما تشتريه بالعملة الذهبية القديمة؟ أي سرٍ غامض تخبئ؟ فعيناك رغم لثامك تنمان عن سر عميق مبهم.

ـ عيناك هما اللتان تريدان رؤية سرّ حيث لا يوجد سوى الإعياء ـ أكّد ـ قمت بسفرة طويلة. ربما هي السفرة الأطول التي لم يقم بها أحد في هذا العالم قط... اجتزت «أرض الخواء» في تيك دابرا.

آخر القادمين إلى السهرة، كان فتى قوياً وحليق الرأس، وله عين فيها حَوَل خفيف، وندبة عميقة تنزل من خده حتى حنجرته، سأل بغتة بصوت مضطرب:

ـ أنت ربما غزال صياح؛ إنموشار من كيل ـ تالغيموس، أقامت عائلتك مضربها في «الغويلتا» في جبال «الهوايلا»....».

شعر بانقباض في قلبه.

ـ نعم، أنا هو.

ـ لدي أخبار سيئة لك... ـ تأسف الفتى ـ أنا قادم من الشمال، وانتقل هناك الخبر من قبيلة إلى قبيلة، من خيمة إلى خيمة...: الجنود أخذوا زوجتك، وأبناءك... وكل ذويك. عجوز فقط، خادم دهمائي، هرب وهو يقول: «ينتظرونك ليقتلوك في «الغويلتا» في «الهوايلا».

كان عليه أن يجهد نفسه كي لا يخرج النشيج من عمق حنجرته، وطلب من أعمق أعماق «أرض الخواء» أن يحافظ على رباطة جأشه.

ـ إلى أين أخذوهم...؟ ـ استطاع أخيراً أن يتلفظ بصوت مفتعل الهدوء.

ـ لا أحد يعرف. ربما إلى العقب... ربما أبعد إلى الشمال، حتى إلى العاصمة... يريدون مقايضتهم بعبد الكبير...

نهض الطارقي وابتعد ببطء صوب الكثبان، تبعته كل النظرات والصمت الجليل، واختفت فرحة الاحتفال كضربة سحر، وما من أحد لاحظ أن أحد الخرفان كان يحترق. كأن «غري ـ غري» المصائب انبثقت من لهب الصلاء ونَفَسها النتن محا بريق الحماس في النظرات والرغبة في متعة الأجساد. ترك غزال نفسه يسقط في العتمة فوق كثيب، وغمر وجهه في الرمل جاهداً ألا يترك العنان لبكائه، غارزاً أظافره في راحة يده حتى الإدماء.

لم يعد رجلاً غنياً عائداً إلى ألفة بيته بعد مغامرة طويلة، لم يعد

حتى البطل الذي اختطف عبد الكبير من مخالب أعدائه والذي اجتاز معه جحيم «أرض الخواء» واضعاً إياه سليماً في الجهة الأخرى من الحدود. لم يعد الآن أكثر من أبله، مسكين أضاع ما يملكه في هذا العالم بسبب حماقته في الحيلولة دون عدم احترام بعض التقاليد البائدة والتي لا تعني شيئاً لأحد.

ليلى...!

رعشة كدلقة ماء مثلج انسكب على ظهره عندما تصورها في قبضة أولئك الرجال ببزاتهم القذرة، والأحزمة الثقيلة والنعال القوية ذات الروائح الكريهة. تذكر وجوههم عندما ظهروا ببنادقهم أمام باب خيمته، والاستهتار بمضربه والتعسف الذي كانوا يلحقونه بالبدو في «العقب». تأوه أجش، رغم محاولته تفاديه بكل الوسائل، خرج من بين شفتيه مجبراً إياه على عضٍّ متن كفه بقوة.

ـ لا تفعل... لا تردع نفسك. لدى الأكثر قوة بين الرجال الحق في البكاء في لحظة كهذه.

رفع رأسه. الصبية الفاتنة ذات الجدائل الناعمة كانت قد جلست إلى جانبه، ومدت يدها لتداعب وجهه كما تفعل أم لطفل مذعور.

ـ لا عليكِ، انتهت الأزمة ـ قال.

نفت بقوة.

ـ لا تحاول خداعي. لم تنتهِ...هذه الأشياء لا تنتهي. تبقى عميقاً في الداخل كرصاصة لا مخرج لها. أعلم لأن زوجي توفى منذ سنتين، ومازالت يداي تبحثان عنه في الليل.

ـ هي لم تمت... ـ أكَّد وكأنه يحاول إقناع نفسه ـ هي طفلة تقريباً... أرجو ألا يسمح الله بأن يفعلوا بها شيئاً.

ـ لا يوجد رب أكثر مما نحن نريد أن يوجد ـ أجابت بقسوة ـ تستطيع أن تثق به إذا أردت. لن يكون ذلك فائضاً أبداً. لكن إذا كنت قادراً على التغلب على «أرض الخواء» في تيك دابرا، فستكون قادراً على إعادة عائلتك... أنا متأكدة.

ـ وكيف أستطيع فعله؟ ـ أشار محبط العزيمة ـ لقد سمعتِ: يريدون عبد الكبير. ولم يعد معي.

نظرت الفتاة إليه بثبات تحت الضوء البهي للبدر الذي ارتفع في كبد السماء محولاً الليل إلى نهار.

ـ أكنت ستقبل بالمقايضة حتى إذا كان مايزال معك؟ ـ أرادت أن تعرف.

ـ إنهم ابنائي... ـ كان الجواب ـ زوجتي وأبنائي... كل ما عندي في هذه الحياة.

ـ يبقى لديك كرامتك كطارقي... ـ ذكّرته ـ ومما أعرفه عنك فأنت الأكثر اعتزازاً وشجاعة بيننا. ـ توقفت قليلاً ـ أكثر من اللازم ربما... عندما أنتم المحاربون تلقون بأنفسكم في المعارك، لا تتوقفون أبداً للتفكير بالسوء الذي يمكن أن يلحق بنا، نحن النساء الباقيات في الخلف، نتلقى الضربات من دون المشاركة بالنصر... ـ نقرت بلسانها وكأنها مستاءة من نفسها ـ لكنني لم آتِ لاتهامك ـ أكدت ـ ما حدث حدث ولك دوافعك. جئت لأنه في لحظة كهذه يحتاج الرجل فيها إلى رفقة... هل يعجبك أن تكلمني عنها...؟

هزّ رأسه.

ـ إنها طفلة فحسب...! وأجهش بالبكاء.

29

انفتح الباب بضربة، قفز السرجنت مالك الحيدري من فراشه واثباً نحو المسدس الذي يرقد فوق الطاولة، لكنه توقف حينما تبيّن طيف الملازم أول رازمان مرتسماً بالإضاءة العنيفة من الخارج.

بذل جهداً، وهو نصف عار كما كان، كي يحافظ على نَفَسه العسكري. مكث جامداً، مؤدياً التحية العسكرية محاولاً ضرب كعبيه ببعضهما مما كان يبعث على الضحك حقيقة، إلا أن سيماء الملازم أول بيَّنت بشكل واضح بأنه لم يكن بمزاجية يلتقط فيها الموقف المضحك. وعندما اعتادت عيناه على ضوء المكان، اقترب من إحدى النوافذ، فتح مصراعيها وأشار بإيماءة من سوطه إلى المهجع المجاور:

ـ من هم هؤلاء الناس المسجونون سرجنت؟ ـ أراد أن يعرف.

شعر بعرق بارد مفاجئ ينبعث من كل مسامات جلده، لكنه صارع كي يحافظ على رباطة جأشه، أجاب:

ـ عائلة الطارقي.

ـ منذ متى هم هنا؟

ـ منذ أسبوع.

التفت رازمان إليه وكأنه لا يريد أن يصدق ما يسمعه.

ـ أسبوع...؟ ـ كرر مذعوراً ـ تريد أن تجعلني أعتقد بأنه لديك

نساءً وأطفالاً تشويهم في هذا القيظ وتحبسهم في هذا الجحيم منذ أسبوع دون أن تعطي علماً بذلك لقادتك...؟

ـ الراديو معطل.

ـ كذاب... تكلمت للتو مع عامل المقسم... أنت أعطيت أمراً بالسكوت... لذا كان من غير الممكن إعلامك بوصولي... ـ توقف بغتة، إذ أن نظره وقع على شكل ليلى عارية تماماً وقد قبعت مذعورة في أقصى ركن من المكان، في النقطة التي كانت نائمة فيها فوق ملاءة بالية، عيناها كانتا معلقتان، كبديل، على مالك الحيدري، وأخيراً، كأنه يخشى طرح السؤال، سأل بصوت أجش: من هذه؟

ـ زوجة الطارقي... لكن ليس كما تفكر، حضرة الملازم أول... هي قبلت بطيب خاطر... قبلت...! ـ كرر مادا يديه بإشارة متضرعة.

اقترب الملازم أول رازمان من ليلى محاولاً تغطية عريها بطرف الملاءة.

ـ هل صحيح بأنك قبلتِ؟ ـ أراد أن يعرف ـ أَلَمْ يجبرك؟

نظرت إليه الطارقية بإمعان، ثم ملتفتة إلى السرجنت، أجابت بثبات:

ـ قال إذا لم أقبل فسيقدم الأطفال للجنود.

تأكد الملازم أول رارمان من ذلك بصمت، وعاد ببطء مشيراً إلى الباب آمراً مالك.

ـ اخرج!

قام الآخر بإشارة لأخذ ثيابه، لكن الملازم أول رفض بثبات.

ـ كلا! كلا، لست جديراً كي تعود لترتدي هذه البزّة... اخرج هكذا! كما أنت... تقدم السرجنت ماجور مالك الحيدري الملازم أول وتوقف على عتبة الباب، حيث كان ينتظره جميع رجال المضرب مع زوجة رازمان والسرجنت العملاق أجاموك.

ـ اذهب صوب الكثبان.

أطاع رغم الرمال الحارقة التي أحرقت باطن قدميه، وتقدم ببطء مطأطئ الرأس دون أن ينظر إلى أحدٍ حتى منبت الكثبان.

حينما أدرك بأنه لا يستطيع التقدم أكثر، ومن العبث محاولة تسلق الانحدار المائل، عاد دون أن يفاجأ باكتشاف أن الملازم أول قد أخرج المسدس العسكري الثقيل من الغمد. طلقة واحدة كانت كافية للإطاحة برأسه.

مكث رازمان لحظات متفكراً، متأملاً الجثة، ثم وببطء شديد احتفظ بسلاحه في غمده من جديد، وعاد أدراجه مواجهاً الحاضرين الذين لم يتحركوا من أمكنتهم ولم تنمّ عنهم أية حركة.

حدجهم واحداً واحداً، محاولاً قراءة ما في أعماق عيونهم، وأخيراً بدا وكأنه يريد إخراج شيء من أعماقه، شيء كان يعذبه منذ أمد:

ـ أنتم حثالة جيشنا... ـ قال ـ الرجال الذين أحتقرهم دائماً والجنود الذين لا أريد أبداً قيادتهم... لصوص، قتلة، مدمنون على المخدرات، مغتصبون للنساء... جِيَف...! ـ توقف قليلاً ـ لكن في العمق، ربما لستم أكثر من ضحايا، انعكاس لما آلت البلاد إليه في ظل هذه الحكومة... ـ سمح لهم بالتأمل لحظة لاستيعاب ما قاله. رفع النبرة وتابع ـ: لكن الوقت بدأ يحين للتغيير... الرئيس عبد الكبير استطاع اجتياز الحدود. أطلق النداء الأول للنضال والوحدة الوطنية لمن يرغب بعودة الديمقراطية والحرية... ـ توقف من جديد، هذه المرة أكثر مأساوية واعياً لضرورة أن يكون مسرحياً بطريقة ما ـ: أنا ذاهب للاجتماع به...!ـ اعترف أخيراً ـ ما رأيته اليوم أقنعني تماماً، وأنا مستعد لقطع صلتي بالماضي والبدء في النضال معاً إلى جانب الرجل الوحيد الذي أثق به فعلاً... وسأعطيكم الفرصة الملائمة...! للذين يريدون اللحاق بي يمكنهم مرافقتي لاجتياز الحدود والالتحاق بعبد الكبير.

نظر الرجال إلى بعضهم البعض غير مصدقين، وغير قادرين

على الاعتراف بأن أكثر الأحلام الذي داعب مخيلاتهم، الهروب من جحيم «عدوراس» ومن البلاد، كان يقدم لهم على طبق من ذهب من الضابط نفسه المكلف بالمحافظة عليهم محبوسين.

حاول الكثير من رفاقهم الهروب ودائماً كانوا يمسكون بهم، يقتلونهم أو يسجنونهم بقية حياتهم. وذلك الضابط الشاب ببزته المعتنى بها والذي وصل للتو برفقة الزوجة الجذابة، والسرجنت «الماستودنتِ»(*) بمظهره الدَمِث، يحاول إقناعهم بأن ما كان حتى هذه اللحظة ذاتها يعتبر أسوأ جنحة، يتحول كضربة سحر إلى فعلٍ بطولي.

أحدهم كان على أهبة أن يطلق قهقهة، آخر قام بقفزة فرح، وعندما طلب رازمان برفع الذراع فقط لمن هو على استعداد للحاق به - مدركاً تماماً لما يفعله وللمشاعر الحقيقية لعصبة الأشرار تلك - كان وكأن نابضاً لا يُقاوم يعمل فوق جميع الأيادي، جاعلاً أياديهم ترتفع إلى السماء بإيقاع واحد.

ابتسم الملازم أول ابتسامة خفيفة وتبادل النظرات مع زوجته التي ابتسمت بدورها. ثم التفت إلى أجاموك:

- جهزهم جميعاً - أمر - سنرحل خلال ساعتين... - أشار بسوطه صوب المهجع الذي تابعت من خلال قضبان نافذته عائلة غزال صياح تطور المشهد -: هم يأتون معنا - أضاف - ستتركهم بسلام في الجهة الأخرى من الحدود...

(*) الماستودنتِ: فيل ضخم منقرض. م.

30

كانت سفرة طويلة دون أن يعرف اتجاه العودة إلى بيته ودون أن يعرف أين أصبح الآن بيته؛ بحثاً عن عائلته دون أن يعرف إذا كان مايزال لديه عائلة.

كانت سفرة طويلة.

بداية إلى الغرب، تاركاً على بُعد يوماً من السفر بداية «أرض الخواء»، ثم حين أدرك نهايتها استدار نحو الشمال مدركاً بأنه كان يجتاز الحدود من جديد، وفي أي لحظة يمكن أن يظهر الجنود مرة أخرى، الذين كما يبدو تحولوا إلى كابوسه.

كانت سفرة طويلة.

وحزينة.

لم يتصور، حتى في أسوأ اللحظات حينما أدرك أن الموت هو رفيق دربه الوحيد، في تخوم تيك دابرا، أن الأحداث تستطيع أن تأخذ منحى مماثلاً، فبالنسبة له كمحارب نبيل من شعبٍ محاربوه نبلاء، هذا الموت يشكل الهزيمة الأخيرة.

لكن الآن، اكتشف بغتة، كضربة هراوة، أن الموت لا يعني شيئاً أمام الحقيقة الهائلة التي تحقق منها، وهي أن الكائنات التي أحبها تحولت إلى ضحية لحربه الخاصة، وشكلت في الحقيقة الهزيمة الأكثر فظاعة.

تقاطعت في عقله، مرة عقب أخرى، واستحوذته، وجوه أبنائه، صوت ليلى، أو المشاهد المتكررة واللانهائية لحياته في المضرب، حيث ما من شيء سوى الوحشة والسكينة على حافة الكثبان الكبيرة، ومضت السنون دون أن يجيء أحد كي يكدر صفاء حياةٍ رتيبة وبسيطة.

أصباح باردة كانت ليلى تتكور فيها عند معدته باحثة عن الدفء في جسده، أصباح طويلة بضوء بهي ولوعةِ الترقب بحثاً عن طريدة؛ هاجرة ثقيلة القيظ محتدمة، والوسن الحلو. مساءات بسماء حمراء تتطاول الظلال فيها في العراء وكأنها تبغي لمس أطراف الأفق، وليالٍ عطرة وكثيفة، وتكرار الأساطير المعروفة دون كلل على ضوء الصِلاء.

خوف من «الهارماتان» الذي ينفخ مزمجراً، ومن المحّل؛ حُب العراء بلا ريح، والسَحابة السوداء التي تنفتح كي تغطي الأرض بسجادة خضراء من العشب.

المعزاة التي ماتت، الناقة الفتية التي حملت أخيراً، بكاء الصغير، ضحكة الكبير، تأوهات اللذة لليلى في الظليل...

هذه كانت حياته التي اشتاق إليها، الشيء الوحيد الذي يطمح إليه والذي فقده، لأنه لم يكن يشعر بأنه قادر على أن يتحمّل إهانة ضد شرفه كطارقي.

من كان يستطيع أن يتهمه بألا يواجه جيشاً؟

من لا يتهمه الآن لما فعله وقد فَقَد عائلته في مغامرته؟

كان يجهل حجم بلده، ويجهل حتى عدد الكائنات التي تقطنه، ومع ذلك وقف في مواجهته، مواجهة جنوده وحكامه دون أن يتوقف ليفكر بالعواقب التي يمكن أن يسببها هذا الجهل.

في أي مكان من تلك البلاد الواسعة سيجد زوجته وأبناءه؟ مَنْ من بين جميع سكانها يعرف كيف يعطيه أخباراً عنهم...؟

أدرك يوماً بعد يوم، كلما تقدم نحو الشمال، ضآلته، علماً أن الصحراء ذاتها، مع كل امتداداتها لم تستطع أن تسبب له تعقيداً خلال أكثر من أربعين عاماً من وجوده. يشعر الآن بأنه ضئيل، ليس أمام عظمة الأرض، إنما أمام خسّة قاطنيها، القادرين على زجٍّ نساء وأطفال في عراك بين الرجال.

لم يعرف السلاح الذي عليه أن يواجه به مثل هذا الصنف من الأفراد. ما من أحد شرح له قط قواعد تلك اللعبة. وتذكر مرة أخرى تلك الحكاية القديمة التي كان يسردها دائماً الدهمائي سويلم، حيث عائلتان وصلتا في حربهما إلى حدٍ من الحقد على بعضهما حتى أن طفلاً وُئد مرة خلال الحرب، مما أدى بأمه إلى أن تصاب بلوثة جنون.

لكنها كانت لمرة واحدة في كل تاريخ الصحارى، وسببت الكثير من الذعر بين سكانها، وذكراها دامت عبر السنين متنقلة من فم إلى فم في الحلقات الليلية باعثة على الاشمئزاز عند البالغين وصالحة لتعليم وتربية الصغار.

«أترون كيف أن الحقد والصراع بين العائلات لا يقود إلى شيء سوى الرعب، والجنون والموت».

يستطيع أن يكرر من الذاكرة كل كلمة من كلمات العجوز، وربما الآن، للمرة الأولى بعد سماعها لسنين متوالية، أدرك معناها العميق.

كُثُر هم الرجال الذين ماتوا منذ ذلك الفجر البعيد الذي قرر فيه ركوب المهري، قاذفاً بنفسه إلى الصحراء بحثاً عن شرفه الضائع. ليس من حقه إذاً أن يتفاجأ بأن بعضاً من دم هؤلاء الأموات يلطخه على حين غرّة هو وعائلته.

جنحة مبارك الوحيدة أنه كان يقود دورية مقتفية أثر بعض الرجال الذي لا يعرف عنهم شيئاً. والكابتن المتعرق دائماً دافع عن نفسه زاعماً أنه يقتصر على تنفيذ الأوامر فحسب. الذين لا يستطيع نكرانهم، الأربعة عشر خفيراً في «الغيريفييس» والذين لم يقترفوا

خطأ سوى نومهم في طريقه؛ والجنديان اللذان قتلهما على حافة «أرض الخواء»، ثم الذين طاروا في الهواء دون أن يتسنى له معرفة من أين جاءهم الموت...

كُثُر هم، وهو غزال صياح ليس لديه أكثر من حياة ليقدمها لهم بالمقابل، موتٌ واحد يعوِّض بها أمواتاً كُثُراً.

ربما لذلك كله يطالبون بعائلته كجزء من تسديدٍ لدَين هائل.

إن شاء الله! كان سيصيح عبد الكبير. امتثلت في ذاكرته صورة العجوز مرة أخرى، وتساءل عمّا آل إليه، وإذا كان قد عاد، كما وعد، إلى النضال من أجل السلطة.

«كان مجنوناً... ـ تمتم بصوت جد خفيض ـ مجنوناً حالماً من أولئك الذين يولدون وهم محكومون بتلقي كل اللطمات و«غري ـ غري» النكبات تسير إلى جانبه، معلقة في ثيابه. كبيرة هي قوة الـ «غري ـ غري» وحتى أنا أصابني جزء من مِحَنه».

بالنسبة للبدو «غري ـ غري» هي أرواح الشر التي تستطيع أن تنقل المرض، النكبات أو الموت، ومع أن الطوارق يسخرون عَلَناً من خرافات كهذه تخص الخدم والعبيد، لكن ما هو مؤكد أنه حتى أكثر «الإنموشار» نبلاً يجهد في تجنب بعض المناطق المشهورة بأرواحها الشريرة، أو بعض الأشخاص المحددين الذين يعرفون بشكل مؤكد أنهم يُحضرون بطريقة خاصة جداً الـ «غري ـ غري».

إذا ما أحب الـ «غري ـ غري» أحداً فإن عواقبه ستكون حزينة وتراجيدية! وستكون عديمة الفائدة في حالة كهذه محاولة الهرب إلى أطراف الكون، أو غمر نفسه في أكثر الكثبان عمقاً، أو اجتياز جحيم تيك دابرا مشياً على الأقدام.

أرواح الـ «غري ـ غري» تتشبث بالجلد مثل القراد، مثل الرائحة أو صبغة القماش، والطارقي لديه الانطباع الآن بأن «غري ـ غري» الموت قد تملكته؛ الأكثر وفاء وإصراراً من بينها جميعاً. ذاك الذي يتحرر منها هو المحارب فقط الذي يواجه محارباً آخر تكون روح الموت عنده أكثر مقدرة.

«لماذا اخترتني؟ ـ كان يسألها أحياناً، في الليالي على ضوء الصِلاء حينما يعتقد بأنه يراها جالسة في الطرف الآخر من اللهب ـ أنا لم أنادِك قط. الجنود هم الذين جاؤوا بك إلى بيتي عندما أطلق الكابتن الرصاص على الفتى النائم...».

منذ ذلك اليوم ذاته، منذ اللحظة التي نجم عنها قتل الضيف تحت سقفه، صار منطقياً قبول «غري ـ غري» الموت أن تستحوذ على صاحب الخيمة، بالطريقة نفسها التي استقرت به «غري ـ غري» الزنا إلى الأبد في الزوجة التي خانت زوجها خلال الشهر الذي سبق العرس.

«لكن لم يكن ذلك ذنبي ـ احتج محاولاً إبعادها من أمامه ـ أردت الدفاع عنه، وكان يمكن أن أقدم حياتي دفاعاً عن حياته».

لكن كما يقول سويلم أرواح الـ «غري ـ غري» صمّ تجاه الكلمات، التوسلات، وحتى تهديدات البشر، فلها معاييرها الخاصة بها وإذا ما أحبت أحداً فإنها تحبه حتى نهاية الأزمنة.

«في إحدى المرات كان هنالك رجل ـ روى ـ تملكه حب «غري ـ غري» الجراد غير المألوف. كان يقطن في العربية السعودية، دائماً وسنة بعد سنة تجيء الجائحة الملعونة لتخريب حقوله وحقول أبناء بلده.

«أخذه جيرانه، يائسين من هذه الحالة، إلى الخليفة متوسلين له بأن يعدمه وإلا ماتوا جميعاً من الجوع، لكن الخليفة أدرك أن الرجل المسكين ليس له أي ذنب في تلك الكارثة. فدافع عنه قائلاً: «إذا قتلته فإن «غري ـ غري» الجراد التي تحبه حتى بعد الموت ستحضر كل عام لزيارة قبره. لذلك آمرُ الآن في حياته وكذلك روحه عندما يموت، أن يرحلا كل سبع سنين إلى الساحل الغربي في أفريقيا ويمكثا هناك الفترة الزمنية ذاتها؛ بهذا الشكل، وبما أن الجراد أيضاً من خلق الله ونحن لا نستطيع معاكسة الله حتى لا نثير غضبه، فعلى الأقل نوزع العبء بالتساوي ونستمتع كبديل سبع سنين في الرخاء وسبعاً في البؤس».

«هذا ما قام به الرجل في حياته، وتابعت روحه القيام به بعد موته، ومن أجل ذلك تزورنا الجائحة دائماً خلال هذه الفترة الزمنية وتعود بعد ذلك مقتفية أثر روحه إلى بلاده الأصلية».

سواء أكانت صحيحة تلك الأسطورة أم لا فإن الجراد سلك هذا المنوال، لكن الصحيح أيضاً أن الطوارق أكثر دهاء من فلاحي السعودية. لقد حلّوا مشكلة الجوع بطريقة أكثر عملية بكثير من محاولة إعدام بريء، لذا اختاروا التهام هذه الحشرات بالطريقة ذاتها التي تلتهم فيها محاصيلهم. تحميصها على الجمر أو تحويلها إلى طحين جاعلين منها إحدى أطعمتهم المفضلة. ومجيئها بالملايين حاجبة الشمس في منتصف النهار، لا يشكل عندهم صورة للبؤس، إنما على العكس، الازدهار والرخاء خلال أشهر طويلة. ستعود بعد ثلاث سنين وليلى ستحولها إلى طحين ممزوج بالعسل والتمر مما يبهج الأطفال.

كان يبتهج لتلك الفطائر ويحنُّ إلى ساعات الغروب وهو يقضمها بينما يتأمل الشمس التي تتوارى، راشفاً شايه المغلي على باب خيمته. بعد ذلك بينما النساء يحلبن النوق أو الفتيان يجمعون المعز، يتمشى ببطء حتى حافة البئر كي يتأكد من ارتفاع الماء، رافضاً القبول بأن ذلك كله قد انتهى ولن يعود أبداً إلى جانب بئره ونخيله أو إلى جانب عائلته وقطيعه، لمجرد أن الروح الشريرة اللامرئية أحبت رفقته.

«ابتعدي! ـ توسل إليها مرة أخرى ـ أنا منهك لحملك معي وأقتل دون معرفةٍ لماذا أفعل ذلك».

لكنه يعلم أنه حتى إذا الـ «غري ـ غري» أرادت الرحيل، فإن الأرواح المعذبة لمبارك والكابتن والجنود لن تسمح لها أبداً بالرحيل.

31

يترك أنور الموجكري في نهاية كل أسبوع مكتبه المريح والبارد في قصر الحكومة، راكباً سيارة «السيمكا» العتيقة والتي يتركها محملة بالماء والزاد في زقاق قريب، وتبتعد صاخبة صوب خاصرة الجبل الذي يهيمن على «العقب»، الذي ترتفع في قمته أنقاض حصن منيع صلح في زمن الحروب والغارات كملجأ لسكان الواحات.

لم يبق شيء يمكن سبره بين جدران «القصبة» التي لم تعد تُعرف، كثير من حجارتها قد استُخدم من قبل الفرنسيين لإقامة أبنية شعبية في «العقب». لكن أنور الموجكري كان قد اكتشف في الكهوف والجدران الصخرية من الثغور الضيقة التي تنفتح خلف الأنقاض وجود، إذا ما بُحث عنها بدقة وأزيل الغبار الألفي، عدد لا نهائي من الرسوم الكهفية التي تحكي عن الماضي السحيق للصحارى وقاطنيها.

فيلة، زرافات، غزلان ونمور؛ مشاهد صيد وحب، ومشاهد من الحياة اليومية لأقدم سكان تلك الأراضي، كانت تظهر تحت أصابعه الخبيرة التي ينظف بها الحجارة بدقة لا متناهية مُقاداً، مراراً، بنوع من غريزة عالم الآثار الفطري فحسب، الغريزة التي جعلته يبحث عن الشكل المحتمل هناك حيث منطقياً، هو الذي قام بحفره.

ذاك كان سره الكبير، وذاك كان فخره، وفي مسكنه الصغير

الذي يعيش فيه وحيداً، تراكمت مئات الصور الجميلة الملونة التي حصل عليها على مدى أكثر من عامين من العمل الدقيق. صور ستزين في يوم ما مجلداً ضخماً حيث أنور الموجكري سيفاجئ العالم باكتشافه، بعنوان «رسومات كهفية من العقب».

وهناك في مكان ما، لا يعرف بعد أين، لكنه يحدس أنه موجود قربه، سيصطدم في النهاية بما جاء للبحث عنه دائماً؛ نسخة عن «مِرّيخي تاسيلي»، تلك الأشكال الهائلة بارتفاع أكثر من مترين والذين تمثلوا بأمانة وضع ولباس رواد الفضاء الذين زاروا في ليل الأزمنة، المناطقَ التي هي الآن صحراوية، لكن في ذلك الحين، لابدَّ أنها كانت خصبة وغنية بكل أنواع الحيوانات الغريبة.

اكتشاف أن هناك، بعيداً عن «تاسيلي»، كان يوجد سكان من كوكب آخر، سيشكل دون أي نوع من الشك، قمة كل الطموحات لسكرتير المحافظ في الإقليم هذا الذي ضحى بطيبة خاطر بالمسار السياسي الواعد، مقابل واحدة من تلك الرسوم مهما كانت بدائية. وفي قيظ الهاجرة الثقيل حيث تسقط أشعة الشمس عمودياً على قبعة القش الغريبة، والجدار الأملس لصخرة حيّة في عمق ثغر ضئيل محمي من الرياح والأمطار، راح يعلل نفسه بآمال راسخة باكتشاف جديد، وربما واعد. عصبية غريبة كتحذير مسبق تملكت كل جسده. وشعر أن يديه ترتجفان عندما راح يكتشف مقطعاً من قطعة عميقة تبشر بشكلٍ طويلٍ ذي أطراف مبهمة.

جفف العرق الذي سال من جبهته مبللاً نظارته، رسم بحوارة بيضاء الخط الذي أصبح مرئياً بشكل واضح، تناول جرعة ماء صغيرة ووثب جزعاً عندما سأل صوت ليس غريباً عليه، عميق ومتوعد خلف ظهره:

- أين هي عائلتي...؟

قام بنصف دورة وكأنه دُفع بنابض، وكان عليه أن يستند إلى الحائط كي لا يقع من الانفعال عندما تبين على بعد أقل من ثلاثة

أمتار، الفوهة السوداء للسلاح والطيف المنتصب للطارقي الذي تحول إلى كابوس.

ـ أنت...؟ ـ كان كل ما عرف قوله.

ـ نعم، أنا... ـ كان الجواب الجاف ـ أين هي عائلتي؟

ـ عائلتك؟ ـ تفاجأ ـ ما علاقتي أنا بعائلتك؟ ما الذي حدث؟

ـ أخذها الجنود.

شعر أنور الموجكري أنَّ فخذيه يخونانه، اتخذ مكاناً له فوق صخرة ونزع القبعة ماسحاً عرق وجهه براحة يده:

ـ الجنود؟ ـ كرر غير مصدق ـ ليس ممكناً...! كلا، ليس ممكناً... كنتُ أُحطت علماً... ـ نظف نظارته بمنديل أخرجه مرتجفاً من الجيب الخلفي لسرواله ونظر إلى غزال مواجهة بعينيه الحسيرتين ـ اسمع...! ـ أضاف، ونبرة صوته تنم عن صدق مطلق ـ الوزير أشار إلى إمكانية القبض على عائلتك ومقايضتها بعبد الكبير، لكن الجنرال اعترض، ولم يعودا للحديث حول المسألة... أقسم لك!

ـ أي وزير؟ أين يعيش؟

ـ وزير الداخلية... ماداني. علي ماداني. يعيش في العاصمة... لكنني أشك بأن تكون لديه عائلتك.

ـ إذا لم تكن في حوزته ستكون في حوزة الجنود.

ـ كلا... ـ رفض الفكرة بيده مقتنعاً بشكل مطلق ـ ليس الجنود، بالطبع... الجنرال صديقي، نأكل معاً مرتين في الأسبوع... ليس رجلاً يقوم بعمل كهذا، وإذا ما قام به فسيأخذ رأيي...

ـ لكن عائلتي ليست موجودة. خادمي رأى كيف أخذهم الجنود، وخمسة منهم مازالوا ينتظرونني في «الغويلتا» في جبال «الهوايلا».

ـ ليسوا جنوداً... ـ كرر أنور الموجكري مرة أخرى بإلحاح ـ

إنهم شرطة. شرطة من الوزارة... ـ هزّ رأسه وأضاف باحتقار ـ أعتقد أنهم لا يتوانون عن فعل ذلك. إنهم أولاد قحبة ـ عدّل من جديد نظارته. الآن هي نظيفة تماماً، ونظر إلى غزال باهتمام من جديد ـ هل حقيقة اجتزت «أرض الخواء» في تيك دابرا؟ ـ أراد أن يعرف.

أطلق، أمام الجواب الأخرس، زفرة قصيرة والتي ربما أراد أن يعبّر بها عن عدم تصديقه أو إعجابه.

ـ رائع ـ صاح ـ حقيقة هذا رائع... هل تعلم أن عبد الكبير في باريس؟ يسانده الفرنسيون، ومن المحتمل جداً أنك أنت الطارقي الأمي ستبدل اتجاه تاريخ بلادنا...

ـ لا يهمني تبديل شيء... ـ أجاب ماداً يده متناولاً القربة التي شرب منها حاسراً اللثام قليلاً ـ الشيء الوحيد الذي أريده هو أن يعيدوا لي عائلتي ويتركونني بسلام.

ـ هذا ما نبتغيه جميعاً: العيش بسلام، أنت مع عائلتك وأنا مع صوري. لكني أرتاب بأنهم سيسمحون لنا بذلك.

أشار غزال بحركة من رأسه إلى الرسوم المشار إليها بالطباشير والتي تظهر على الجدران المجاورة.

ـ ما هذا؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ تاريخ أجدادك. أو تاريخ الناس الذين سكنوا هذه الأرض قبل أن يتملك الطوارق الصحراء.

ـ لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تهدر وقتك في هذا. بدلاً من أن تكون في هدأة ظلال «العقب»؟

هزّ سكرتير المحافظ في الإقليم كتفيه.

ـ ربما لأنني أشعر بالخيبة من السياسة ـ أشار ـ تتذكر حسّان بن كوفرا؟ عزلوه، ذهب إلى سويسرا حيث جمع ثروة صغيرة، وبعد يومين صدمته شاحنة مرطبات. يا للسخرية...! منذ بضعة شهور

كان «والي الصحراء»، والآن يبكي بقوائم مكسورة في مشفى مغطى بالثلج.

ـ زوجته معه؟

ـ نعم.

ـ في هذه الحالة لا شيء آخر يكتسب أهمية... ـ أشار الطارقي ـ يحبان بعضهما. أنا تجسست عليهما لبضعة أيام وأعرف ذلك.

وافق أنور الموجكري مقتنعاً.

ـ كان ابن قحبة حقيقية، يتعاطى السياسة بلا ضمير وهو لص، خائن وماكر... لكن لديه شيئاً حسناً: حبه لتامات زوجته... لا شيء سوى ذلك يستحق عليه الحياة.

ابتسم غزال صياح ابتسامة خفيفة، مع أن الآخر لا يستطيع ملاحظته، طاف بنظره على رسوم الجدران وانتصب آخذاً سلاحه:

ـ ربما بسبب حبك لتاريخ أجدادنا أغفر لك الآن الحياة ـ علّق ـ لكن احرص على ألا تتحرك من هنا، ولا تحاول أن تشي بي. إذا رأيتك في «العقب» قبل الاثنين سأطير رأسك.

استعاد الآخر طباشيره، فراشيه وخرقه، واستعد لمتابعة العمل.

ـ لا تقلق! ـ أجاب ـ لم أفكر بفعل ذلك. ثم حين ابتعد الطارقي، صرخ به:

ـ وأنا واثق من أنك ستجد عائلتك!

32

كانت عربة نقل متزعزعة. الأكثر قذارة، وقَزْلاً ووساخة من كل عربات النقل الشعبية التي حاولت السير فوق طريق ما قط، مع أنها لم تكن تحاول السير بطريقة ما، إنما اقتصرت على التقدم وكأنها مصابة بالربو بسرعة قصوى لا تتعدى الخمسين كيلومتراً في الساعة عبر عراء من الأشواك وبين خاصرة الجبال الممتلئة بالصخور وحجارة لا نهاية لها.

كل ساعتين تقريباً يرى نفسه مجبراً على التوقف بسبب انفجار ما أو أن العجلات تعثرت في فخ من الرمل، ثم يُجبِر السائق والجابي المسافرين والمعز والكلاب وسلال الدجاج على الهبوط، حاثاً إياهم على دفع العربة أو مشيراً لهم بأن يجلسوا على حافة الطريق منتظرين بينما يبدلان العجلة.

بعد كل أربع ساعات أيضاً يحتاج إلى تعبئة خزان الوقود بالأسلوب البدائي، وذلك في وصل أنبوب إلى «غالون» مربوط بثبات على السطح. وفي المنحدرات عندما يواجهون منحدراً شديداً كان الرجال مجبرين على قطع المسافة مشياً على الأقدام.

هكذا ظلّوا خلال يومين وليلتين، ملتصقين ببعضهم كتمر في كيس من جلد الأرنب، متعرقين ومختنقين من احتدام القيظ الذي لا يقاوم، غير قادرين على تكهن ما تبقى لهم لبلوغ نهاية مثل هذه العقوبة، أو أن يصلوا مرة لرؤية تخوم الصحراء الرتيبة.

في كل موقف يراود غزال دافع ترك العربة الوسخة ومتابعة طريقه على قدميه، مهما يكن الطريق طويلاً، لكنه يدرك في كل موقف بأنه سيتأخر شهوراً للوصول بطرقه الخاصة إلى العاصمة. وكل يوم، كل ساعة يهدرها يمكن أن تكون نتيجتها جوهرية بالنسبة لليلى وأبنائه.

لذا تابع بعذاب لا يمكن وصفه في هذا الحبس، هو الذي أحب العزلة والحرية قبل كل شيء، متحملاً تجاراً ثرثارين، نسوة هستيريات، صغاراً صاخبين، ودجاجاً نتناً، غير قادر كما استطاع أن يفعل في «أرض الخواء» بأن يتحول إلى حجر، ويعزل نفسه عمّا يحيطه، جاعلاً روحه تفارق جسده مؤقتاً.

كل حفرة هنا، كل هزة، كل انفجار أو جُشأة من جاره تعيده إلى الواقع، ولم يستطع في أكثر الليالي حلكة أن يأخذ قسطاً يسيراً من النوم مما يسمح له بإعادة قواه إليه، أو أن يعود، متخيلاً، إلى جانب ذويه.

أخيراً في فجر اليوم الثالث الكَدِر، عندما ريح عنيدة ودبقة قذفت على الوجه سَحاباً من الغبار الرمادي والخانق، حاجبة أطراف الأشياء على مسافة أكثر من خمسين متراً، اجتازوا مجموعة من أكواخ الطين ووَهْدَة جافة وساحة صغيرة كريهة الرائحة، ثم ذهبوا ليتوقفوا في المركز الذي كان إذ ذاك السوق القديم المهجور.

ـ نهاية الطريق! ـ صرخ الجابي وهو يترجل ساحباً أذرعاً وسيقاناً مراقباً جميع من حوله، وكأنه يبذل جهداً في قبول أنه مرة أخرى تُوّجت بالنجاح تلك «الأوديسة» الرعناء، وهي النزول حتى «العقب» والعودة أحياء ـ الحمد لله!

ترجل غزال في المكان الأخير، متأملاً الجدران المهدمة للسوق، والمهددة بالانهيار فوق رأسه إذا ما اشتدت الريح. واقترب من السائق مرتبكاً.

ـ أهذه هي العاصمة...؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ أوه، كلا! ـ كان الجواب المسلّي ـ لكن إلى هنا نصل نحن. إذا حاولنا وضع سقط المتاع هذه على الطريق العام يسجنوننا كمجانين.

ـ وماذا عليّ أن أفعل كي أصل إلى العاصمة؟

ـ يمكنك أن تستقل عربة نقل أخرى، لكنني أنصحك بالقطار فهو أسرع.

ـ ماذا يعني قطار؟

لم يبدُ على الآخر أن السؤال قد فاجأه، إذ أنه لم يكن بالطبع البدوي الأول الذي نقله في ما يقارب العشرين عاماً من الارتجاجات عبر الصحراء.

ـ من الأفضل أن تذهب أنت بنفسك لتراه... ـ كان الجواب ـ اتبع هذا الشارع وبعد ثلاث قصبات، عندما ترى بناءً بنياً، هناك يكون...

ـ بعد ثلاث ماذا...؟

ـ ثلاث قصبات، ثالث تقاطع في الشارع... ـ قام بحركة واسعة بيديه ـ حسناً، أعتقد أنه حيث تعيش لا يوجد شيء من هذا... تابع إلى الأمام إلى أن ترى البناء. لا يوجد آخر.

قام غزال بحركة تنم عن الموافقة، تناول بندقيته، سيفه وكيساً من الجلد يحتفظ فيه بالذخيرة وبعض الطعام وكل ما يملك، وشرع بالمسير في الاتجاه الذي أشار إليه، لكن الجابي صرخ من سطح الباص.

ـ هه...! لا تستطيع أن تتنزه هنا بهذه الأسلحة...! ستتعرض للمشاكل إذا ما رأوك... ألديك رخصة؟

ـ ماذا؟

ـ رخصة بالسلاح... ـ نفى بإشارة من يده ـ كلا! أرى أنه ليس لديك... خبئ هذا أو أنك ستنتهي إلى السجن!

مكث غزال ساكناً في مركز السوق، مرتبكاً ولا يعرف أي سلوك عليه أن يتخذ، إلى أن رأى أحد المسافرين كان يبتعد في الاتجاه المعاكس، مع حقيبة على كتفه وأخرى في يده، وسجادة مطوية تحت ذراعه، مما أوحى له بفكرة. ركض باتجاهه.

- أشتري منك السجادة - قال، عارضاً عليه قطعة نقدية من الذهب.

لم يجب الآخر حتى. تناول قطعة الذهب، رفع ذراعه تاركاً حمولته كي يستلمها، وتابع طريقه حاثاً الخطى، وجلاً من أن يبدل ذاك الطارقي الأحمق فكرته.

لكن غزال لم يبدل فكرته. فتح السجادة، لفَّ أسلحته، ووضعها تحت ذراعه بدوره، وتوجه إلى المحطة.

حرك الجابي رأسه بتكرار من جهة إلى أخرى من أعلى الباص متسلياً.

لم يكن القطار مريحاً كان أكثر قذارة وصخباً من عربة النقل ذاتها حتى، رغم مزيّة عدم انفجار الإطارات، إلا أن عيبه هو ملء المسافرين بالدخان وهباب الفحم، وتوقفه المنتظم في كل المدن والقرى والدساكر الصغيرة والأكواخ الصغيرة المنتشرة على أطراف الطريق، مما يبعث على اليأس.

كابد غزال، عندما رآه يظهر في المحطة ساطعاً مزمجراً، قاذفاً دفقات من البخار كوحش ملائم أكثر لحكايات الدهمائي سويلم من الواقع، إحساس من الذعر لا يمكن الهيمنة عليه، وكان عليه الاستعانة بكل بسالته كمحارب وبكل رباطة جأشه كإنموشار من «شعب اللثام» المجيد كي يترك نفسه ينجرف مع موجة المسافرين، ويتسلق متدافعاً إلى واحدة من تلك العربات المتخلفة بمقاعد من الخشب القاسي ونوافذ بلا زجاج.

حاول أن يسلك مسلك الآخرين كما رآهم يفعلون، ترك سجادته وكيسه الجلدي حيث توضع الأمتعة، وجلس في أقصى زاوية محاولاً أن يتبنى فكرة أنَّ ذلك ليس في الحقيقة سوى نوع آخر من أنواع عربات النقل الكبيرة، التي تسير على قضبان من الحديد متجنبة الطرق المغبّرة.

لكن عندما سمع الصفير وبدأت القاطرة بالتحرك مع رجّة مباغتة، بين الزمجرة واصطدام الحديد وصراخ السائق، اختلج قلبه من جديد، وكان عليه أن يتشبث بقوة بالمقعد كي لا يقذف بنفسه فوق الرصيف.

وفي المنحدرات، بسرعة مئة كيلو متر في الساعة، مع الهواء والدخان الذي ينفذ بحرية من النافذة، ناظراً إلى أعمدة الكهرباء، الأشجار والبيوت وهي تعبر من جانبه مدوخة لسرعتها، اعتقد غزال بأنه سيموت من الانفعال، وعضَّ بقوة على طرف اللثام كي لا يبدأ بالصراخ طالباً توقيف الآلة الجهنمية.

عند الأصيل ظهرت الجبال أمام عينيه، واعتقد أنه يحلم حيث لم يتخيل أبداً أنه يمكن أن توجد مثل هذه الأحجام التي ارتفعت كعائق لا يمكن خرقه. منحدرات شاهقة بقمم مفروشة بالأبيض.

التفت إلى امرأة سمينة تجلس خلفه أمضت القسم الأكبر من وقتها في إرضاع طفلين توأمين، وسأل:

ـ ما هو ذاك؟

ـ ثلج ـ أجابت آخذة هواء التفوق والتجربة العميقة ـ دثِّر نفسك لأنه قريباً سيبدأ البرد.

وكان فعلاً برداً لم يعرفه الطارقي قط، لأن الهواء الجليدي يجرف معه أحياناً ندف ثلج مجهرية تهبط شيئاً فشيئاً إلى المقصورة، مجبرة المسافرين الصبورين على لفِّ أنفسهم بكل ما تقع عليه أيديهم وهم يرتعشون.

توقفوا وقد حلَّ الظلام تقريباً في محطة صغيرة في الجبال، وأعلن المفتش عن استراحة لعشر دقائق كي يشتروا عشاءهم. لم يستطع غزال أن يتجنب الإغراء، فقفز إلى الأرض وركض إلى ما بعد الرصيف كي يمسك بالثلج الأبيض بيديه.

أدهشه تماسكها، وأدهشه اللمس أكثر من البرد، تلك الطراوة التي لا توصف وهسهستها الخفيفة، كيف تنزلق من بين أصابعه، ليس كالرمل، ليس كالماء وليس كالحصى، مختلفة عن كل ما لمسه حتى هذه اللحظة هذا الذي أثَّر به محيِّراً إياه. وكانت المفاجأة إلى درجة أنه لم يلاحظ أن قدميه العاريتين تقريباً داخل صندل خفيف جداً، كانتا تتجمدان.

عاد على مهلٍ، مفكراً ومذعوراً تقريباً يسبب اكتشافه، اشترى من بائعةٍ لحافاً ثقيلاً وسميكاً ومن أخرى صحناً كبيراً من «الكُسْكُسْ» الساخن وعاد إلى مقعده ليأكل بصمت، متأملاً الليل الذي خيّم على المشهد الثلجي الذي توارى وقد ابتلعته الظلال والجدران الخشبية للمقصورة الممتلئة بالرسوم الرديئة، حيث المسافرون الملولون قتلوا ساعات السفر الطويلة بالحفر عليها بسكينٍ كل أنواع النقوش. هناك في المحطة، واقفاً على الثلج، غزال صياح اكتشف فجأة أن ما تكهنت به العجوز كلثوم كان يأخذ طريقه إلى التنفيذ. الصحراء، الصحراء الحبيبة التي ولد فيها، بقيت في الخلف على حافة تلك الجبال الشاهقة، مغطاة الآن بالمروج الخضراء والأشجار الضخمة، بينما هو يتجه فاقد البصيرة وجاهلاً صوب أراضٍ بعيدة مجهولة وعدائية، حيث يبغي مواجهة أسياد العالم بالمساعدة الوحيدة لسيف عتيق وبندقية بائسة.

أيقظه صرير الكوابح، رجّة مباغتة، وأصوات من العالم الآخر، أصوات ناعسة، منكفئة بالصدى وكأنها قادمة من كهف فارغ فسيح.

أطل بوجهه من النافذة وأذهله ارتفاع قبة من الحديد والزجاج، والتي بدت أكبر وهي مضاءة بأضواء شاحبة وإعلانات مغبّرة ومنيرة.

ترجّل المسافرون الذين مكثوا أوفياء للرحلة الطويلة بحقائبهم الكرتونية الباهتة، وابتعدوا بخطوات منهكة لاعنين الأوقات العبثية لذلك القطار العجوز الذي يصل دائماً متأخراً أكثر من ست ساعات.

هو آخر من ترجّل، محملاً بسجادته وكيسه الجلدي واللحاف الثقيل، واتجهت خطاه خلف الذين يتوارون وراء الباب الكبير من الزجاج القاتم، مذهولاً من ضخامة المحطة المرتفعة التي يطير فيها أسراب من الخفافيش، والتي لا يُسمع فيها سوى لهيث القاطرة وكأنها تتنفس بعمق لتستعيد نَفَسها بعد هذا الجهد الشاق.

اجتاز بعدها صالة الانتظار الواسعة من المرمر الوسخ ومقاعد طويلة تنام عليها عائلات بكاملها متشبثة بحقائبها المحزنة. وعَبَر أخيراً باب الخروج، متوقفاً في أعلى الدرج الواسع ليتأمل الساحة الفسيحة والأبنية الكثيفة المحيطة بها.

أثار اشمئزازه الجدار، النوافذ، الأبواب والشرفات التي تغلق المكان بشكل محكم تقريباً، وهزّ رأسه غير مصدق أمام تنوع الروائح النتنة المجهولة بشكل مطلق بالنسبة إليه، والتي هاجمته كمتسولين هدّهم الجوع انتظروا بلوعة وصوله.

لم تكن رائحة عرق بشري، روثٌ أو حيوان ميت ومتعفن. كذلك لم تكن رائحة ماء نتن في آبار قديمة أو رائحة ذكر الماعز في زمن التناسل. كانت أقل وطأة، أقل شهرة، لكنها بذات الفظاظة وعميقة بالنسبة لحاسّة شمّ رجلٍ من الفضاءات المفتوحة؛ رائحة أناس محتشدين، ألوف من الأطعمة المختلفة مطهية الواحدة إلى جانب الأخرى. حاويات القمامة وقد بعثرتها على الأرصفة كلاب الشوارع الجائعة، وبالوعات تركت نتنها يهرب من خلال المجارير لكأن المدينة كلها ـ وهي كذلك فعلاً ـ تجثم فوق بحر عميق من الغائط.

الهواء كان كثيفاً. ساكناً وكثيفاً في الليل الساخن. رطباً، مالحاً، ساكناً وكثيفاً. هواء بطعم الكبريت والرصاص، البنزين المحروق بشكل سيء؛ الزيت المقلي ألف مرة.

مكث ساكناً، متردداً بين التوغل في المدينة النائمة، أو العودة للبحث عن ملاذ في تلك المقاعد الطويلة منتظراً ضوء النهار. لكن رجلاً ببزة رسمية مهترئة وقبعة حمراء عبر من جانبه مغادراً المحطة، وعندما أصبح في الدرجة الأخيرة التفت لينظر إليه.

ـ هل حدث لك شيء؟ ـ أراد أن يعرف، وأمام السلبية الصماء قام بحركة تنم عن التفهم ـ أفهم... ـ أشار ـ المرة الأولى التي تأتي فيها إلى المدينة... هل لديك مكان تنام فيه؟

ـ كلا.

ـ أعرف مكاناً قريباً من البيت... ربما يقبلونك... ـ لاحظ أنه لم يقرر بأن يتحرك، فقام بحركة واسعة من ذراعه حاثاً إياه كي يتبعه ـ هيّا ـ أشار ـ لا تخف... لست لوطياً ولا أفكر بسرقتك.

راق له وجه الرجل، بدا تعباً، موسوماً بغضون شظف العيش، أصفر تقريباً بسبب ساعات العمل الليلية، وبعينين فيهما مسحة حمراء، وشارب سَبْط ووسخ بالنيكوتين.

ـ تعال... ـ ألحَّ ـ أعرف مشاعر الوحدة في مدينة كهذه. أنا جئت من القبيلة منذ ما يقارب الخمسة عشر عاماً بمتاع أقل مما لديك وقطعة جبن تحت الذراع... ـ ضحك ساخراً من نفسه ـ والآن كما تراني... أملك حتى بزة رسمية، وقبعة وصافرة...

وصل غزال إلى محاذاته وعَبَر الساحة باتجاه الجادة العريضة التي انفتحت أمامهما من الجهة الأخرى، والتي تجتازها بين الحين والآخر عربة وحيدة.

في المركز تماماً تقريباً التفت الرجل ونظر إليه بانتباه.

ـ أنت طارقي حقاً؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ نعم.

ـ وصحيح أنك لاتظهر وجهك إلا إلى عائلتك والحميمين لديك؟

ـ نعم.

ـ إذاً ستتعرض هنا للمشاكل... ـ أدلى برأيه ـ الشرطة لا تقبل بأن تتجول بوجه مغطى... يعجبهم أن نكون تحت مراقبتهم... الجميع مع بطاقة هويتنا، صورتنا وبصماتنا ـ توقف قليلاً ـ أعتقد أنه لم يكن بحوزتك بطاقة هوية قط... أو نعم؟

ـ ماذا يعني بطاقة هوية؟

ـ أترى...؟ كانا قد تابعا المسير، والرجل يمشي بلا عجلٍ وكأنه لا يبالي كثيراً للوصول إلى هدفه، وقد أعجبه التنزه الليلي والمحادثة.

ـ محظوظ أنت... ـ تابع ـ محظوظ إذا استطعت العيش من دونها كل هذا الوقت. لكن قلْ لي، أي شيطان أضاعك في المدينة؟

ـ هل تعرف الوزير؟ ـ سأل بغتة.

ـ وزير؟ أي وزير؟

ـ علي ماداني.

ـ لا! ـ كان الجواب السريع ـ لحسن حظي لا أعرف علي ماداني... وآمل ألا أحتاج إلى معرفته أبداً.

ـ تعرف أين يمكن أن أجده...؟

ـ في الوزارة أفترض.

ـ وأين هي الوزارة؟

ـ نزولاً بهذا الشارع دائماً بشكل مستقيم، عندما تصل إلى المتنزه البحري، على اليمين، البناء الرمادي بمظلات بيضاء ـ ابتسم متسلياً ـ لكني أنصحك بألا تقترب من هناك. يقولون أنهم في الليل يسمعون صراخ المساجين الذين يعذبونهم في القبو. وثمة من يؤكد

أن تلك هي تأوهات أرواح كل من يقتلونهم هناك في الأسفل. عند الفجر يخرجون الجثث من الباب الخلفي في شاحنات التوزيع.

ـ لماذا يقتلونهم؟

ـ سياسة... ـ أجاب بحركة تنمّ عن السأم ـ في هذه المدينة الملعونة كل شيء سياسة، لا سيما منذ أن أصبح عبد الكبير طليقاً. سيثير المشاكل...! ـ صاح، ثم أشار بيده إلى زقاق جانبي حيث اتجه صوبه مجتازاً الطريق الرئيسي ـ تعال! ـ أشار ـ من هنا.

لكن غزال رفض بإيماءة من رأسه وأشار إلى القسم السفلي من الشارع:

ـ كلا... ـ قال ـ سأذهب إلى الوزارة.

ـ إلى الوزارة؟ ـ اندهش الآخر ـ في هذه الساعة؟ لماذا؟

ـ عليّ أن أرى الوزير.

ـ لكنه لا يسكن هنا. فقط يعمل في النهار.

ـ سأنتظره.

ـ من دون أن تنام؟

أراد عامل الخطوط الحديدية أن يقول شيئاً، لكنه بغتة لاحظ غزال بإمعان وهو يرتب لفة السجاد الطويلة، شاداً إياها إلى جسده، وشعر بالحزم في عينيه الداكنتين من وراء الفتحة التي بين العمامة واللثام، وأحسّ فجأة بالانزعاج من دون أن يعلم تماماً إلامَ يعزوه.

ـ الوقت أصبح متأخراً ـ قال فجأة وقد سيطر عليه جَزَع مباغت ـ الوقت أصبح متأخراً جداً وعليّ أن أعمل غداً.

اجتاز العامل الشارع مسرعاً، مجازفاً حتى بأن تصدمه شاحنة النفايات الثقيلة، وتوارى في ظلال الشارع بعد أن التفت مرات عديدة كي يتأكد من أن الطارقي لا يتبعه.

لم يرتبك غزال، انتظر إلى أن اختفت الشاحنة ونتانتها عن النظر، وتابع وحيداً في الشارع العريض بأضوائه الشحيحة، بقامته

الطويلة وهو يرفل بثياب مشرعة للريح. بدا عبثياً، شبيه مفارقة تاريخية أمام مشهد تلك الأبنية الثقيلة والنوافذ الحالكة والأبواب المغلقة كأنه مالكٌ مطلق للمدينة النائمة. ثمة كلب شارد فحسب، يبدو أنه يزمع منازعته. عبرت فيما بعد سيارة صفراء ثم همست له امرأة عبر مفصلة البوابة.

اقترب باحترام فأربكته فتحة عنقها وشق تنورتها الذي أبان الفخذين، لكن هي التي ارتبكت أكثر عندما سمح لها ضوء المصباح برؤيته بوضوح مطلق.

ـ ماذا تريدين؟ سأل بشيء من الوجل.

ـ لا. لاشيء... ـ اعتذرت المومس ـ اعتقدت أنك أحد الأصدقاء. ليلة سعيدة!

ـ ليلة سعيدة!

تابع طريقه، وبعد شارعين إلى الأسفل أثار انتباهه هديرٌ أصم، كان يشتد كلما تقدم. كان ضجيج رتيب ومستمر لم يتوصل لمعرفة كنهه، لكنه تَذَكر رتابة ضربات حجر هائل ضد سطح أرض ملساء.

اجتاز درباً واسعة للتنزه والذي يبدو أن المدينة تنتهي عنده، وعندما عَبَر صف المصابيح العالية التي ارتفعت على حافة الرمال ذاتها، استطاع أن يتبينّ على ضوئها الشاطئ العريض، وفي عمقه تتحطم بحنق أمواج هائلة، وتنشر على الليل ذؤابات من الزبد الأبيض.

توقف مذهولاً. من الظلمة المدلهمة تنبثق فجأة كتلة وحشية من الماء كما لم يستطع تخيل وجودها في هذا العالم قط. تتموج في القمة، تكسب ارتفاعاً، وتهبط على سطح الأرض مثيرة دوياً أصمَّاً، وتنسحب بوشوشة كي تعيد الهجوم بعزم جديد.

البحر!

أدرك أنه قائم هناك، البحر العجيب الذي كثيراً ما تحدث عنه

سويلم، وعنه كان يروي باحترام المسافرين الأكثر مغامرة الذين كانوا يقضون بضع ليالٍ في خيمته. وعندما تقدمت موجة طويلة أكثر جسارة، مندفعة فوق الرمال على أهبة أن تبلل صندله وتلعق طرف عباءته، كان الرعب قد هيمن عليه حتى أنه لم يعرف كيف يقوم بقفزة إلى الوراء كي يهرب راكضاً.

البحر الذي ولد منه في أحد الأيام أسلافه الـ «غرامانتِس»؛ البحر الذي يغسل الشواطئ السنغالية حيث ذهب ليموت هناك النهر الكبير الذي حدد الصحراء من الجنوب، البحر حيث تنتهي الرمال وكل الكون المعروف، وما وراءه لا يقطن سوى الفرنسيين.

البحر الذي لم يحلم بالتعرف عليه يوماً، وهو بعيد بالنسبة له مثل النجوم الأكثر بعداً في آخر المجرات، حدود لا يمكن تجاوزها، فالخالق نفسه كان قد فرضها على «أبناء الريح» المشردين الأبديين في كل البقاع وكل الرمال.

وصل إلى نهاية طريقه وكان يعلم ذلك. ذلك البحر تخوم الكون وهدير حنقه، صوت الله يناديه محذراً من أنه تخطى قواه وتخطى ما يسمح به لـ «أماهِغ» السهوب، واقتربت اللحظة لتقديم الحساب على جسامة غطرسته.

«ستموت بعيداً عن عالمك» تكهنت له العجوز كلثوم، ولم يفلح في تصور شيء أكثر بعداً عن عالمه مثل حاجز الزبد الأبيض الصاخب الذي يرتفع حانقاً أمام عينيه، ولم يتبيّن في الطرف الآخر منه سوى عمق الليل.

اتخذ له مكاناً على الرمل الجاف، لا تصله الأمواج ومكث هناك ساكناً متذكراً حياته ومفكراً بزوجته وأبنائه، وجنته المفقودة، تاركاً الساعات تتابع طريقها في انتظار السناء الأول للفجر. ضوء بحري مبهم بدأ امتداده في السماء كي يسمح له بالتعجب من الامتدادات الشاسعة للماء الذي انفتح أمامه.

لقد تخيل الثلج، المدينة والأمواج بأنها أنهكت مقدرته على

الدهشة إلى الأبد. لكن المشهد الذي كشف عنه الصباح أمام عينيه أخرجه مرة أخرى من غيّه، اللون الرمادي والمعدني لبحر هائج ومتوعد كان له فضيلة تنويمه وإغراقه في غيبوبة عميقة جعلته بلا حركة ومنذهلاً كتمثال بلا حياة.

أول شعاع للشمس حوّل الرمادي إلى أزرق مضيء وأخضر قاتم، حيث بياض الزبد اكتسب كثافة يتباين فيها مع الأسود المتوعد لسَحابة تسوقها عاصفة تقترب من الغرب، انفجار أشكال وأضواء لم يتصور مثلها أبداً. كان يمكنه المكوث هنا مسمّراً خلال ساعات لو لم يخرجه الضجيج المتواصل للسيارات خلفه من شروده.

استيقظت المدينة.

ما كان في الليل جدراناً مرتفعة لنوافذ مغلقة وبقع حالكة محيّرة للنباتات، تحول في النهار إلى إسراف في الألوان، حيث الأحمر البنفسجي للحافلات يتباين مع الأبيض للواجهات. اللون الأصفر لسيارات التاكسي مع خضرة الأشجار الوارفة، والخليط الفوضوي للإعلانات الصارخة التي غطت الجدران بالآلاف.

والناس...

اعتقد أن كل سكان الأرض أقاموا موعداً في ذاك الصباح على درب التنزه البحري العريض، يدخلون في الأبنية المرتفعة ويخرجون مصطدمين ومتفادين بعضهم، ذاهبين وعائدين بنوع من الرقص العبثي، وفجأة يتوقفون جميعاً على حافة الرصيف، ومن ثم يرمون بأنفسهم بغتة إلى إيقاع الطريق الواسع حيث تتوقف فيه بغتة حافلات، عربات أجرة، ومئات السيارات بأشكال مختلفة وكأنّ يداً جبارة ولا مرئية تكبحهم.

بعد فترة وجيزة من مراقبتهم توصل غزال إلى النتيجة في أن هذه اليد الجبّارة تنتمي إلى رجل بدين مصاب بداء الصرع، يلوّح بها بشكل متواصل رافعاً ذراعيه ثم خافضاً كما لو أن الحماقة والجنون تملكتاه، جاعلاً صافرة تطلق صفيراً طويلاً بإلحاح شديد وحنق،

فتتوقف السابلة وكأن صوت صافرته قادم من فم العلي القدير نفسه.

كان رجلاً مهمّاً شرطي المرور ذاك، لا مجال للشك، رغم تورد وجهه وبقع العرق على بزّته، حيث أكثر الشاحنات ثقلاً تتوقف عندما يرفع يده وفقط حينما يمنحها من جديد السماح فتتجرأ على متابعة المسير.

وخلف ظهره تماماً ارتفع البناء الرمادي بمظلات بيضاء، عالياً، متيناً ومثقلاً، محمياً بحاجز من شبك ثخين، وحديقة بأشجار ذاوية، ذاك الذي أشار إليه عامل الخطوط الحديدية. هناك يعيش، أو على الأقل هناك يعمل وزير الداخلية علي ماداني؛ الرجل الذي سلب منه زوجته وأبناءه.

اتخذ قراراً، جمع ممتلكاته ثم اجتاز الشارع بحركة حازمة واقترب من البدين المصاب بداء الصرع الذي شيّعه بنظرة مديدة من الدهشة دون أن يتخلى عن تحريك يديه وجعل صافرته تصفر.

توقف أمامه:

ـ هل يعيش هناك الوزير ماداني؟ ـ سأل بصوت رصين وعميق أدهش شرطي المرور، كما أدهشه أكثر من مظهره الغريب، الثياب التي يرفل بها، ووجهه المغطى حتى عينيه باللثام.

ـ ماذا تقول؟

ـ إذا كان يعيش أو يعمل هناك الوزير ماداني...

ـ نعم، هناك مكتبه، وخلال خمس دقائق، في الثامنة تماماً سيصل، والآن انصرف!

وافق غزال بصمت، اجتاز الشارع من جديد يتبعه ارتباك شرطي المرور الذي فَقَدَ مؤقتاً رتابة عمله، وتوقف على طرف الشاطئ منتظراً.

خمس دقائق تماماً بعدها سمع عواء بوق سيارة، ظهرت اثنتان

من الدراجات النارية تتبعهما عربة سوداء طويلة وثقيلة، وتوقف كل المرور في الشارع فوراً، لكي يتقدم الموكب دون عوائق ليتوغل بمهابة في الحديقة الصغيرة للبناء الرمادي.

استطاع غزال أن يتبيّن من بعيد طيفاً طويلاً لرجل أنيق وشامخ والذي ترجّل وسط انحناءات متكلفة من البوابين والموظفين، وصعد بلا عجلٍ الدرجات الخمس من المرمر للمدخل الفسيح حيث على جانبيه جنديان يقفان حرساً مسلحين بالرشاشات.

عندما توارى ماداني اجتاز غزال الشارع من جديد أمام العصبية البادية على الشرطي الذي لم ينقطع عن مراقبته من طرف عينه:

ـ كان هذا هو الوزير؟ ـ أراد أن يعرف.

ـ نعم. كان هو... وقلت لك بأن تنصرف! اتركني بسلام!

ـ لا! ـ كانت نبرة الطارقي جافة، حازمة ومتوعدة ـ أريدك أن تقول له شيئاً من طرفي: إذا لم يترك عائلتي طليقة بعد غدٍ، هنا بالذات، في هذه النقطة التي أنت فيها سأقتل الرئيس.

حدجه البدين مندهشاً بشكل مطلق، تأخر في ردة فعله، وأخيراً تمتم بحماقة:

ـ ماذا قلت؟ ستقتل الرئيس...؟

ـ تماماً ـ وافق، وأشار بإصبعه صوب البناء ـ قل له هذا! أنا غزال صياح الذي حرر عبد الكبير وقتل ثمانية عشر جندياً، سأقتل الرئيس إذا لم يُعد لي عائلتي. تذكر! بعد غدٍ!

قام بنصف استدارة وابتعد فاتحاً له طريقاً بين الحافلات والشاحنات التي توقفت وأطلقت أبواقها بشكل متواصل، لأن المُكلف بتوجيه المرور بدا وكأنه تحول إلى تمثال من الملح، متأملاً بعيني بقرة ميتة النقطة التي توارى فيها بدوي بقامة طويلة وقد ابتلعته الجموع.

خلال الدقائق العشر التي أعقبت ذلك بذل الشرطي جهداً كي يستعيد السيطرة على أعصابه وإعادة تنظيم حركة المرور بشق النفس، محاولاً أن يقنع نفسه بأن لا شيء مما حدث له معنى، والأمر يتعلق بمزحة حمقاء فحسب أو هذيان بسيط ناتج عن الإفراط في العمل.

لكن شيئاً من اليقين كان في كلمات ذاك المجنون، والتي جعلته قلقاً وبالقدر نفسه أقلقه ذكر عبد الكبير وحريته، حيث شاع أن الرئيس السابق استطاع الهرب وهو موجود الآن في باريس يطلق نداءات مستمرة لإعادة تنظيم مريديه.

خلال نصف ساعة لم يكن قادراً على تركيز الانتباه في عمله، مدركاً بأنه على وشك أن يثير فوضى عارمة في حركة المرور أو حادثاً خطيراً. ترك مكانه واجتاز الطريق والحديقة الصغيرة للوزارة، ودخل مرتجفاً تقريباً إلى غرفة الاستقبال الفسيحة بأعمدة مرتفعة من المرمر الأبيض.

ـ أريد أن أتكلم مع مدير الأمن ـ طلب من أول حاجبٍ رآه.

بعد خمس عشرة دقيقة نظر إليه الوزير علي ماداني باهتمام وبحالة تنمّ عن القلق، وقد تغضن جبينه بشكل مضحك، خلف منضدة بديعة وأثيرية تقريباً من خشب «الماغوني» المصبوغ باللّك.

ـ طويل، نحيل وبوجه مغطى بلثام؟ ـ كرر راغباً في أن يتأكد من أن الآخر لم يخطئ ـ وأنت متأكد؟

ـ تماماً يا معالي الوزير... طارقي حقيقي، من هؤلاء الذين لا نراهم إلا على الطوابع البريدية. منذ بضعة سنين كان مايزال يضج بهم السوق و«القصبة» لكن لم نعد نرى أيّاً منهم منذ أن مُنعوا من استخدام اللثام...

ـ إنه هو لا مجال للشك... ـ وافق الوزير، مشعلاً سيجارة تركية طويلة بمبسم وبدا غارقاً بالتفكير في فكرته ذاتها ـ كرر لي ما قاله لك بأكثر دقة ممكنة ـ طلب منه بعد ذلك.

ـ قال إذا لم تعيدوا له عائلته بعد غدٍ وتتركونها طليقة في الزاوية، سيقتل الرئيس...

ـ إنه مجنون...

ـ هذا ما قلته يا معالي الوزير... لكن هؤلاء المجانين خطرون أحياناً...

التفت علي ماداني إلى الكولونيل تركي الذي يقوم بمهمة المدير العام لأمن الدولة، والذي يمكن اعتباره يده اليمنى الحقيقية، وتقاطعت نظراتهما في حيرة عميقة.

ـ أي عائلة شياطين يقصد...؟ ـ سأل ـ كما أعلم، نحن لم نلمس عائلته حتى.

ـ ربما لا يتعلق بالشخص نفسه...

ـ هيا ياتركي...! لا يوجد الكثير من الطوارق في هذا العالم الذين يمكنهم معرفة ما يتعلق بعبد الكبير وموت هؤلاء الجنود. يجب أن يكون هو ـ التفت إلى شرطي المرور وقام بإشارة من يده طالباً منه الانسحاب ـ يمكنك الذهاب... ـ أشار ـ لكن ما من كلمة حول هذا إلى أحد.

ـ لا تقلق يا صاحب المعالي...! ـ أجاب مرتبكاً ـ بمسائل تتعلق بأسرار الخدمة، أنا مثل قبر.

ـ أفضل لك ـ كان الجواب الجاف ـ إذا نفذّت ما تقول سأقترح ترفيعك. عكس ذلك، سأتكفل بك أنا شخصياً. واضح؟

ـ بالطبع يا صاحب المعالي، بالطبع.

عندما ترك المكان انتصب الوزير ماداني واقترب من النافذة الواسعة، أزاح الستائر وتوقف متأملاً البحر طويلاً، وسحابة قاتمة تسحُ فوقه في البعيد مثيرة أثراً بديعاً من الضوء والظلال.

ـ حتى أنه وصل إلى هنا... ـ علّق بصوت مرتفع كي يسمعه الآخر، لكن تكلم في الحقيقة مع نفسه ـ لا يكفي لهذا الطارقي

الملعون أنه سبب لنا مليون مشكلة فحسب، بل هو قادر على الحضور إلى أمام بابنا ذاته لإثارتنا... شيء لا سابقة له! فظيع ومضحك!

ـ يعجبني التعرف عليه...

ـ يا للشيطان! وأنا كذلك ـ صاح مقتنعاً ـ فردٌ بهذه الخصال لا تلتقيه مراراً... ـ سحق السيجارة بزجاج النافذة ـ لكن عمّا يبحث بحق الشيطان...؟ ـ سأل بغتة متكدراً ـ أي حكاية هذه عن عائلته؟

ـ ليس لدي أي فكرة يا صاحب المعالي.

ـ تكلم مع «العقب» ـ أمر ـ استفهم عمّا حدث لعائلة هذا المجنون. خراء! ـ غمغم في الوقت الذي رمى فيه عقب سيجارته في الهواء وراقبها كيف سقطت على سيارته ذاتها المركونة في طرف الحديقة ـ وكأنه لم يكن يكفي عبد الكبير...! ـ نظر إليه مواجهة ـ ماذا تفعل جماعتك في باريس بحق الشيطان؟

ـ لا يستطيعون فعل شيء يا صاحب المعالي ـ اعتذر الكولونيل ـ الفرنسيون يحمونه تماماً. حتى أننا لم نستطع أن نعلم أين يخبئونه.

عاد الوزير من جديد إلى طاولته ورفع رزمة من الوثائق وأظهرها له باتهامية،

ـ انظر هذه ـ قال ـ تقارير عن جنرالات هاربين، أناس يجتازون الحدود للالتحاق بعبد الكبير، اجتماعات سريّة في الثُكنات في الداخل...! ما ينقضي هو طارقي مجنون يحاول صيد الرئيس... ابحث عنه! ـ أَمَرَ ـ أصبحت تعرف الصفات: رجل طويل، بثياب الأشباح، بلثام يغطي وجهه ولا يُرى منه سوى عينيه. لا أعتقد بأنه يوجد الكثير مثله في المدينة.

33

وجد ما كان يبحث عنه في كنف معبد «رومي» قديم: واحدة من تلك الكنائس الغربية المبعثرة في أرجاء الوطن، رغم معرفة هؤلاء المسيحيين بأنهم لن يصلوا أبداً إلى تحويل مسلم واحد إلى المسيحية.

منطقة سكنية منتصبة في مكان كان على أهبة أن تصبح ضاحية أنيقة من العاصمة. منطقة فاخرة على حافة الشاطئ وبعض الجروف المرتفعة، كانت أول من عانى من نتائج الثورة، حيث وصلتها النيران في منتصف ليلٍ حالك. اشتعلت فيها حتى الفجر دون أن يتجرأ الجيران أو فرق الإطفاء على إخماد الحريق، مدركين بأنه في حلكة الغابات القريبة يربض القناصة القوميون مقررين على ضوء اللهب صرع من يرتكب حماقة الاقتراب منها.

تحولت مع الزمن إلى هيكل عظمي داكن ومغبّر، ملجأ للفئران والسحالي، حتى المشردون كانوا يتجنبونها منذ أن ظهر أحدهم ميتاً فيها، في الليلة التي صادفت الذكرى العاشرة لتدميرها.

فَقَدَ الجناح المركزي الفسيح سقفه، ورطوبة الريح القادمة من البحر حولته إلى مكان خشن، لكن في العمق، خلف ما كان يجب أن يشكل المذبح الرئيسي، باب مفتوح يفضي إلى أمكنة صغيرة مسقوفة، اثنتان منها مازالت أغلب نوافذها تحتفظ بزجاجها سليماً تقريباً.

مكان موحش وهادئ، وهذا ما كان غزال يحتاجه بعد الأيام الأكثر إثارة في حياته. إنه حائر ودائخ، كما شعر بعد التطواف في المدينة بالدوار من الجموع وزحمة المرور، والفضيحة التي لا تُحتمل لعالم يبدو وكأنَّ قلقه الأساسي هو تهشيم طبلة الأذن للذين، كهذا الطارقي، اعتادوا دائماً على السكينة والصمت.

مدَّ، وقد أضناه التعب، اللحاف في ركن ونام معانقاً أسلحته. هاجمته كوابيس وحشية، قطارات، حافلات، وجموع صاخبة وكأنها تريد الانقضاض عليه باستمرار لتسحقه وتحوله إلى كتلة مدماة لا شكل لها.

أيقظه الفجر، مرتجفاً من البرد وقد جزّه العرق بسبب أحلامه، وشعر في البداية كأن الهواء ينقصه وأن يداً هائلة تجهد في خنقه، لأنه وللمرة الأولى في حياته الطويلة ينام تحت سقف من الإسمنت وبين أربعة جدران.

أطل على الخارج. على بعد مئة متر كان البحر أزرق وهادئاً، مختلفاً جداً عن الوحش المزبد والغاضب لليوم السابق، إذ أن شمساً ساطعة وقوية أضفت عليه انعكاسات لجينية. فتح الصرّة برصانة احتفالية تقريباً، كانت تحتوي على ما اقتناه من محلات «القصبة»، وبسطها على اللحاف. علّق مرآة صغيرة على إفريز النافذة وحلق حلاقة جافة كما كان يفعل منذ الصغر، بمساعدة خنجر مشحوذ بحدّة، ثم تناول مقصاً وشذّب شعره المجعد الأسود والخشن إلى درجة أنه لم يتعرف على نفسه تقريباً عندما تأمل نفسه مليّاً من جديد في المرآة. أخيراً ذهب إلى البحر واستحم مستعيناً بقطعة صابون صغيرة شديدة الرائحة، متفاجئاً بالطعم المرّ للماء وبالأملاح التي علقت على جسده. وبالرغوة الضئيلة التي حصل عليها أثناء الاستحمام.

وبعد عودته إلى ملاذه ارتدى بنطالاً أزرق وقميصاً أبيض فشعر بالسخافة. تأمل بألم عباءته، عمامته ولثامه، وكان على أهبة

أن يعيد ارتداءها، لكنه أدرك أنه يجب عليه ألا يفعل، فهو على وعي تام بأنه حتى في «القصبة» لفت الانتباه بثيابه التي كان يرفل فيها دائماً.

كان قد توعد الرجل الأقوى في البلاد، وفي هذا الوقت تكون الشرطة والجيش قد شرعوا في البحث عن طارقي مغطى بلثام لا يُرى منه سوى عينيه. لذا عليه أن ينتهز المزيّة المعطاة له في أنه ما من أحد يعرف، لا من بعيد أو قريب، مظهره الحقيقي، ومتيقناً أنه بمظهره الجديد الذي اتخذه للتو، حتى ليلى نفسها لن تكون قادرة على التعرف عليه.

كان ينفر من فكرة أن الغرباء سيتمكنون من رؤية وجهه، وشعر بالخجل وكأن عليه أن يخرج عارياً إلى الشارع ويطوف بهذا الشكل بين الجموع، لأنه في أحد الأيام، منذ سنوات كثيرة مضت، حينما كفَّ عن أن يكون طفلاً أعدّت له والدته «الغندورة» الأولى، وفيما بعد حينما تحول إلى رجل ومحارب، كان اللثام الذي أعلن بأنه أصبح خليقاً تماماً باحترام الآخرين له. تجريده من هاتين القطعتي كان كما لو أن طفولته عادت إليه، إلى الأزمنة التي يستطيع فيها عرض حياته على العالم دون أن يقوم أحد بفضيحة.

مشى في المكان، ثم خرج إلى الجناح الفسيح المكشوف محاولاً التعود على ثيابه الجديدة معتمداً على المشي الطويل، لكنَّ البنطال كان ضيّقاً ويعيقه في القرفصة أيضاً، لأنه يستطيع عادة المكوث ساعات في هذه الوضعية شاعراً بالراحة، والقميص يحتك بجسده مسبباً له إزعاجاً وحكة لا يعرف إذا كانت تعود للقماش أَمْ لملح البحر.

أخيراً تعرّى من جديد ولفّ نفسه في الملاءة، وقضى بقية اليوم هكذا متكوراً وغارقاً في تفكيره دون طعام أو شراب.

أغمض عينيه حينما خيّمت العتمة على المكان، وعاد لفتحهما مع السنا الأول للفجر. ارتدى لباسه متغلباً على قرفه من الثياب

الجديدة، وعندما بدأت المدينة بالاستيقاظ كان قد أصبح أمام بناء الوزارة الرمادي.

لم يسترع منظره انتباه أحد، وما من أحد نظر إليه وكأنه يسير عارياً، لكن سرعان ما لاحظ وجود الشرطة المسلحة بالرشاشات وقد احتلوا النقاط الاستراتيجية، بينما البدين المتعرق بالبزة الرسمية يتابع التلويح بذراعيه من مكانه، وتبدو عليه العصبية أكثر من المعتاد، مختلساً النظرات فيما حوله.

«يبحث عني... ـ قال لنفسه ـ لكن لن يتعرّف عليّ أبداً في هذه الثياب...».

فيما بعد، في الثامنة تماماً وبدقة ساعة قياس الوقت، ظهر موكب الوزير في طرف الطريق، ولاحظ غزال كيف ارتقى علي ماداني الدرج مسرعاً، متوغلاً مباشرة في البناية دون أن يتوقف هذه المرة كي يلقي السلام على أحد.

اتخذ له مكاناً على أحد مقاعد الشارع العريض كواحد آخر من العاطلين الكثر التي تعج بهم المدينة، واثقاً من أنه بين لحظة وأخرى ستظهر ليلى وأبناؤه وهم يخرجون من تلك البوابة نفسها. لكن في قرارة نفسه الأكثر عمقاً كان صوت حقود يصرخ به بأنه يهدر وقته مع أنه حاول بكل الوسائل إسكاته.

خرج ماداني في منتصف النهار من جديد مع جلبة الدراجات النارية كي لا يعود مرة أخرى، وعند الغروب لم يعد عنده مجال للشك بأنه ليس لديهم النيّة في إعادة عائلته. ترك غزال المقعد وابتعد بلا هدف، مدركاً من أنه مهما حاول ما من إمكانية لديه في العثور هنا، في لجّة المدينة الكبيرة، على الكائنات التي أحبها.

لم يفده تهديده للرئيس في شيء، وتساءل ـ دون أن يجد جواباً ـ لماذا يلجؤون إلى حجز ذويه إذا كان عبد الكبير قد أصبح طليقاً. لم يكن الأمر يتعدى إذاً إلا انتقاماً أحمق وجباناً، لأنهم لن يجدوا المتعة حتى في تسبب الأذى لكائنات بريئة لم تقم بفعل أي شر.

ـ ربما لم يصدقوني ـ حكّم عقله ـ ربما تخيلوا أن طارقياً مسكيناً وجاهلاً لا يستطيع الاقتراب أبداً من الرئيس.

ربما معهم الحق، حيث الآن في هذا الوقت، يدرك غزال ضآلته أمام العالم المعقد لعاصمة لم تَجْدِ فيها نفعاً معارفه ولا تجربته أو تصميمه.

غابة من الأبنية تستحم ببحر شاسع مالح، في كثير من زواياها ترتفع نوافير يتدفق منها ماء عذب في يوم واحد أكثر مما يستهلكه بدوي في حياته كلها، وتنتصب فوق أرضٍ حجرية تصلح فقط كجحور لألوف الفئران. وتتحول مدينة كهذه بالطبع، إلى المكان الأكثر دهاء وبسالة ونبلاً وذكاء من رجل «إموهاغ» من قبيلة كيل ـ تالغيموس المباركة، ويشعر بالعجز عن القتال فيها مثل الأكثر وضاعة من عبيد «عكلي».

ـ تستطيع أن تدلني كيف أستطيع الوصول إلى قصر الرئيس...؟

كان عليه أن يسأل خمس مرات هذا السؤال ثم يستمع بمنتهى الانتباه إلى مثلها من الأجوبة، لأن متاهة الشوارع كلها متشابهة فيما بينها، وقد بدت له غير قابلة لفك طلاسمها. غير أنه بإلحاحه وصل، تقريباً عند حافة الليل، إلى حديقة فسيحة محاطة بحاجز من الشِباك المرتفعة تحيط من الجهات الأربع البناء الأكثر أبهة مما رآه في حياته.

وحدة من حرس الشرف بسترات عسكرية حمراء وخوذ مزينة بالريش تسير في عرض عسكري، منصاعة آلياً إلى الأصوات الآمرة، وحينما انسحبت أخيراً كان ذلك كي تترك في الزوايا حراساً شامخين يبدون كتماثيل أكثر منهم كائنات من لحم وعظم.

تمحص الحديقة الكبيرة بدقة فوقع بصره على مجموعة متلاصقة من أشجار النخيل الباسقة، منتصبة تشرف على كل شيء هناك، وتبعد أقل من مئتي متر من المدخل الرئيسي. كم مرة مكث غزال، هناك في صحرائه البعيدة، خلال أيام فوق قمة إحدى تلك

النخلات نائماً وقد وثق نفسه بالساق الغليظة للسعف مترصداً قطيعاً من «الأونيكس» لأن حاسة الشمّ عندها تنذرها دائماً، وفي أية ظروف، بوجود كائن آدمي.

طاف بنظره المسافة بين السياج وأشجار النخيل، وقدّر أنه إذا استطاع التسلق خلال الليل على إحدى القمم دون أن يراه أحد، سيكون لديه إمكانية كبيرة بالوصول إلى الرئيس بطلقة واحدة في اللحظة التي يحاول فيها الدخول أو الخروج من القصر. هذه مسألة تحتاج إلى أناة فقط، وطول الأناة شيء يفيض عن الطارقي دائماً.

34

عرف من يكون عندما رنّ الهاتف، إذ أنه الخط المباشر الذي لايستخدمه سوى الرئيس.

ـ نعم سيدي؟

ـ الجنرال الحُمَيْد، علي... ـ كان الصوت يجاهد كي يحافظ على هدوئه، لكنه كان يلاحظ بوضوح اضطرابه ـ هتف لي للتو راجياً «بكل احترام» أن ندعو إلى انتخابات بأقصى سرعة كي نتجنب هدر الدماء.

ـ الحُمَيْد! ـ تحقق علي ماداني من أن صوته مضطرب أيضاً، وحاول دون نجاح أن يتصنع الهدوء الذي لا يشعر به ـ لكن الحُمَيْد يدين لحضرتكم بكل شيء... كان قائداً غامضاً لم...

ـ أعرف علي، أعرف...! ـ قاطعه الصوت وهو نافد الصبر ـ لكنه الآن هناك، حاكم عسكري في ساحة أساسية، وأكبر قواتنا من سلاح الدبابات تحت إمرته...

ـ اعزله من الخدمة!

ـ هذا يُسرع في تدهور الأمور... إذا هو تمرد، تتبعه المقاطعة، ومقاطعة متمردة هي كل ما يحتاجه الفرنسيون كي يُسرعوا في الاعتراف بـ «حكومة مؤقتة». قبائليّو الجبال هؤلاء لم يريدونا قط، علي. أنت تعرف أكثر مني.

ـ لكنك لا تستطيع أن توافق على شروطه...! ـ لفت انتباهه ـ البلاد ليست جاهزة للانتخابات...

ـ أعرف... ـ كان الجواب ـ لذا أهتف لك... ماذا هناك عن عبد الكبير؟

ـ اعتقد أننا عرفنا موقعه... موجود في قصر صغير في غابة «سان ـ جرمان» في منطقة «Laffitte – Maison» نزل لافاييت.

ـ أعرف المكان. اختبأنا إحدى المرات ثلاثة أيام في هذه الغابة بينما نحضِّر لعملية. ما هي خطتك؟

ـ الكولونيل تركي خرج مساءً إلى باريس، عن طريق جنيف. في هذه الساعة يجب أن يكون على اتصال مع جماعته. أنتظر مكالمة منه بين لحظة وأخرى.

ـ فليتصرّف بسرعة.

ـ لا أريده أن يفعل قبل أن يكون متأكداً تماماً من النتيجة ـ كان الجواب ـ إذا فشلنا الفرنسيون لن يعطونا فرصة ثانية.

ـ موافق... أطلعني على مجرى الأمور.

أغلقَ الاتصال. ووزير الداخلية علي ماداني فعل ذلك أيضاً من جهته، ومكث لفترة طويلة ساكناً في أريكته مستغرقاً، ومفكراً بما يمكن أن يحدث إذا لم يحقق الكولونيل النجاح في محاولته، وعبد الكبير يتابع تحريض الأمة على العصيان. الجنرال الحُمَيْد سيكون الأول، لكنه يشك حسبما يعرفه بأنه يمتلك الشجاعة في أخذ المبادرة مواجهاً الرئيس إذا لم تكن تكتنفه القناعة بأن ثُكنات أخرى ستتحد معه مباشرة. حَسَبَ بعد مراجعته الأسماء، بأنه ضَمِن على الأقل سبعة أقاليم، مما يعني أن ثلث القوات المسلحة سيميلون من اللحظة الأولى إلى عبد الكبير. من هناك إلى إعلان الحرب الأهلية لا يوجد سوى خطوة، وبشكل خاص إذا كان الفرنسيون مصممين على أن تنفجر الحرب الأهلية. لم يغفروا لهم بعد إهانات العشرين سنة

الماضية، كما أنهم مازالوا يحلمون بالعودة لوضع يدهم على ثروة كانوا يعتبرونها خلال قرن أنها ملكهم.

أشعل واحدة من سجائره التركية البديعة بمبسمها الجميل، وقف منتصباً واقترب من النافذة حيث يتأمل من هناك البحر الهادئ، الشاطئ الخالي في تلك الحقبة من السنة، ودرب النزهة البحري الواسع، متسائلاً إذا ما جاءت اللحظة كي يهجر ذاك المكتب نهائياً والذي كثيراً ما أحبه.

قطع درباً طويلاً للوصول إليه؛ مروراً بسَجْنِ رجل كان في أعماقه يكنُّ له الإعجاب، ثم الخضوع التام للآخرين الذين كان يحتقرهم في أعماقه. طريق شاق في الحقيقة، لكنه أعطى ثمرة، حيث أصبح القوة الأكبر، والسلطة في البلاد كانت متمركزة كلها في يديه، وما من أحد ـ إذا استثنينا ذاك الطارقي الملعون ـ كان قادراً على القيام بخطوة واحدة دون رضاه.

لكنه يلاحظ الآن أن هذه السلطة بدأت تنهار وتنزلق من بين يديه كطين تجفف تحت الشمس وتفتت إلى غبار، وكلما شدَّ قبضته جاهداً في المحافظة عليها كلما تلاشت بسرعة أكبر.

رفض القبول بأن هذا الصرح المنحوت الذي رفعه بكثير من العرق وكثير من دم الآخرين، ستكون نتيجته النهائية بهذه الهشاشة، وأن الصدى البحت البسيط لاسم: عبد الكبير، كافٍ لتصديعه من أساسه، لكن الأحداث تشير إلى أن ذلك صحيح، وربما حانت الساعة لمجابهة الحقيقة والقبول بالهزيمة.

عاد إلى المنضدة، رفع السماعة وطلب رقم بيته منتظراً أن تُعلم الخادمة زوجته، وعندما تناولت زوجته السماعة كان لصوته وقع غريب، أجش وخجول تقريباً:

ـ حضّري الحقائب، عزيزتي ـ طلب منها ـ أريدك أن تذهبي لبضعة أيام إلى تونس مع الأطفال... سأخبرك متى يمكنك العودة.

ـ هل الأمور بهذا السوء...؟

35

أمضى القسم الأعظم من اليوم وهو يتجول مرة تلو الأخرى في الطريق بين قصر الرئاسة و«القصبة»، إذ أنه في المرة الأخيرة توصل إلى الاعتياد، وشعر بأنه قادر على الذهاب والإياب منها إلى ملجئه دون أن يضلّ الطريق. لكنه لم يتوصل إلى الاعتياد على الشوارع في المدينة الحديثة المستقيمة والمتشابهة فيما بينها، شوارع لا فرق بينها سوى بالمحالٍّ التجارية أو ببعض اللافتات التي لم يشعر بأنه قادر على تفسيرها.

اشترى فيما بعد من سوق صغير قَدراً وافراً من التمر والتين المجفف واللوز، إذ أنه كان يجهل الوقت الذي عليه أن يقضيه مختبئاً في ذرى شجرة النخيل، وحصل أيضاً على إناء واسع وملأه من أقرب نافورة. عاد في الختام إلى الكنيسة المهدمة؛ تيقن مرة أخرى من حالة سلاحه، ومكث منتظراً بصبر، مستنداً على الحائط، ساعياً بألا يفكر سوى في الطريق الذي عليه أن يسلكه للوصول إلى القصر.

لم يكن ثمة أحد في «القصبة» الغارقة في العتمة حينما اجتازها بصمت، مفزعاً القطط. دقّت ساعةٌ ثلاث دقات من جرسها ببطء عندما وصل إلى أول شارع من الشوارع الإسفلتية. رفع وجهه إلى قبة البرج المضيئة ورآها كما لو أنها العين الكبيرة «للسيكلوب»، وعتمة الليل لم تسمح حتى بتبيان أطراف البرج، بينما لاح في السماء قمر بدا بدراً كبيراً يكاد يسبح فوق الأفق.

بدت الشوارع موحشة دون وجود حافلات تعمل حتى آخر الليل، أو شاحنات القمامة، وأقلقه الهدوء غير الطبيعي رغم تقدم الوقت.

بغتة تحطم هذا الهدوء بظهور عربة سوداء للشرطة عبرت من بعيد راسمة ضوءاً متقطعاً يدور في أعلاها، وعن بعد قدّر بأن الضوء قادم من جهة الشاطئ حين سمع صوت صافرة الإنذار.

أسرع الخطى. وفي كل مرة كان أكثر قلقاً، لكن كان عليه أن يحتمي بعمود أحد الأبواب عندما ظهرت عربة أخرى سوداء على مسافة مئتي متر منه، توقفت على حافة الرصيف وأطفأت الأضواء.

مكث بصبر، لكن يبدو أن من فيها قرروا اختيار تلك النقطة الاستراتيجية عند تقاطع شارعين، لكي يخفروا ربما طوال الليل. وبعد التفكير بذلك لبضعة دقائق اختار أن يتسلل من أقرب مدخل للشارع، محاولاً الالتفاف على العائق والخروج فيما بعد من خلف ظهورهم.

سرعان ما أدرك، حينما رأى نفسه مجبراً على ترك الطريق الذي حفظه بكثير من الجهد، بأنه تائه. كل الشوارع بدت له متشابهة في ضوء المصابيح الشاحبة والمحزنة، وهي أيضاً متشابهة فيما بينها، ولم يجد أي أثرٍ لأي من تلك التفاصيل الضئيلة التي كان قد أمعن النظر فيها خلال النهار.

بدأ يشعر بالضيق، لأنه كلما تقدم شعر بأنه أكثر تيهاً، ولم تكن هناك ريح يستفيد منها في وجهته، وما من نجوم تستطيع أن تبيّن له الاتجاه.

عبرت سيارة شرطة صاعقة الليل بصفيرها، وألقى بنفسه تحت مقعد، ثم جلس بعد ذلك عليه كي يركّز، عبثاً، في محاولة لترتيب أفكاره ولكي يكون قادراً على التمييز، في أي جهة من تلك المدينة الهائلة الطاعونية والمتوحشة يكون قصر الرئاسة، وفي أي جهة تكون «القصبة»، والأماكن التي أصبحت، إلى حدٍ ما معروفة. أخيراً

أدرك بأنه خسر اللعبة، ومن الحكمة أن يُشرع بالعودة والمحاولة من جديد في اليوم التالي.

عاد أدراجه، لكن المشكلة كانت على قدر من التعقيد في الذهاب كما في الإياب، وتابع ضياعه لوهلة طويلة إلى أن وصل إلى مسمعه دوي البحر. وصل إلى درب التنزه البحري العريض، ووصل أخيراً إلى أمام مبنى وزارة الداخلية المعروف.

تنفس الصعداء. يعرف الوصول إلى مخبئه من هناك، وعندما أسرع الخطى وكاد أن يوغل في زقاق ملتوٍ، يصعد فيه إلى حي السكان الأصليين، أضاءت مصابيح عربة راكنة إلى جانب الرصيف جسده بوضوح وصرخ صوت متسلط:

ـ هه، أنت...! تعال إلى هنا!

الاندفاع الأول الذي انتابه حثه على الانطلاق في الشارع العلوي راكضاً، لكنه توقف واقترب من النافذة الأمامية محاولاً تجنب حزمة الضوء التي بهرت عينيه. ثلاثة رجال ببزاتهم الرسمية راقبوه بصرامة من الداخل المضاء.

ـ ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟ ـ سأله الذي ناداه والذي كان جالساً إلى جانب السائق ـ ألم تسمع بقرار منع التجول؟

ـ منع ماذا...؟ ـ كرر بحماقة.

ـ منع التجول، أحمق. أذيع في الراديو والتلفزيون. من أي شياطين خرجت؟

أشار غزال بشرود إلى ما وراء ظهورهم.

ـ من المرفأ...

ـ وإلى أين تذهب؟

قام بإيماءة من ذقنه صوب الزقاق.

ـ إلى البيت...

ـ حسناً... دعني أر: أوراقك الرسمية.

ـ ليس لدي.

فتح الشخص الذي يجلس في المقعد الخلفي الباب وخرج حاملاً في يده رشاشاً قصيراً لا يبدو لديه النيّة في استخدامه، واقترب من الطارقي بخطى وئيدة وفتور.

ـ لنرَ... كيف هذا لماذا ليس لديك أوراق رسمية؟ كل الناس في العالم لديهم أوراق رسمية.

كان رجلاً قوياً وله شاربان كبيران وقوام طويل، بمظهر من يشعر بالثقة في نفسه، لكن بغتة التوى على نفسه مطلقاً زعيقاً من الألم بسبب ضربة قوية من عقب بندقية سدّدها له غزال على فم معدته.

قذف الطارقي في اللحظة نفسها سجادة فوق واجهة السيارة وانطلق راكضاً، التفَّ حول الزاوية داخلاً في الزقاق.

ثوان بعد ذلك أَصمَّت صافرة السيارة الليل منذرة الحي، وعندما كان الهارب وسط الزقاق ظهر أحد رجال الشرطة في الزاوية، ومن دون تصويب ربما، أطلق رشقة قصيرة.

قذف وقع الرصاصة بغزال إلى الأمام، فارتمى على بطنه فوق الدرج الواسع للزقاق. لكنه نهض مثل قطٍ. أطلق بدوره فأصاب الشرطي في صدره ملقياً إياه على ظهره.

لقَّم سلاحه من جديد واحتمى في إحدى الزوايا، ومكث منتظراً وهو يتنفس بعناء، مع أنه لا يشعر بأي ألم، علماً أن الرصاصة اخترقته من طرف إلى طرف، وبدأ صدر القميص يتلون بالدم.

أطلَّ رأس من الزاوية، أطلق النار من دون تسديد، فضاع الرصاص في الليل أو ارتدَّ مصطدماً بالأبنية محطماً الزجاج في بعض النوافذ.

بدأ صعود ما تبقى من الدرجات بتؤدة، محتمياً بالجدار. طلقة

واحدة كانت كافية كي تجعل مطارديه يدركون بأنهم يواجهون قناصاً متميزاً، وليس من الحكمة المجازفة بأن يُطير لهم رؤوسهم.

ثوانٍ قليلة بعد ذلك، توارى بعدها الطارقي في إدلهامّ الظلمة ومتاهة الأزقة والتواءات «القصبة». تشاور الشرطيان اللذان بقيا واقفين بالنظرات للحظة، رفعا الجريح إلى المقعد الخلفي وابتعدا في الليل باتجاه إحدى المستشفيات.

الإثنان يعرفان بأنهما يحتاجان إلى جيش في محاولة العثور على الفارّ في عالم حي السكان الأصليين المعتم والمتشابك.

36

أصابت الدهمائية كلثوم مرة أخرى في تنبؤاتها، وجاء ليموت هناك في ركن قذر لبقايا معبد «رومي» مدمَّر، في قلب مدينة مكتظة، مستمعاً إلى دوي البحر، والأكثر بعداً مما كان يتصور عندما كانت تحويه الوحشة المفتوحة لصحراءٍ في سهوبها الصامتة تعبر الريح طليقة.

حاول سدّ الجرح من فتحتيه النظيفتين في مكان دخول وخروج الرصاصة، ضمد الصدر بقوة مستعيناً بالعمامة الطويلة وتدثر باللحاف، مرتجفاً من البرد والحمّى، مستنداً إلى ركن وبقي غارقاً في تهويمات مضطربة دون رفقة سوى الألم والذكريات و«غري - غري» الموت.

لم تعد تفيده مقدرته في أن يتحول إلى حجر، أو أن يحاول جعل الدم مخثراً حتى النقطة التي يمنع فيها متابعة تبليل العمامة الوسخة. ولم يعد الأمر أيضاً يتعلق بقوة إرادته أو نزاهة روحه، إذ أن إرادته كانت قد تصدعت تحت نبض رصاصة ثقيلة، وروحه لم تعد هي نفسها منذ أن فقد كل أمل في استعادة عائلته.

«... أترون كيف أن الصراع والحرب لا يقودان إلى شيء، لأنَّ الأموات من طرف تُدفع بأموات من الطرف الآخر...».

دائماً تعاليم العجوز سويلم: دائماً العودة إلى الحكاية نفسها، لأنه في الواقع يمكن تبديل الأزمنة وحتى المَشَاهد، لكن الناس

مازالوا أنفسهم وسيتحولون في النهاية إلى الأبطال الوحيدين لذات التراجيديا مهما تنوع الزمان والمكان.

بدأت حرب لأن جملاً سحق غنمة من قبيلة أخرى. حربٌ أخرى مشابهة بدأت لأن أحدهم لم يحترم إحدى التقاليد القديمة. يمكن أن يتعلق الأمر بمجابهة بين عائلتين وبقوى متساوية، أو كما في حالته بين رجل ضد جيش. النتيجة ذاتها: «غري ـ غري» الموت يستحوذ على ضحية جديدة، ويدفعها ببطء إلى الهاوية.

وها هو ذا الآن على حافة هذه الهاوية. مذعناً للوقوع فيها، رغم ما يبعث على الحزن لأن من سيكتشف الجثة في يوم ما سيلاحظ أن الرصاصة دخلت من الظهر، بينما هو غزال صياح، كان يعرف دائماً كان يواجه العدو في صدره.

تساءل فيما إذا كان بأفعاله قد كسب الجنة الموعودة، أو على العكس، سيكون محكوماً عليه بالتيه الأبدي في «أرض الخواء»، وشعر بألم عميق لأجل روحه التي ربما تنتهي بالانضمام إلى أرواح أفراد «القافلة العظمى».

حلم بها فيما بعد، ورأى الجِمال التي تحولت إلى مومياءات، والهياكل العظمية الملفوفة بخرق تشرع بالمسير في العراء الصامت، ثم تجتاز بعد ذلك المحطة متوغلة في المدينة النائمة، ونفى برأسه ضارباً نفسه بالجدران، لأنه متيقن من أنهم قادمون لأجله، وسرعان ما يتوغلون في الجناح الكبير الفارغ كي يربضوا هناك بصبر، بانتظار أن يقرر مرافقتهم.

لا يريد أن يعود معهم إلى الصحراء؛ لا يريد أن يتيه في الأزمنة عبر «أرض الخواء» في تيك دابرا. وهمس لهم ساكناً، لأنه لا يملك القوة للصراخ، بأن يذهبوا من دونه.

وأخيراً نام ثلاثة أيام طوال.

عندما استيقظ كان اللحاف مبللاً بالعرق والدم، لكنه كفَّ عن النزف، والرباط تحول إلى قشرة صلبة لاصقة بجلده. حاول أن

يتحرك، لكنَّ الألم كان لا يُحتمل مما جعله يمكث لساعات جامداً تماماً قبل أن يتجرأ على القيام بأي حركة، حتى لمس الجرح. بعد ذلك استطاع أن يجرَّ نفسه بجهد إلى قربة الماء، شرب حتى الشبع ونام من جديد.

كم من الوقت مضى عليه وهو بين الحياة والموت، بين صفاء الذهن والإغماء أو بين الحلم والواقع، لا أحد، وهو أقل من الجميع يعرف القول. أيام، ربما أسابيع، لكن عندما استيقظ في النهاية ذات صباح لاحظ أنه يتنفس تماماً دون أن يشعر بألم، ولأن كل شيء لاح له كما يعرفه في الحقيقة، تولد لديه انطباع بأن نصف حياته قد مضى بين تلك الجدران الأربعة وأنه منذ أعوام ـ أو قرون ـ كان قد جاء إلى المدينة.

أكل بشهية مكسرات وتمراً ولوزاً واستهلك آخر بقايا الماء، ثم وقف بجهد بعد ذلك، واستطاع، مستنداً إلى الحائط، أن يخطو بضع خطوات، لكنه شعر بدوار وكان عليه أن يضطجع من جديد. بحث من حوله، نادى بصوت مرتفع، وتيقن من أن «غري ـ غري» الموت لا ترقد إلى جانب مضجعه.

«ربما أخطأت الدهمائية كلثوم ـ قال سعيداً باكتشافه ـ ربما رأتني في أحلامها جريحاً ومهزوماً، لكنها لم تتوصل إلى التخيل بأنني قادر على التغلب على الموت».

تمكن في الليلة التالية من الوصول، بين ماشٍ وجارٍ نفسه، إلى النافورة القريبة، حيث غسل فيها نفسه بجهد شاق، وتمكن من التخلص من ضماداته التي بدت كأنها تشكل جسداً واحداً مع جلده.

أربعة أيام بعدها، إذا ما تجاسر أي كان، مغامراً بالدخول إلى الكنيسة القديمة المحروقة، كان سيرتعد أمام حضور شبح طويل يترنح كهيكل عظمي ويجرُّ قدميه في الجناح الفارغ متغلباً على التعب والإقياء، مصراً بقوة إرادة فوق إنسانية على الإفلاح في استعادة التوازن والعودة إلى الحياة.

يعرف غزال صياح أن كل خطوة من تلك الخطوات تبعده قليلاً عن الموت وتدنيه قليلاً من الصحراء التي أحب.

ترك أسبوعاً طويلاً آخر يمضي كي يستعيد القوى، حتى لم يبق لديه شيء من الطعام، وأدرك أن اللحظة قد حانت كي يهجر ملجأه إلى الأبد.

غسل ثيابه في النافورة، وغسل نفسه أيضاً بكامله تقريباً، مغتنماً إدلهامّ الظلمة ووحشة الحي. وفي اليوم التالي عندما ارتفعت الشمس احتفظ في كيسه الجلدي بالمسدس الثقيل الذي كان ينتمي إلى الكابتن غالب الفاسي، تاركاً بحزن سيفه، بندقيته، و«الغندورة» الممزقة، وشرع في طريق العودة.

توقف في «القصبة» حيث أكل حتى الشبع، شرب شاياً مغلياً، ثقيلاً وحلواً جعل الدورة الدموية تسري في عروقه بقوة، واشترى قميصاً جديداً بلون أزرق لامع جعله يشعر بالسعادة للحظة.

استأنف المسير وقد انتعش ليتوقف قليلاً عند الدرج الذي جُرح فوقه، ولاحظ أثر الرصاص على الجدران العتيقة.

نفذ من جديد إلى الشارع العريض وتفاجأ بالجموع التي تحتشد على جانبي الطريق، وحينما أراد اجتياز الطريق باتجاه المحطة، منعه شرطي بالبزّة الرسمية:

ـ لا تستطيع العبور ـ قال ـ انتظر.

ـ لماذا؟

ـ سيمر الرئيس.

لم يكن بحاجة إلى رؤيتها كي يعرف أن «غري ـ غري» الموت ترافقه مرة أخرى. من أين خرجت أو أين اختبأت كل ذلك الوقت، لم يستطع معرفة ذلك، لكنها كانت هناك متشبثة بقميصه الجديد، وتضحك خفية من أنه في لحظة ما استطاع أن يعلل نفسه بالأمل الأحمق بأنه قد أصبح حراً منها.

كان قد نسي الرئيس، نسي قَسَمه بقتله له إذا لم يُعِدْ له عائلته، لكن الآن عندما لاح بناء المحطة أمام عينيه ومئة متر فحسب تبعده عنها وعن العودة إلى صحرائه وإلى عالمه أراد القدر أن يسخر من طويته الحسنة، «وغري ـ غري» الموت استخدمت مزحة تراجيدية، فالرجل الذي كان الأصل والفصل في كل ما لحقه من شرور ونكبات هو ذا يعترض طريقه.

إن شاء الله...!

إذا كانت هذه إرادته وعليه أن يفي بوعده ويقتله، فسيقتله، لأنه هو غزال صياح مهما كان نبيلاً وإموهاغ من شعب «كيل تالغيموس» المبارك لا يستطيع أن يفعل شيئاً ضد إرادة السماء. إذا كانت هذه السماء قد أعدّت في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، عدوه كي يقوم مرة أخرى بينه وبين الحياة التي اختارها، فذلك لأن العلي القدير قد قرر أن هذا العدو يجب تحطيمه، وكان هو، غزال صياح الأداة المختارة لأجل القضاء عليه.

إنشاء الله...!

دراجتان ناريتان عبرتا مطلقتين صفيراً، وفي اللحظة نفسها تقريباً في القسم الأعلى من الشارع، بدأ الناس بالصياح والتصفيق.

أدخل الطارقي، غائباً عما هو خارج مهمته، يده في الكيس الجلدي، وبحث عن مقبض سلاحه. دراجات نارية جديدة، الآن في فصيل، ظهرت من المنعطف، وبعد عشرة أمتار من الخلف تقدمت ببطء شديد سيارة كبيرة سوداء مغلقة وتخفي أخرى مكشوفة، في قسمها الخلفي رجلاً يحيي رافعاً ذراعيه.

الشرطة تسيطر على الجموع التي تصرخ وتصفق، ومن نوافذ الأبنية نساء وأطفال يرمون الأزهار ووريقات ملونة.

ضغط بقوة على السلاح وانتظر. ساعة المحطة تركت دقتين تهربان وكأنهما تدعوانه مرة أخرى كي ينسى كل شيء، لكن الصدى ضاع بين عواء الصافرات والصراخ والتصفيق.

شعر الطارقي برغبة في البكاء. غمامة غشت عينيه، لعن بصوت مرتفع «غري ـ غري» الموت. والشرطي الذي فتح ذراعيه أمامه، عاد ونظر إليه، متفاجئاً بعبارة لا يدرك معناها.

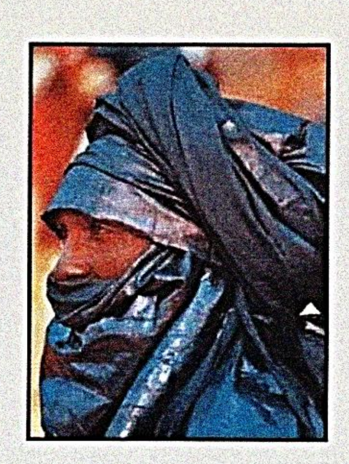
اجتازته فصيلة الدراجات النارية مخرسة كل شيء بجلبة محركاتها، ثم وصلت السيارة السوداء الكبيرة. وفي هذه اللحظة، رمى غزال كيس الجلد الكبير إلى جهة وأزاح بدفعة مباغتة الشرطي، ثم قام بقفزة متمركزاً بسرعة على بعد ثلاثة أمتار من العربة المكشوفة، مع المسدس الملقم والجاهز لإطلاق النار.

الرجل الذي يرد على الهتافات والتهليل بذراعيه المرتفعتين اكتشفه في اللحظة ذاتها تقريباً. ارتسم على وجهه الرعب، وقدّم يديه فاتحاً راحتيه ليحمي نفسه بينما ترك صرخة رعب تفلت منه.

أطلق غزال النار ثلاث مرات، وأدرك أن الرصاصة الثانية قد اخترقت القلب. نظر في وجهه كي يتحقق من سيمائه بأنه قد قتله، وكان كما لو أن شعاعاً إلهياً صعقه وشله من الدهشة.

دوت رشقات من رشاش، وغزال صياح، إنموشار معروف بلقب «الصياد» ارتمى على ظهره، ميتاً بجسد ممزق وارتباك مرتسم على وجهه.

أسرعت السيارة بالمسير بغتة، وعوت الصافرات فاتحة الطريق للبحث عن مشفى، في محاولة بلا جدوى لإنقاذ حياة الرئيس عبد الكبير في يوم النصر المجيد لعودته إلى السلطة.



طوارق

علي مولا

من الصعب أن تقرأ رواية «ألبرتو باثكث - فيكيروا» دون أن تصاب بالدهشة والمتعة معاً. فرواية «طوارق» رواية غرائبية، يمتزج فيها السحر واللامعقول مع حرارة الواقع. نحن هنا، داخل عمل فيكيروا، نعبر مغامرة تضعنا بين ظلال الخيال واحتمالات اليقين في مجرى الأحداث على امتداد الصحراء المغربية - الأفريقية.

هنا في رواية «طوارق» تُستعاد التقاليد العربية القديمة، من خلال رجل أسطوري - صيّاد يُطارد عبر هجير الصحراء، وأرض الخواء، والعطش والخوف والموت والتيه والرمال الحارقة، خصوماً حكوميين يتمكن من قتلهم واحداً تلو الآخر، جرّاء قتل أحد ضيوفه في مضارب خيامه، وأسر الآخر.

يضع رجل الطوارق الملثم قانونه الخاص في الاقتصاص شريعة له. وهو هنا يتبع عادات وتقاليد الطوارق في مسألة حماية الضيف والحفاظ على حياته حتى ولو كان مطلوباً مادام في حِماه.

وليس من المبالغة أو الإشهار الدعائي القول عن هذا العمل الروائي الممتع: إنه عمل نادر، يعطيك إحساساً باللذة إذا استعرنا من رولان بارت فكرة تشير إلى أهمية العلاقة بين الكتابة واللذة.

ولد ألبرتو باثكث - فيكيروا في «سانتا كروز دِ تينريفِ» عام 1936. وقضى طفولته ومراهقته في المغرب والصحارى. تحوّل في العشرين من عمره إلى بروفسور في البحرية، على متن سفينة مدرسية. ثم درس بعد ذلك الصحافة في مدريد.

في العام 1962 بدأ مهنته كمراسل دولي لامع، وكونت تقاريره الصحفية أساساً لعدد كبير من إبداعاته الأدبية «best-sellers» البعض منها أخرج أفلاماً.

هذا العمل «طوارق» أخرج فيلماً من قبل المخرج الإسباني «إنزو ج. غاستياري».

الناشر